أعلام العرب

١١٣

المأمون
الخليفة العالم

د. محمد مصطفى هدارة

أعلام العرب
١١٣

المأمون
الخليفة العالم

د. محمد مصطفى هدارة



١٩٨٥

الاخراج الفنى

كامل آشعيا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعد المأمون من أعظم الشخصيات الحاكمة التى يعتز بها فى تاريخنا العربى ، فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى كانت بداية لتفتح ينابيع الثقافة العربية التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قروناً طويلة ، وظهر فى فترة حرجة كانت تهتز فيها الخلافة العربية أمام أطماع الشعوبيين وأصحاب النحل والعقائد الشاذة الذين لا يريدون الخير للعرب ولا للإسلام .

وكان المأمون بطلا فى مواجهة مشكلات عصره من الناحيتين السياسية والحربية ، ولكن جهده الأكبر الذى ظل باقياً يشهد بفضله دفعه للحركة العلمية بما وهبه الله من حرية الفكر واتساع الأفق والمحبة والتقدير للعلم والعلماء .

ثم كان المأمون بعد ذلك كله قوة صامدة أمام مغريات عصره ، لا يجرفه تيارها ولا تهتز عواطفه أمام سلطان عقله ، فإذا انضافت إلى

ذلك صفات نادرة . قلما تجتمع فى شخصية واحدة . أدركنا أن المأمون جدير بالكتابة عنه لا بوصفه شخصاً فرضه علينا التاريخ ، ولكن بوصفه إنساناً فرض نفسه على التاريخ واستحق أن يوضع فى أكــرم مكان من صفحاته .

وقد كتب كثيرون عن المأمون . ولكننى لم أجد فيما كتبوا صورة كاملة للإنسان نفسه . وكان السرد غالباً على كتاباتهم والإغراق فى تناول عصر المأمون ومشكلاته ، دون جلاء صورته ذاتها .ولهذا اهتممت بهذه الناحية . وصرفت إليها عنايتى ، واستطعت — بقدر ما أسعفتنى المصادر التاريخية — أن ألملم جزئيات صغيرة فتصير صورة واضحة المعالم لشخصية المأمون أولا ولعصره والتطور الأدبى والعلمى فيه ثانياً . وأرجو أن أكون قد اقتربت من الغاية التى نشـــدتها . .

والله الموفق لســـواء الســـبيل . . .

محمد مصطفى هدارة

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٦٦ .

الفصل الأول

صورة العصر

لعل من أهم العوامل المؤثرة فى الحياة الاجتماعية منذ القرن الأول حركة التعريب الجنسى التى أخذت سبيلها منذ بدء عصر الفتوح عن طريق السبى . وهو نتيجة مباشرة لحركة الفتح ، وعن طريق الزواج بالكتابيات الفارسيات وغيرهن من الأجناس الأخرى . وعن طريق الموالى وهم الأعاجم الذين أسلموا . وكانوا عاملا هاماً خطيرا فى نشر اللغـــة العربية فى المناطق المفتوحة . وفى التقريب بين العنصر العربى والعناصر الأخـــرى .

والحقيقة إن سيل العناصر الفارسية بالذات كان من القوة فى القرن الأول وما تلاه ، بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان الصـــدارة فى العراق وفى خراسان . وفى هذه المناطق التى كانت تتكلم الفارسية أصلا ، وقد بلغ من عظم نفوذ الفارسية أن أسماء الأماكن فى البصرة كانت على صيغ فارسية مثل : مهلبان . أميتان ، عبادان ، كما لاحظ

يوهـــان فك [1] . وقد خضعت البصرة والكوفة للتأثير الفارسى إذ كان يرد إليهما سيل من التجار والصناع الفرس ، سرعان ما كونوا مع أسرى الحرب ذوى الأصل الفارسى أغلبية السكان فى هذين المصرين ، حتى صار للغة الفارسية مكان خطير إلى جانب العربية .

ومع هـــذا كله كانت عوامل التقريب تعمل عملها فى إدماج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب التنافر فيما بينهـــا ، حتى إذا أوشك القرن الأول على الانتهاء ، كان المجتمع الإسلامى قد ظهرت ملامحه واتجاهات حياته وخصائصه بوجه عام . ففى خراسان — كما فى غيرها من المناطق المفتوحة — نجد أن العرب الذين هاجروا إليها واستوطنوها قد تأقلموا فى وطنهم الجديد ، وأحسوا أنهم جزء منه . وبذلك اندمجوا فى حياته الاجتماعية اندماجاً كاملا حتى إنهم كانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان ، ويشربون النبيذ ، ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان ، ويشاركون فى كل مظهر كان الخراسانيون يجعلونه سمة لمجتمعهم . ولم يكن معنى هذا ذوبان الجنس العربى القليل العدد فى المجتمعات المحلية للأقاليم المفتوحة ، ولكن كان معناه اندماج العرب فى حياة هذه المجتمعات ، وسرعة انتشار اللغة العربية وآدابها أيضاً . ويبدو أن انتشار حركة التشيع فى العراق وخراسان بصفة خاصة قد ساعد على سرعة اندماج العرب والأعاجم فى تلك المنطقة .

---

(١) العربية : ١٣ .

ومما لا شك فيه أن العرب — بدرجة تحضرهم المحدودة — لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التى تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية على السواء . وكانتا أرقى حضارتين فى العالم فى ذلك الوقت . وكان تحرج العرب من الخضوع لهذه المؤثرات شديداً فى بدء اتصالهم بها ، فقد حدث فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن وقع حريق فى القصب الذى كانت الكوفة قد بنيت به ، فلما استأذنوه فى بنائها بالحجارة قال : افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة[1] .

فلما كان عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، نتج عن اقتراحه أن ينقل إلى الناس فيئهم حيث أقاموا من بلاد العرب ، ظهور الملكيات الضخمة فى العراق وغيره من الأمصار الإسلامية ، حتى وجدنا الصحابة أنفسهم يقتنون الضياع ويبتنون الدور ذات الشرفات كما يروى المسعودى . وفى هذا الوقت نفسه كان معاوية فى ولايته على الشام يقتبس من نظم حكم البيزنطيين وحضارتهم الشىء الكثير ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له عند قدومه إلى الشام ورؤيته مظاهر الأبهة والحضارة الجديدة : أكسروية يا معاوية [2] ؟ وعمر لا يقصد بهذه العبارة نسبة الحضارة إلى الفرس ، ولكنه يعنى أن معاوية قد اتخذ من أسباب الحضارة ما يجعله شبيهاً بكسرى .

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ١ : ٣١٢ .

ثم تدفقت الأموال على الدولة الأموية فى أعقاب الفتوح العديدة التى قامت بها . فافتن العرب عند ذاك فى وجوه إنفاق هذه الأموال الطائلة . ولم تكن حضارتهم العربية الساذجة تتيح لهم طريقة إنفاق هذه الأموال . ولكنهم وجدوا بغيتهم فى الحضارتين البيزنطية والفارسية وما كانتا تتميزان به من فخامة وأبهة فى الثياب والدور والمآكل والمشارب وأفانين اللهو والاستمتاع بالملذات . لهذا وجدنا فتى عربياً كيزيد بن معاوية — وهو بعد قريب من عهد الرسول — يقبل على الخمر إقبال النهم حتى إنه كان يسمى « يزيد الخمور »[1]. كما يقبل على الصيد وأنواع الملاهى غير متحرج . يقول المسعودى فى ذلك :

« وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب . . وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب . . وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته . ويطرح له متكأ . وكان قردا خبيثاً . وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ! »[2] . وهذا النص — إن صح — يطلعنا على التحول الكبير الذى طرأ على شكل المجتمع الإسلامى منذ وقت مبكر من القرن الأول الهجرى . وهو يشير إلى بدء تحلل المجتمع من ارتباطه بالدين والحياة الإسلامية التى أخذ بها نفسه فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين . ويقول

(١) العقد الفريد ٦ : ٣٤٨ .

(٢) مروج الذهب ٢ : ٩٤ .

« فون كريمر » فى ذلك : إنه على الرغم من تحريم القرآن أدخلت فى بلاط الخلفاء الأمويين عادة شرب الخمر فى زمن متقدم ، شربوا أولا عصير العنب المغلى (الطلا) أو شراباً مأخوذاً من اليونان سموه بالاسم اليونانى (رساطون)[1] . ويشير نص المسعودى أيضاً إلى بدء انغماس المجتمع فى المظاهر الحضارية التى تصاحب اتساع رقعة الدولة وتدفق المال إليها من كل جانب ، وما مظاهر الحضارة إلا هذه التى أخذ بها أمثال يزيد بن معاوية أنفسهم . فالحضارة كما يقول ابن خلدون : « تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتأنق فيه ، وهى تتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ ، والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد »[2] .

ذلك إذن هو الجانب المادى من الحضارة التى بدأت تشيع منذ القرن الأول ، وهذه الحضارة لا يمكن أن تكون بيزنطية فقط أو فارسية فقط ، ولكنها خليط من حضارات مختلفة للأمم التى دخلت فى نطاق الفتوحات العربية . ولو أن الكتاب يحبون أن يجعلوا التأثير الحضارى فى العصر الأموى بيزنطياً . وفى العصر العباسى فارسياً ، إلا أننا لا نجد ما يؤكد هذه النسبة أو يحدد هذا التقسيم . ونحن نعلم أن ارتداء

(١) الحضارة الاسلامية : ٩٢ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ١ : ٣١٠

الأثواب الرسمية التى يطرز على حواشيها اسم الخليفة مع بعض العبارات الدينية قد بدأ يشيع فى عهد عبد الملك بن مروان تقريباً . ويستدل من إطلاق لفظ « طراز » الفارسى — ويقصد به الزركشة فى الأثواب والتشجير فى النسيج والملابس الرسمية — على أن الخلفاء الأمويين اتبعوا فى هذه المظاهر الزى الفارسى لا البيزنطى ، وفى الوقت نفسه نجد أن قصور الأمويين مثل قصر (عمرة) الذى بناه الوليد الأول ، وقصر « خسربة المفجر » الذى بناه هشام بن عبد الملك ، كانت مليئة برسوم واضح أنها من صنع رسامين من الروم .

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية العربية تتعقد بتأثرها بحضارات مختلفة ، وأصبح شرب الخمر فيها والعكوف على الملذات شيئاً طبيعياً ، ومظهراً من مظاهر الحضارة فى هذا العصر . ولم تكن دمشق — عاصمة الخلافة الأموية — وحدها عاكفة فى جانب من جوانبها على هذا النوع من الحياة ، لأن تغير المجتمع الإسلامى لم يكن تغيراً إقليمياً محلياً ، بل كان تغيراً واسعاً شاملا ، لهذا نرى قسماً من المجتمع فى الكوفة والبصرة يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب ، بل حتى الحجاز نفسه تعرض لهذا التغير الاجتماعى إبان القرن الأول فازدهر فيه الغنــاء والإيقاع وفنون اللهو والعبث ، وكان فيه من يقبل على الشراب أيضاً كابن هرمة وغيره . ويقول الأصفهانى إنه فى أيام عثمان كان ابن سريج يغنى (وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وهو أول

من ضرب به على الغناء العربى بمكة [1] . وقد بلغ تعلق الناس بأنواع الفنون واللهو حداً كبيراً نستطيع أن نتمثله فيما رواه الطبرى إذ قال : «أوتى هشام بن عبد الملك برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال : اكسروا الطنبور على رأسه ، وضربه ، فبكى الشيخ ، فقال له أحد الجالسين يعزيه : عليك بالصبر ! فقال : أترانى أبكى للضرب ، إنما أبكى لاحتقاره للبربط إذ سماه طنبوراً» [2] .

أما الخلفاء أنفسهم فكانوا صدى طبيعياً لهذه الحياة الاجتماعية، إلا من اختلافات تحددها شخصية كل منهم ، وفيما عدا عمر بن عبد العزيز الذى كان صدى لناحية أخرى من الحياة — ناحية الزهد وتقوى الله — وجدت أيضاً بوصفها تياراً معاكساً لتيار اللهو والمجون ، وكان الناس يسمعون عن خلفائهم فيتأثرون بما يسمعون عما يأتون من أفعال أو كما قيل : (الناس على دين ملوكهم) ، وللطبرى نص طريف فى هــذا المعنى . يقول فيه : «كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون فى زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا

---

(١) الأغانى ١ : ٢٤٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٠ والبربط العود معرب لفظة بربط الفارسية ومعناها صدر الاوز لأنه يشبهه ، والطنبور آلة أخرى معرب لفظة دنبه بره الفارسية ومعناها الية الحمل لأنه يشبهها .

يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟ » [1] .

وما إن بلغ القرن الأول غايته حتى كان تيار اللهو والمجون قد اتخذ مجرى له فى حياة الجماعة الإسلامية . ونستطيع أن نتمثل مدى ما وصل إليه فى شخصية الوليد بن يزيد ، تلك الشخصية التى يعدها طه حسين مظهر الحياة الجديدة التى أخذت تظهر فى أول القرن الثانى للهجرة ، ويصوره بأنه كان مشغوفاً أشد الشغف بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية، وأنه كان متعلقاً أشد التعلق بهذا النوع من الحضارة الجديدة[2] . ولكن أى نوع من المظاهر كان لتلك الحضارة الجديدة ؟ لقد كانت تتمثل فى إمعان الوليد وكثرة من أهل عصره فى التحالل مما يفرضه عليهم دينهم . فقد وقر فى نفوسهم بعد اتصالهم بألوان الحضارة المختلفة أن الحرية الدينية معناها أن يفعل كل امرىء ما يحب وما يشتهى دون أن يخشى ملاماً أو رقيباً . فما يمنع من الشراب إذن والتفنن فى مجالسه ، وما يمنع من الإباحة الاجتماعية فى كل صورها وأشكالها ؟ ما الذى يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قدر الكعبة ويحاول أن ينصبها فوقها لتصير مجلس شراب من نوع مبتكر جديد[3] ، يجلب له المتعة واللذة لمجرد إحساسه بأنه يمارس حريته الدينية التى كفلتها له الحضارة الجديدة ؟!

---

(١) تاريخ الطبرى ٧ : ٩٨ .

(٢) من حديث الشعر والنثر : ٨٣ .

(٣) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٠ ، تاريخ اليعقوبى ٢ : ٧٣ .

ما الذى يمنع الوليد من أن يرسل إلى الكوفة فى طلب خلعائها وشعرائها الماجنين فيسمع منهم من ألوان المجون ما يطرب له ويسكر عليه ؟ وهو إذا شاء أن يستمتع بالغناء بعث بريده إلى المدينة فى طلب معبد ، فإذا جاء دمشق ، هيئت للوليد بركة خمر وماء . حتى إذا انتشى من الغناء وأخذ الطرب بمجامعه ألقى بنفسه فى البركة فنهل منها نهلة ، ثم أتى بأثواب غيرها وتلقاه الخدم بالمجامر والطيب[1] . والوليد لم يكن يستحى أن يسخر وسائل الدولة وأجهزتها فى تلبية مطالب لهوه ، واستجابة لهواه ولذته ، فهو يكتب إلى والى خراسان ليبعث إليه برابط وطنابير.

أما ملابس الوليد وطبقة السراة فى المجتمع فقد تأنقوا فيها أشد التأنق . وغالوا بها أشد المغالاة ، حتى بلغ من تأنقهم أنهم كانوا يلبسون عقود الجواهر ويغيرونها فى اليوم مراراً ، كما تغير الثياب شغفاً ، ويبدو أن فتنة الوليد بمظاهر الحياة المادية وإغراقه فيها ، كانت على مبدأ (أطيب اللذات ما كان جهاراً بافتضاح) الذى شاع فيما بعد فى العصر العباسى ، ولكن هذا المبدأ صدم الشعور العام ، ونجح منافسو الوليد فى تهيئة أذهان الناس للثورة عليه، غضباً لله وللدين ، كما جاء فى قولهم له : ما ننقم عليك فى أنفسنا ، ولكن ننقم عليك فى انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله »[2] .

وقد حاول بعض الباحثين من القدماء والمحدثين الدفاع عن الوليد

(١) الأغانى ١ : ٥٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ٩ : ١٣ .

ابن يزيد باعتبار أن أغلب الروايات التى صورت لنـــا إباحيته مكذوبة ، ولكنى أرى أن الوليد كان صورة صادقة لما وصلت إليه ناحية من الحياة الاجتماعية فى عصره ، من عكوف على الملذات وانكباب على اللهو . وما لنا ننكر على الوليد هذه الحياة العابثة ولا ننكر على كثير من معاصريه ممن لم تتح لهم الفرص التى أتيحت للوليد فعاونته على اللهو والعبث ، من السلطان والجاه والأموال ، فهذا هو الطبرى يروى لنا قصة تمثل الحياة الاجتماعية فى بداية القرن الثانى — حوالى العصر الذى عاش فيه الوليد — يقول فيها : إنه عندما هزم مروان بن محمد سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، أمر بقتل كل الأسرى ما عدا العبيد ، فأتى بخال لهشام يقال له خالد بن هشام المخزومى وكان بادناً كثير اللحم — فأدنى إليه وهو يلهث ، فقال له : يا فاسق ، أما كان لك فى خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن الخروج مع الحزاء تقاتلنى ! قال : يا أمير المؤمنين ، أكرهنى فأنشدك الله والرحم ! قال : وتكذب أيضاً ؟ كيف أكرهك وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك فى عسكره[1] ؟ .

إلى هذا الحد إذن وصلت الحياة الاجتماعية فى أواخر العصر الأموى وبداية العباسى ، وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نقول إن هـــذه الصـــورة تمثل تماماً طبقات المجتمع العربى بجميع أفرادها فى ذلك العصر ، ولكنهـــا على أية حال تعطينا فكرة واضحة عن تيار

(١) المصدر نفسه ٩ : ٦٣ .

وجد فى هذا المجتمع ، ولعله أثر فى أغلبية أفراده على تفاوت هذا التأثير بينهم . وهذا لا ينفى وجود فئة جادة مقيمة على دينها ، محافظة على تقاليدها ، حتى مع غناها وثروتها ، كما أن هذا أيضاً لا ينفى وجود طبقة أخرى من الفقراء المعوزين أو متوسطى الحال الذين كان يشغلهم فى هذا المجتمع كفاحهم فى سبيل الحصول على أسباب الحياة ، فما بالك بعقود الجوهر وما أشبه ؟ ومع هذا فدارس العصر يخرج بنتيجة مؤكدة تتصل بهذا الحديث ، وهى أن التهتك والمجون لم يكن يتناسب طردياً مع الغنى والجاه ، وعكسياً مع الفقر والمتربة ، فهذا التناسب لا يمكن أن يكون حقيقياً فى أى مجتمع إنسانى . فقد نجد معوزاً يشتهى كسرة خبز ، ومع ذلك فهو أكثر تهتكاً من الخليفة الوليد بن يزيد نفسه ذى الجاه والسلطان والأموال . والعكس قد يكون صحيحاً أيضاً . والسبب فى هذا يرجع — فى رأيى — إلى عناصر معينة فى شخصيات أفراد المجتمع ، كما يرجع إلى طبيعة بيئتهم ونشأتهم ومدى تأثرهم بالدين ، ومقدار خضوعهم للمؤثرات الحضارية . وعلى أية حال كانت المؤثرات والعوامل التى تدعو إلى التهتك والفتنة على نطاق واسع شائعة ، ميسرة فى هذا العصر . فالمجتمع العربى كان يتكون من طبقات ثلاث شأن أى مجتمع عليا ، ووسطى ، وسفلى. ولكن داخل هذه الطبقات كانت توجد عناصر مختلفة فى مكانتها الاجتماعية ، وفى الدور الذى تقوم به فى مجتمعها . كانت هناك فئة من العرب تدفقت عليهم الأموال

من كل جانب : من الفتوح ومن العطـاء ومن التجارة والزراعة ، وكانت هناك فئة أخرى من العرب تعيش حياة متوسطة وتكسب عيشها من أى سبيل: الخدمة فى الجيش أو المتاجرة البسيطة ، أو ما أشبه . وكان هناك غير العرب الموسرين وغير الموسرين طبقة الموالى بالعتاقة أو بالولاء ، وهؤلاء كان عددهم ضخماً فى المجتمع الإسلامى ، وكان دورهم فيه يتناسب مع ضخامة عددهم . وقد كون هؤلاء الموالى مع العرب عدة روابط متشابكة فى الحياة الاجتماعيـة والسياسية والاقتصادية ، وأقبل العرب على الزواج من نسائهم . فتوثقت الصلة بين الفريقين وامتزجت العادات والثقافات .

وكان هناك عدا العرب والموالى طبقة الرقيق . وهى طبقة هامة جداً، على الرغم من هوان شأنها فى المكانة الاجتماعية ، إذ كان تأثيرها خطيراً جداً فى المجتمع الإسلامى . لقد انتشر الرقيق بأجناسه المختلفة انتشاراً واسعاً على أثر الفتوحات الواسعة التى قام بها المسلمون فى مختلف أقطار الأرض ، حتى إنه لم يكن يخلو بيت فى ذلك العصر من الرقيق . وأصبحت الجوارى فى متناول كل فرد فى المجتمع ، كل حسب مقدرته المادية . وكان مباحاً للسيد أن يتسرى من شاء من جواريه ، ومن تلد منهن له تسمى أم ولد ، وتصبح لها حقوق اجتماعية جديدة ، فلا يحق لمالكها أن يبيعها أو يهبها ، بل تبقى حـلا له حتى يموت ، فتصير عندئذ حرة تجرى عليها أحكام الحرائر . وبطبيعة الحال كان

أولاد الإماء من سادتهن أحراراً بحكم العرف الاجتماعى . ونستطيع أن نتصور مدى تأثير الرقيق فى المجتمع الإسلامى لو نظرنا فقط إلى هذه الطبقة الجديدة من أولاد السادة من إمائهن ذوات الجنسيات والعادات والثقافات المختلفة . ومما زاد فى عظم أمر هذه الطبقة تعاقب الخلفاء من نسل أمهات الأولاد منذ أواخر العصر الأموى ، وأعتقد أن أول هؤلاء الخلفاء هو يزيد بن الوليد الذى جاء إلى الحكم فى أعقاب الربع الأول من القرن الثانى (عام ١٢٦ هـ.) وأمه اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد ، وكان يزيد يفتخر بنسبه هذا قائلا :

أنا ابن كسرى وأبى مروان

وقيصر جدى وجدى خاقان

وتعاقب الخلفاء ممن أمهاتهم أمهات أولاد بعد ذلك حتى لا نكاد نعثر إلا على أفراد منهم من نسل أمهات عربيات ، وخاصة فى العصر العباسى . بل هناك ظاهرة تسترعى الانتباه حقاً وهى زواج الخلفاء بحرائر عربيات وندرة وجود نسل منهن ، بعكس كثرة نسل الخلفاء من الجوارى ، فالرشيد مثلا لم ينجب من زوجته العربية زبيدة غير الأمين مع أنه قد تزوجها فى عام ١٦٥ هـ ، وظلت معه نحو ثمانية وعشرين عاماً ، وأنجب من زوجته الحرة الأخرى أمة العزيز ابنه علياً ، ولم نسمع أنه أنجب من زوجاته الحرائر الأخريات وهن : أم محمد ابنة صالح المسكين ، وقد تزوجها عام ١٨٧ هـ ، والعباسة ابنة سليمان

ابن أبى جعفر التى تزوجها فى السنة نفسها ، وعزيزة ابنة الغطريف ، والجرشية العثمانية، ولكنه أنجب المأمون من جاريته مراجل ، والقاسم من قصف، والمعتصم من ماردة ،وصالحاً من رئم ، وأبا عيسى من عرابة ، وأبا يعقوب من شذرة ، وأبا العباس من خبث ،وأبا سليمان من رواح ، وأبا على من دواج ، وأبا أحمد من كتمان .أما بناته فكلهن من نسل الجوارى أيضاً :سكينة من قصف ، وأم حبيب من ماردة ، وأروى من حلوب ، وأم الحسن من عرابة ،وأم محمد من حمدونة ،وفاطمة من غصص ،وأم أبيها من سكر ،وأم سلمة من رخنق ،وخديجة من شجر ،وأم القاسم من حزق ، ورملة من حلى ، وأم على من أنيق ،وأم الغالية من سمندل ، وريطة من زينة[1] ،ومعنى هذا أن الرشيد تزوج بست حرائر أنجب ولدين من اثنتين منهن . ولم ينجب من بقيتهن . وتسرى إحدى وعشرين جارية أنجب منهن عشرة من الذكور ، وأربع عشرة بنتاً . ولا بد أنه تسرى عدداً آخر غير هؤلاء لم ينجب منهن . والرشيد مجرد مثال يصدق على غيره من خلفاء هذا العصر ، وهو يطلعنا إلى أى مدى كان المجتمع العربى يتحول من ناحية تكوينه الجنسى ، ويستتبع ذلك تطور خصائصه النفسية والفكرية بوجه عام ، وتبدل ذوقه وميوله .

ونرى هذا التبدل واضحاً فى كل شىء ، فى النفوس والعقول ، وفى المظاهر الشكلية أيضاً . لقد نبذ الزى العربى ، واتخذ الناس ملابس

(١) انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢١ .

مختلفة ترجع إلى أصول بيزنطية وفارسية ، وزاد الإقبال على اتخاذ الأزياء الفارسية فى العصر العباسى حيث نجد الخليفة المنصور يأمر أصحابه بلبس السواد شعار العباسيين وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها — شأن الفرس — وكان أغلب هذه القلانس من الخز ، وبعضها من جلود الثعالب أما ألوانها فكانت مختلفة ، وحتى العمائم دخلها التنوع — مثلما كان يفعل الفرس — فكان للخلفاء عمامة تختلف عن عمامة الفقهـاء وهـكذا[1] .

وفى عهد العباسيين أصبحت الأعياد الفارسية القديمة احتفالات شعبية عامة مثل عيد النيروز والمهرجان ويوم رام . وكان الناس يشتركون أيضاً فى أعياد النصارى التى ينبئنا الشابشتى أنها كانت مقسومة ببغداد على ديار معروفة ، منها أعيـاد الصوم ، فالأحد الأول منه : عيد دير العاصية ، والأحد الثانى عيد دير الزريقية ، والأحد الثالث عيد دير الزندورد ، والرابع عيـد دير درمالس ، وعيده أحسـن عيد يجتمع نصارى بغـداد إليه ، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم [2] . كما كان الاحتفال بيوم الشعانين أيضاً عيداً عاماً يشترك فيه جمهور الناس ، وحتى الخلفاء أنفسهم ، كما يفهم من نص فى الأغانى[3] . ولعلنا نتبين فى مشاركة الناس فى هذه الأعياد نوعا

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٦٥ .
(٢) الديارات : ٣
(٣) الأغانى ٩ : ١٢٨ .

من الإقبال على الحياة وتحديدها بمثل هذه الاحتفالات ، كما أنها تكشف أيضاً عن وجود حرية دينية مكفولة للجميع . ومما يؤكد هذه الفكرة ما يذكره أبو قابوس – وهو شاعر نصراني عاصر الرشيد – من « مباهاة » النصارى فى كنائسهم إذ يقول :

أبا الفضـــل لو أبصرتنـــا يوم عيـــدنا
رأيت مبـــاهـــاة لنـــا فى الكنـــائس (١)

ومع تأثر الأزياء والأعياد بنظم الحضارات الأجنبية التى استوعبها الإسلام فى فتوحاته ، تأثرت حـــركة البناء والعمـــران ، فبعد أن كان الناس يسكنون فى الأخصاص وبيوت الشعر والقصب ، أخذوا يتدرجون فى العمران منذ القرن الأول ، كما نرى فى قصور الخلفاء الأمويين ، وقصر عبيد الله بن زياد الذى بلغت نفقاته نحو مليونى درهم فيما يقال – حتى أصبحوا فى القرن الثانى يهتمون بإقامة القصور الفخمة وأصبح الأثرياء يهتمون بزراعة البساتين الفواحة بالشذى ، وإنشاء أحواض للسباحة ، وحدائق للحيوان . ولعل من أروع ما حكاه الرواة عن ترف البناء ، ذلك الوصف الذى نقلوه لنا عن الإيوان الذى بناه الأمين والذى كان يسافر فيه البصر ، وقد جعل كالبيضة بياضاً ، ثم ذهب بالإبريز المخالف بينه باللازورد ، وكان ذا أبواب عظام ومصاريع غلاظ ، تتلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رؤوسها

---

(١) شعراء النصرانية بعد الاسلام : ٢٤١ .

بالجوهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، منقش بتصاوير الذهب ، وتماثيل العقيان ، ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد[1] ، وأخذت ألوان الطعام تتعقد أيضاً بتعقد أسباب الحضارة حتى لقد روى طيفور أن جعفر بن محمد الأنماطي الفقيه تغدى عند المأمون فذكر أنه وضع على المائدة ثلاثمائة لون من الطعام[2] . وتغالى الكثيرون من الأغنياء في شراء الجواهر الكريمة، أكثر مما كان في عهد الوليد بن يزيد ، حتى إن صالحا صاحب المصلى أيام هارون الرشيد اشترى فصاً من عون العبادي بعشرين ألف دينار[3] .

ولعلنا نستطيع أن نقول إن تأسيس بغداد في أول الخلافة العباسية كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الإسلامي وإغراقه في الحضارة ومظاهرها المادية ، وانغماسه أكثر فأكثر في أساليب الحياة الأجنبية عنه ، تلك التي كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة على أمرها ، وحتى تخطيط بغداد يظهر فيه الأثر الفارسي — كما يقول عبد العزيز الدوري — إذ فصل الخليفة عن الرعية ، وجعل له مقاماً سامياً يصعب الوصول إليه ، كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك، وفكرة استدارة المدينة وحصر بيوت السلطان في أحياء منفصلة يمكن إغلاقها

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز : ٢٠٩ .
(٢) كتاب بغداد : ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه : ١٣ .

ليلا وحراسها بصورة دقيقة ، يشير إلى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس ، والتى تتعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ، ومع الديمقراطية الإسلامية على حد سواء[1] .

والحقيقة إن انتقال الدولة إلى المشرق جعل الحياة الاجتماعية — على حد قول الدكتور طه الحاجرى — معقدة مشتبكة النواحى أكثر من ذى قبل ، إذ تغالى المجتمع فى انصرافه إلى الناحية المادية ، فأصبح المال ميزان الرجال، وأخذ يتردد فى الأمثلة الجارية فى بغداد : المال مال وما سواه محال . ولهذا توسل الناس إلى المال بشتى الوسائل ، لايعفون عن محرم ، ولا يتورعون عن خبيث ، ولا يعبأون أن يتخذوا من المعانى الكريمة أسباباً يخادعون بها ، حرصاً عليه وإجلالا له ، حتى أصبحت مظاهر الدين شركاً من شراكه . ويمضى الدكتور طه الحاجرى فى وصف هذا التطور الاجتماعى فيقول : إن هناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال ، وتعد فى حقيقة الأمر من أولى العوامل المؤثرة فى قيامها ، وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد ، وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب ، وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم ، إذ كانت ثغر العراق والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب ، والذى يستقبل متاجر

(١) العصر العباسى الأول : ٩٧ .

الهنـــد وجزر البحار الشرقية ، ومن أجل ذلك كانت تســـمى أرض الهنـــد وأم العـــراق[1] .

والحقيقة أيضاً إن العراق فى العصر العباسى أصبح مركزاً للحيـــاة الاقتصادية الدائبة الحركة وكانت البصرة هى القلب النابض لهـــذه الحياة ، إذ اجتمعت فيها صنوف التجارة ، وامتدت علائقها الاقتصادية إلى الهنـــد والصـــين شرقاً ، وإلى أقصى بلاد المغرب وجنوب الحبشـــة .

وكانت السفن ترسو فى مينائها وتحمـــل أصناف التجارات من الأقمشة والأطياب وغيرها . وقد تكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين إليها للاتجار أوللإقامة ، حتى لقد بلغ ما جبته الحكومة من أحد التجار البصريين مائة ألف دينار فى عام واحد[2] ، وهذا المبلغ يصور لنا مدى الثراء الذى كان يصيبه تجـــار البصرة ، والذى كان يصيب الحكومة العباسية بالتالى .

وبسبب ازدهار الحيـــاة الاقتصـــادية فى البصرة فى القرن الثانى تضاعف عدد سكانها بضع مرات حتى بلغوا نصف مليون نسمة بدليل المال الذى فرقه فيهم أبو جعفر المنصور ، وكان ألف ألف درهم فـــلم

---

(١) مقدمة البخلاء بتحقيق الحاجرى : ٢٤ وما بعدها .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ٢ : ١٧٧ .

يصب الرأس منهم إلا درهمين[1] . وكان من نتيجة هـذا الاستقرار الاقتصادى فى البصرة وهذا الثراء ظهور حركة علمية نشطة من علماء الكلام وغيرهم ، كما نشأت فى الوقت نفسه طبقة من المجـان المستهترين بجميع القيم ، وظهور هذين التيارين المتضادين كان نتيجة طبيعية لتدفق الأموال وشيوع الرخـاء فى هذه المدينة التجارية النشطة .

ولم تلبث بغـداد بعد إنشائها أن نافست البصرة فى ثروتها ورخائها ، ولم يغفل المنصور — عند اختيار موقعها — عن أهمية الوضع الاقتصادى فى حياة هذه المدينة ، فهو يقول : « إنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ، ويوافقهم مع موافقته لى ، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد المئونة ، فإنى إن أقمت فى موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شىء ، غلت الأسعار وقلت المئونة ، وشق ذلك على الناس[2] ، وقد ظل المنصور مهتما أشد الاهتمام برعاية الحيـاة الاقتصادية فى جميع أنحاء مملكته حتى إنه كان يكلف ولاة البريد فى الآفاق كلها — كما يقول الطبرى — بأن يكتبوا إليه كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شىء منها عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العـلة التى نقلت ذلك

---

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام : ٥

(٢) تاريخ الطبرى ٩ : ٢٣٩ .

عن سعره ، فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك حتى يعود سعره إلى حاله [١] .

وهذا الاهتمام الكبير باستقرار الأوضاع الاقتصادية وتثبيت أسعار السلع الضرورية التي هي عماد الناس في حياتهم في كل مجتمع إنساني ، قلما نجده عند خلفاء بني أمية في القرن الأول وأوائل الثاني، لهذا لايستغرب ذلك الرخاء العظيم الذي ساد الحياة الإسلامية حتى عصر هارون الرشيد، كما لا نستغرب ذلك الثراء الفاحش الذي بلغته الدولة في سنوات قلائل من الحكم العباسي ، ذلك أن غنى الأفراد يستتبع في ميزان الاقتصاد غنى الدولة . وقد جاء في بعض المصادر أن الضرائب بلغت في عهد هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليوناً من الدنانير ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ من غلة الأرض[٢] .

وبلغت جباية الدولة في أيام المأمون أربعمائة مليون درهم ما عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته . ومع أن الضرائب قد كثرت وتنوعت أيام العباسيين تنوعاً كبيراً إلا أننا لم نسمع تذمراً بين الناس من ثقل هذه الضرائب ، والسبب في ذلك أنها كانت تتناسب — فيما يبدو — مع الرقي الاقتصادي الذي بلغته الدولة في شتى المرافق ، فمن الضرائب الجديدة التي فرضها العباسيون أعشار السفن ، وأخماس المعادن والمراصد (الجمارك) ، وغلة دار الضرب (وكانت العملة

(١) تاريخ الطبري ٩ : ٣١٤ .
(٢) تاريخ الاسلام ٢ : ٢٦٢ .

سلعة تباع وتشترى) ، والملاحات والأسماك والمستغلات (وهى أراض للسلطان مؤجرة) ، وضرائب الصناعة ، إلى ما سوى ذلك[1] .

ومن تنوع هـذه الضرائب نستطيع أن ندرك أن الدولة العباسية لم توجه عنايتها إلى التجارة والزراعة فحسب ، ولكنها وجهت عناية كبيرة إلى الصناعة . وقد أشار إلى ذلك « سيديو : فقال : إنهم استثمروا مناجم الحديد بخراسان ومناجم الرصاص بكرمان ، كما استخرجوا القار ، والنفط ، وطين الصينى ، ورخام تبريز ، والملح الأندرانى ، والكبريت بمهارة . وفى عهدهم بلغت صناعة النسيج فى الموصل وحلب ودمشق قدرا عظيما من الرقى كما تقدمت الفنون الصناعية الأخرى تقدماً كبيراً[2] .

وهذه النهضة الصناعية كانت من بين أسباب الثروة التى أحرزتها الدولة الإسلامية أيام العباسيين ، كما كانت من أسباب الرقى الفكرى والنهضة العلمية بمظاهرها وفروعها المختلفة . وقد أسهمت فى إشاعة عنصر الرخاء والطمأنينة بين طبقات الشعب على اختلافها فى القرن الثانى . فكان الأغنياء يقيمون القصور الرائعة التى كانت وما تزال مثاراً للخيال ، ودلالة على الترف فى أذهان الناس ممن يقرأون قصص ألف ليلة وليلة وما أشبه . ويصف لنـا المؤرخون قصوراً تبدو كالأساطير والأحـلام كقصر محمد بن سليمان الهاشمى الذى بناه على شاطىء

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٢ : ٧٥ .
(٢) تاريخ العرب العام : ٢٢١ .

أحد الأنهار ، واتخذ فى جنانه المهار والغزلان والنعام وأنواع السباع ، والطيور المغردة ، وكغيره من القصور التى كانت حوائطها مكسوة بالوشى والديباج ورقائق الذهب والأحجار النفيسة ، والتى كانت مجالسها فتنة للناظرين بما فيها من فرش فاخر ومتاع ثمين ، وكان الفقراء ومتوسطو الحال يحيون حيـــاة كريمة ليس فيها ذل الفاقة والعوز ، وذلك نظراً لرخص أثمان السلع الضرورية ، وتوفر أنواع المـآكل . فكانت بغداد عامرة بالمتاجر والبضائع ، وكان لكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف فى تلك الشوارع وحوانيت عراض . فكنت تجد سوق البزازين ، وسوق الجزارين ، وسوق الدجاج ، وسوق الطعام ، ومحلة أصحاب الصابون ، وهكذا كل أهل تجارة معتزلون عن غير تجارتهم [١] . وكانت أسواق البصرة والكوفة لا تقل عن بغـــداد . — إن لم تزد — فى مظاهر رخائها ورواج سلعها ، حتى إن سوق الكوفة كان فيه مكان لباعة الأزهار كالبنفسج والزنبق [٢] .

ومما يدلنا على اختلاف النظام الاقتصادى فى العصر العباسى عن نظام الأمويين تلك الملاحظة الطريفة التى سجلها ابن خلدون حين قال إن أعطية بنى أمية كان أكثرها من الإبل ، أما فى عصر العباسيين فقد أصبحت الأعطية من أحمال المال ، وتخوت الثياب وأعداد الخيل

(١) بغداد فى عهد الخلافة العباسية : ٥٩ .

(٢) خطط الكوفة : ٢٦ .

بمراكبها[1] . وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الأمويين كانوا يأخذون بمذاهب العرب ، وربما كان لذلك السبب نصيب من الصحة ، ولكنه ليس السبب الأهم ، فتطور الحيـاة الاقتصادية هو الأساس الأول لوجود مثل هذا الفارق .

ولعل خير ما يصور لنا تطور الحياة الاقتصادية فى القرن الثانى ذلك البيان الذى سجله الخطيب البغدادى وضمنه أسعار الحاجيات أيام الخليفة أبى جعفر المنصور ، فهو يذكر لنـا أن الكبش كان بدرهم ، والحمل بأربعة دوانق ، والتمر ستون رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم . والسمن ثمانية أرطال بدرهم [2] ، وهذه الأثمان خيالية فى رخصها ، خصوصاً إذا قورنت بدخول الأفراد فى ذلك العصر ، ونقصد بهم الأفراد العاديين كجنود الجيش مثلا ، فقد كان عطاء المقاتل يتراوح فى بعض الأقوال بين مائتين وألف وخمسمائة درهم سنوياً ، يدفع له فى المحرم عند بداية السنة الهجرية ، أى أن راتب الجندى كان يتراوح بين عشرين ومائة وعشرين درهماً تقريباً فى كل شهر . وجاء فى قول آخر إن عطاء الجندى العادى كان يبلغ تسعمائة وستين درهماً سنوياً أى بواقع ثمانين درهماً فى الشهر ، وكان للفارس ضعف هذا المبلغ ليتمكن من الإنفاق على فرسه . ثم تناقصت قيمة العطاء حتى صار فى

---

(1) تاريخ ابن خلدون ١ : ٣١١ .

(2) تاريخ بغداد ١ : ٧٠ .

زمن المأمون بواقع عشرين درهماً فى الشهر للجندى العادى (١).
ولو أننا افترضنا صحة أقل مبلغ للعطاء ذكره المؤرخون وهو عشرون درهماً ، لكان شيئاً كبيراً بالنسبة لأثمان السلع فى أيام المنصور ، ولكن هذه الأثمان لم تظل كما هى بطبيعة الحال ، بل أخذت فى التزايد شيأً فشيئاً دون أن تزاد قيمة العطاء – إن لم تنقص فى كثير من الأحيان – مما أحدث فى النهاية اضطراباً اقتصادياً فى مجتمع القرن الثانى ، ظهر أثره فى عهد الأمين حين تكشفت بغداد عن جانبها الفقير البائس : ويمكننا أن نتمثل هـذا الاضطراب إذا علمنا أن أثمان المواد الضرورية قد تضاعفت عدة مرات فى أيام الرشيد ، فقسط الزيت أصبح يساوى تسعة دراهم ، والشاة بلغت ستة دراهم ، أما الألبسة والمنسوجات فكانت أسعارها تختلف بطبيعة الحال تبعاً للمواد المصنوعة منها ،وحسب المهارة الفنية فى صنعها ، فكان سعر القميص العادى المصنوع من القطن أربعة دراهم ، أما كساء الخز الذى كان يلبسه الأغنياء فكان ثمنه لا يقل عن أربعمائة درهم .

والحقيقة إن تطور المجتمع فى منتصف القرن الثانى بعد قيام الدولة العباسية وإغراقه فى مظاهر الحياة المادية ، يمكن أن يتصور فى حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم ، فحركة العمران وبناء القصور الفخمة كانت ماضية فى طريقها أيام المنصور وخاصة منذ ابتنى مدينته الجديدة

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ١ : ١٨٢

بغـــداد وأخذت الثروة تتدفق إليها من كل مكان كما بينا ، ومع ذلك يجمع الرواة على أنه لم ير فى دار المنصور لهو قط ، ولاشيء يشبه اللهو والعبث ، وقد غضب المنصور غضباً شديداً حين سمع فى قصره خادماً يضرب للجوارى بالطنبور ، فقام إليه وحطمه على رأسه ، وكتب عامل البريد إلى المنصور بأن واليه فى حضرموت يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله وكتب إليه : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش » . وحدث أن بطح المنصور كاتبا له فنظر إلى سراويله فإذا بها من الكتان فأمر بضربه قائلا : لا تلبس سراويل كتان فإنه من السرف . وفى عهد المنصور — فيما يبدو — بدأ ظهور الزنادقة والمجان يستشرى فى المجتمع الإسلامى ، كما نفهم من سياق خبر أورده الطبرى[1] ، وقد أعانت على ظهور هذه الطبقة مجموعة من المؤثرات المختلفة من سياسية وثقافية إلى جانب التأثير الاجتماعى ، ولكن يظهر أيضاً أن حركة الزندقة فى هذه الفترة لم تكن قد وصلت إلى حـــد الخـــطر الذى ينذر المجتمع الإســلامى بالانهيــار .

وحين ولى المهدى الخلافة وجد خزانة الدولة عامرة بالأموال التى اكتنزها المنصور فأسرف المهدى إسرافاً شديداً ، ويقول الخطيب

(١) انظر النصوص السابقة فى تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٤ ، ٣٠٨ .

البغدادى إن المنصور ترك فى بيت المال شيئـا لم يجمعه خليفـة قط من قبله ، فلما صارت الخلافة إلى المهدى قسم ذلك وأنفقه (١) .
وهذه الثروة الطائلة التى خلفها المنصور اعترف بها فى وصيته لابنه إذ يقول له : « وانظر هذه المدينة (بغداد) قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً » (٢)

وكانت شخصية المهدى أقل تزمتاً من المنصور ، فكان يحب السماع ويستهتر بذكر النساء ، ولكنه كان لا يشرب النبيذ ، وإن كان الطبرى يقول : إنه لم يكن يتحرج فيه ، ولكنه كان لا يشتهيه « (٣) .

وقد نشطت حركة الزندقة فى عهده نشاطاً كبيراً حتى لاح خطرها واستعلن شرها ، ولهذا نجد المهدى فى أخبار عام ١٦٦ هـ يطلب الزنادقة فى كل مكان فإذا أقروا استتابهم وخلى سبيلهم ، فلما لم تجد معهم هذه الوسيلة نراه يأمر بحبسهم . وحين عاين المهدى أن حبسهم لم ينزع ما بنفوسهم جد فى طلبهم والبحث عنهم وقتلهم ، وذلك ابتداء من عام ١٦٧ هـ ، وأنشأ لأول مرة — فيما نعلم — منصب « صاحب الزنادقة » ،

---

(١) تاريخ بغداد ٥ : ٣٩٣ .
(٢) تاريخ الطبرى ٩ : ٣٩١ .
(٣) المصدر نفسه ١٠ : ٦ .

فكان فيه أولا عمر الكلواذى ، وعندما توفى تولى مكانه حمدويه ، وعلى يده قتل عدد كبير من الزنادقة فى بغداد عام ١٦٨هـ [١] .

أما ترف المهدى فلم يكن بالشىء الكثير ، فهو لم يتعد فى هذا الميدان أن يكون أول من لعب الصوالجة فى الإسلام ، وأول خليفة حمل لـه الثلج إلى مكة فى أثناء الحج .

ولم تنتقل الحياة الاجتماعية نقلة كبيرة أيام الهادى ، فمع أنه كان صاحب شراب ومجون ، إلا أنه جد فى طلب الزنادقة والقضاء عليهم طبقاً لوصية أبيه المهدى، ولكن هذه النقلة الاجتماعية الخطيرة حدثت أيام الرشيد ، إذ كانت عناصر الاستقرار فى الدولة قد رسخت ، وتدفق المال إليها من كل مكان، فاشتد إغراق الناس فى ألوان الحضارة واندماجهم فيها ، وكان شعارهم فى ذلك (ألا تؤخر لذة اليوم لغد) ، كما جاء فى قول هبة الله بن إبراهيم بن المهدى[٢]، وأصبحنا نجد أن عشق الرجل للمرأة وعشق المرأة للرجل لا ينظر إليه على أنه من الأخبار الشخصية التى يجب أن تكتم عن الناس ، بل نجد فى هذا المضمار «علية بنت المهدى» تهوى خادمين فى قصر الرشيد هما طل ورشا وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة صراحة. كما نجد أيضاً أن عادة شرب الخمر قد مست حتى البيئات الدينية ، فالخطيب البغدادى يذكر لنا

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٨ ــ ١٠ .
(٢) الأوراق (أشعار الخلفاء) : ٥٠ .

أن محمد بن الضو المحدث (ليس بمحل لأن يؤخذ عنه العلم لأنه كان أحد المتهتكين بشرب الخمور ، والمجاهرة بالفجور ، وكان أبو نواس يزوره فى الكوفة ، فى بيت خمار بالحيرة يقال له جابر)[1] . ونجد فى قصر الرشيد لأول مرة ابن أبى مريم المدنى (وكان مضحاكاً له محداثاً فكهاً) [2] ، أى أنه وجد فى ذلك العصر ما يسمى بمضحك الملك ، وهو منصب كان موجوداً ـ فيما يبدو ـ عند ملوك الفرس الأقدمين .

ومع شيوع مثل هذه المظاهر الحضارية اللاهية منذ منتصف القرن الثانى ، إلا أننا نستطيع أن نقول إن الحياة الاجتماعية حتى عصر هارون الرشيد كانت قائمة على شىء من التوازن بين الجد واللهو ، وهذا التوازن كان متحققاً فى شخصية الرشيد نفسه ، إذ نجد فى أخباره المؤكدة أنه كان إلى جانب حب اللهو والعبث والإغراق فى الجانب المادى من الحضارة التى صنعتها المؤثرات الأجنبية المختلفة ، يستمع إلى نصائح الوعاظ والصالحين ، فتنهمر دموعه من خشية الله ، كما كان محافظاً ـ فيما يقول المؤرخون ـ على صلواته ، بل إن الطبرى يؤكد أنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة[3] ، ولكن حين ولى الأمين الخلافة فقد أثر هذا التوازن

---

(١) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٠ : ١١٣ .

فى الحياة الاجتماعية ، فصارت إغراقاً فى اللهو ، وانحرافاً عن كل شعائر الدين ، بل لقد ظهر فى هذا الخليفة أثر الشذوذ الجنسى الذى كان قد استفحل أمره فى هذه الفترة . أما إسراف الأمين وإغراقه فى اللهو فكان شيئاً لم يسمع به القرن الأول ولا أوائل الثانى أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين الأولين . لقد وجه الأمين إلى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق . ونافس فى ابتياع فره الدواب ، وأمر ببناء ميدان حول قصر أبى جعفر فى بغداد للصوالجة واللعب ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه فى شتى القصور التى يملكها : الخلد ، الخيزرانية ، بستان موسى ، قصر عبدويه ، المعلى ، رقة كلواذى ، باب الأنبار ، نبارى ، الهوب ، كما أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس (أو الدلفين) وأنفق فى عملها مالا عظيماً[1] ، وقد ذكر أبو نواس بعض هذه الحراقات فى قوله :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سار براً	سار فى الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو	أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السوط	ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صو	رة ليث يمر مر السحاب

(۱) تاريخ الطبرى ۱۰ : ۲۱۵ .

سـبحوا أن رأوك سرت عليـه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسـر وجناحين تشـق العباب بعـد العبـاب
تسبق الطـير فى السماء إذا ما اسـتعجلوها لحيئة وذهاب [1] .

ولم يكن الأمين وحده فى هذا الإغراق المادى ، وإلا لم نعن بأخباره وأخبار سواه من الخلفاء ، ولكن الحقيقة إن أولئك الخلفاء كانوا صدى لمجتمعهم ، تظهر فيهم مباذله ، كما تظهر أيضاً جوانبه الجادة المتزنة ، والذى يدلنا على ما وصل إليه الحال فى أيام الأمين من تحرر اجتماعى كامل يصل إلى حد الإباحة . تلك القصة التى يرويها الطبرى ويبين فيها أنه لمـا هزم جند المأمون جيش الأمين بقيادة على بن عيسى وجدوا فى معسكره صنـاديق حسبوها مالا ففتحوها فإذا فيها خمر سوارى ! [2] .

وكان من أثر فقدان التوازن فى الحياة الاجتماعية أيام الأمين ، وإنفاقه أموال الدولة على ملذاته وملاهيه أن ظهر الاختلال واضحاً فى البناء الاجتماعى ، وازدادت الهوة اتساعاً بين الطبقات المختلفة . وانكشفت بغـداد الفاتنة الثرية المتلألئة بالمال والجوهر عن جانبها الفقير المحطم الذى لا يجد قوت يومه . ومما يصور ذلك التناقض فى المجتمع ما حكى أن محمد بن سليمان ركب يوماً بالبصرة وسوار القاضى يسايره فى جنازة ابن عم له ، فاعترضه مجنون كان بالبصرة يعرف

---

(١) ديوان أبى نواس ط . فاجنر : ٢٦٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤١

برأس النعجة ، فقال له : يا محمد أمن العدل أن تكون نحلتك فى كل يوم مائة ألف درهم ، وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ ثم التفت إلى سوار ، فقال : إن كان هذاعدلا فأنا أكفر به . فأسرع إليه غلمان محمد فكفهم عنه ، وأمر لـــه بمائة درهم ،فلما انصرف محمد وسوار معه ، اعترضه رأس النعجة فقال: لقد كرم الله منصبك وشرف أبوتك ، وحسن وجهك ، وعظم قدرك ، وأرجو أن يكون ذلك لخير أراده الله بك. فدنا منه سوار فقال: يا خبيث ما كان هذا قولك فى البداءة،فقال له : سألتك بحق الله ، وبحق الأمير إلا ما أخبرتنى : فى أى سورة هذه الآية : «فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون» ،قال: فى براءة ، قال : صدقت، فبرىء الله ، ورسوله منك» [1] .

وازدادت صورة التناقض الاجتماعى وضوحاً حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون وتعرضت بغـــداد لحصار مجهد عنيف ، حينئذ ظهر شعبها الكادح الفقير ، ولم يكن الفقير من بين هؤلاء هو الذى وصفه فقهاء العراق بأنه من كان دخله مائتى درهم فى السنة ، أى ما يعادل الحد الأدنى من العطاء ، ولكن كان هؤلاء الفقراء لا يملكون من الدنيا شيئاً بعد اتساع الهوة بين الطبقات ، فهم عبارة عن آلاف مؤلفة من الرعاع والشطار ، لا تربطهم بالحياة فى بغداد رابطة ما ،

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٦٣ .

فهم لا يملكون عقاراً ولا أموالا ، بل لا يجدون عملا يقتاتون منه ولهذا انطلقوا على سجيتهم فى هذه الفتنة ، يقاتلون ولا يدرون لحساب من هـذا القتال، وكل ما كان يدور فى أذهانهم أن هذه الحرب ربما نقلتهم من الوهدة التى يترددون فيها إلى حيث يستطيعون رؤية وجه الحياة. وربما كان أملهم أن تخدمهم هذه الحرب فتقدم لبطونهم الخاوية الغذاء، ولأجسادهم العارية الكساء الذى يقيهم الحر والزمهرير . ويصف لنا الطبرى هذه الفتنة فيقول: « لقد نقب أهل السجون السجون وخرجوا منها. وفتن الناس ، ووثب على أهل الصلاح الدعار والشطار، فعز الفاجر ، وذل المؤمن واحتل الصالح وساءت حال الناس »[1] .

وإلى هنا كان تيار الحياة العابثة اللاهية قد بلغ أقصى مداه، وتفجرت بغداد بعد فتنة الأمين والمأمون بضروب الفسق وأنواع المجون ، فظهرت طبقة من الناس تقطع الطريق وتأخذ الغلمان والنساء علانية، فلما رأى الناس ذلك وما أظهروا من الفساد والظلم والبغى، قام صلحاء كل ربض ودرب فمشى بعضهم إلى بعض واتفقوا على قمعهم، فقام رجل يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته ومحلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك، وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون ، ثم قام من بعده رجل يقال له سهل بن سلامة الأنصارى ، فدعا الناس

---

(۱) تاريخ الطبرى ۱۰ : ۱۷۳ .

أيضاً إلى ما دعا إليه خالد ، وزادعليه العمل بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفاً فى عنقه فأتاه خلق كثير ، فأخذوا يطوفون ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ليمنعوا الخفارة التى فرضها الفساق وهى نوع من ابتزاز الأموال[1] .

وكان ظهور هـذه الفئة الصالحة من الناس التى كان يطلق عليها اسم المطوعة انتكاساً لتيار اللهو والعبث ، وتأييداً للجانب الجاد فى الحياة الاجتماعية ، وتوكيداً لتيار الزهد الذى كان انعكاسا صادقاً فى نفوس المتقين ضد الحياة العابثة الماجنة التى كانت تسود مجتمعهم . والحقيقة إن هذا التيار المضاد لم يكن شيئاً جديداً فى المجتمع الإسلامى فى القـرن الثانى ، ولكنه كان موجوداً دائماً ، وكان يقوى ويشتد كلما أغرق المجتمع فى لهوه وترفه ، وانكب على ملذاته وملاهيه. ولم يكن استغراقنا فى تصوير الجانب اللاهى من المجتمع دون الجاد إنكاراً لوجود هذا الجانب السوى أو غضاً من شأنه ، ولكننا صورنا مدى الانحراف الذى صار إليه المجتمع الإسلامى متأثراً بالحضارات الأجنبية والعوامل الاقتصادية والسياسية المختلفة على اعتبار أن الأصل فى المجتمع الإسلامى ارتكازه على أسس الدين والتقوى ، وأخذه بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ، ليس هذا فحسب ، بل إن الميل للزهادة كان شيئاً أصيلا فى الحياة الإسلامية منذ ركز الإسلام لواءه ، فهو يحض على الزهادة

(١) المصدر نفسه ١٠ : ٢٤١ .

والقناعة والرضا من عرض الدنيا بالقليل . وقد سئل الرسول صلوات الله عليه عن أعقل الناس ، فقال : « همتهم المسابقة إلى ربهم عز وجل ، والمسارعة إلى ما يرضيه ، وزهدوا فى فضول الدنيا ورياستها ونعيمها ، وهانت عليهم . فصبروا قليلا واستراحوا طويلا » .

بل لقد اشتد هذا الميل الزهدى وتطور فى القرن الثانى ليدخل فى دور التصوف الحقيقى. ويقال إن كلمة الصوفى أطلقت لأول مرة على أبى هاشم الكوفى المتوفى عام ١٥٠ ه ، الذى يقول فيه جامى فى (نفحات الأنس) : إنه تقدمه رجال كانت لهم قدم فى الزهد والورع وحسن التوكل وفى طريق المحبة ، ولكنه كان أول من تسمى بالصوفى (١).

هذه إذن صورة المجتمع العربى فى القرن الثانى ، صورة زاخرة بالحياة والحركة ، مليئة بالتناقضات ، فيها الغنى الفاحش والفقر المدقع ، وفيها الإغراق فى الإلحاد والمجون ، والزهادة المفرطة التى تقترب من الرهبانية والتبتل ، وفيها العلماء العاكفون على مختلف فروع المعرفة ، والعابثون الذين يعيشون على التبطل والفراغ واللهو ، إنها صورة مجتمع حى متطور ، وفى قلب هذه الصورة وجد الخليفة المأمون .

---

(١) فى التصوف الاسلامى وتاريخه : ٣



ميلاد ونشـأة

البيت العباسى له أصل ثابت فى تاريخ الإسلام ، فهو ينتسب إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف ، الذى ولـد قبل حادث الفيل بثلاث سنوات، فكأنه - وهو عم الرسول صلوات الله عليه - أسن منه بثلاث سنوات فحسب . .

كان العباس من سادة بنى هاشم وعقلائهم . ولما بشر محمـد بالإسـلام ، وقف إلى جانبه وإن لم يعلن إسلامه ، وهو الذى تولى إحكام الأمر للرسول مع الأنصار عند الهجرة . فكان الرسول صلوات الله عليه يحبـه ويكرمه ، وامتدت حياته إلى خلافة عثمان رضى الله عنه . وكان ثانى أولاده الستة عبد الله قد ولد قبل الهجرة بسنتين ، وقد دعا له الرسول الكريم ، فقال : « اللهم علمه التأويل ، » فكان أعلم النـاس بآيات القـرآن وتأويلها ، مع فقهه فى الدين . ولهذا كان عمـر

يدخله – على صغر سنه – فى مجلس شوراه ، ويستعين برأيه فى كثير مما يعرض لـــه من أمور .

وكان على أصغر أولاد عبد الله أجمل قرشى على وجـــه الأرض فيما يقولون وأشدهم إيماناً ، وقد أعقب اثنين وعشرين ذكراً أكبرهم محمد ، وهو والد إبراهيم الإمام وأبى العباس السفاح ، وأبى جعفر المنصور الذين استطاعوا أن يثلوا عرش الأمويين ويقيموا دولـــة بنى العباس على أنقاضه .

أرومة عريقة يفتخر بها المأمون من ناحية أجداد أبيه الرشـــيد ، أما من ناحية أمه فالأمر جد مختلف ، ذلك أنها جارية فارسية من كورة باذ غيس فى مقاطعة خراسان ، وهى فى الطريق من هراة إلى مرو الرود ، تمتد بين نهر هراة من الغرب ومياه نهر مرغاب الأعلى من الشرق (١) ، وهذه الفتاة الباذغيسية يحاول بعض الباحثين أن يجعلها تمت إلى أسرة عريقة فى المجد من الأسر الفارسية (١) ، ولكننا لا نكاد نعثر لها على نسب ينضاف إلى اسمها « مراجل » .

ومن العجيب أن التنافس بين الأخوين محمد « الأمين » ، وعبدالله « المأمون » بدأ بينهما قبل ولادتهما ، فقد روى المسعودى أن أم جعفر « زبيـــدة » كانت لا تعلق من الرشيد ، فشاور بعض مجالسيه من

---

(١) انظر : بلدان الخلافة الشرقية .

(٢) عصر المأمون ١ : ٢١٠ .

الحكماء ، وشكا ذلك إليه ، فأشار عليه بأن يغيرها لأن إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة ، فلم تكن تعلق منه ، فلما وهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل ، فغارت سارة عند ذلك فعلقت بإسحق فاشترى الرشيد أم المأمون مراجل الباذغيسية فعلقت بالمأمون فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد[1] .

وهكذا شاء الله أن يكون عبد الله المأمون أكبر أولاد الرشيد ، وأن يعقبه محمد الأمين بفترة قصيرة تتراوح بين شهر واحد[2] وستة أشهر[3] ، كما نستقى من أقوال المؤرخين . ولكن إذا كان المأمون قد اكتسب ميزة بسبق ميلاده ، فإن الأمين قد فاق بنسب أمه العريق حتى لقد قيل : ليس فى خلفاء بنى العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه .

ولد عبد الله فى قرية على ضفة نهر عيسى تسمى الياسرية ، بينها وبين بغداد ميلان[4] . ويبدو أن الرشيد كان مقيماً فيها بعيداً عن دسائس السياسة فى بغداد ، فقد كان يمر وقتذاك بمحنة قاسية ، إذ كان أخوه الهادى يستخدم ضده كل وسائل الضغط ليسلبه حقه فى ولاية العهد .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢ : ٨٤
(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٩٨ .
(٤) العقد الفريد ٥ : ١١٩ .

والحقيقة إن ولاية العهد التى ابتدعها الأمويون منذ عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة ، كانت من الأسباب القوية التى هدمت كيان الدولة الأموية ، وأثارت الشقاق العنيف فى الدولة العباسية أيضاً .

ويقال إن أول من سمى ولديه وليين للعهد مروان بن الحكم فقد جعل الخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم ابنه الآخر عبد العزيز ، وعند ما تولى عبد الملك الخلافة حاول تنحية أخيه عن ولاية العهد ليحل ابنه الوليد مكانه ، واستعد الطرفان للنزاع لولا موت عبد العزيز ، فحسم الخلاف ، وولى عبد الملك ولديه الوليد وسليمان ليخلفاه ، وما إن تولى الوليد الخلافة حتى حاول عزل أخيه، ومرة أخرى يتدخل الموت ليحسم الخلاف فيختطف الوليد نفســه .

واستمرت ولاية العهد سبباً للنزاع فى الدولة العباسية منذ بدايتها . فقد أوصى أبو العباس السفاح بالخلافة من بعده لأخيه أبى جعفر ثم لعيسى بن موسى . وعند ما تولى أبو جعفر الخلافة أراد أن يقدم ابنه المهدى على عيسى فكلمه فى ذلك فأجابه قائلا : فكيف بالأيمان والمواثيق التى على وعلى المسلمين لى من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الأيمان ؟ ليس إلى ذلك سبيل[1] ، وإزاء هذا الامتناع أرهقه أبو جعفر من أمره عسراً ، فكان لا يأذن له فى الدخول عليه إلا بعد أن يدخل الناس جميعاً ،

---

(١) انظر القصة بأكملها فى تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٦ وما بعدها.

وكان إذا جلس عيسى فى إحدى حجرات القصر منتظراً الإذن يسمع الحفر فى أصل الحائط الذى وراءه ، وينظر إلى الخشبة من سقف المجلس قد حفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه فلا يفعل شيئاً إلا أن يتحول عن المكان فإذا دخل على المنصور بهيئته تلك قال لـه : « يا عيسى ما يدخل على أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب أفكل هذا من الشارع ؟» فيقول أحسب ذلك يا أمير المؤمنين . ولم يفلح هذا الأسلوب فى إجابة عيسى بن موسى إلى الخلع ، فدس لـه المنصور ما يتلفه بإشارة من طبيبه بختيشوع ، فبلغت العـلة بعيسى كل مبلغ حتى سقط شعره ، ثم شاء الله أن يبرأ من علتـه ، وفى ذلك يقول الشاعر يحيى بن زياد البرجى :

أفلت من شـربة الطبيب كما
أفلت ظبى الصريم من فتره

من قانص ينفـذ الفـريص إذا
ركب سـهم الحتـوف فى وتره

دافـع عنـك المليـك صولة ليث
بـربر الأسـد فى ذرى خمـره

حتى أتـانـا وفيـه داخـلة
تعـرف فى سمعـه وفى بصـره

أزعـــر قد طـــار عن مفـــارقه
وحف أثيت النبـــات من شعره[1]

وفكر المنصور فى تهديد عيسى بقتل ابنه – بعد فشل هذه المؤامرة – وأفلح أخيراً فى الحصول على موافقته بأن يقدم المهدى عليه فى ولاية العهـــد . وقد أطلق الشعراء أبواق دعايتهم لهم هذا الأمر ومنهم أبو نخيلة الذى يقول :

إلى أمـــير المؤمنـــين فاعمـــدى
ســـيرى إلى بحـــر البحور المـــزبد

أنت الذى يا ابن سمى أحمـــد
ويا ابن بيت العـــرب المشـــيد

بل يا أمـــين الواحـــد المؤبـــد
إن الـــذى ولاك رب المســـجد

أمسى ولى عهـــدها بالأســـعـــد
عيسى فـــزحلقهـــا إلى محمـــد

(١) الصريم القطعـــة من الرمال ، والفتر الضـــعف ، الفريص أوداج العنق ، الخمر كل ما يستتر من الشـــجر والجبال أو الوهدة التى يختفى فيها الذئب ، الداخلة الشىء الغريب الغامض ، الأزعر التى قل شعره وتفرق ، الوحف الشعر الأســـود الغزير ، الأثيث الكثير .

من قبــل عيسى معهــداً عن معهد
حــتى تؤدى من يــد إلى يــد

فيــكم وتغــنى وهى فى تــزيد
فقــد رضينــا بالغــلام الأمــرد

ولم تنته مأساة عيسى بن موسى إلى هذا الحد ، فما إن ولى المهدى الخــلافة حتى بدأ يمارس ضغطه على الشيخ المســكين ليتنازل عن ولايته للعهد مرة أخرى ، واستطاع أن يؤلب العباسيين ضده فأبوا إلا خلعه وشتمه فى وجهه . واحتبسه المهدى حتى أجاب إلى الخلع لقاء عشرة آلاف ألف درهم وضياع . فأسندت ولاية العهد إلى موسى بن المهدى . وقد هجا الشعراء عيسى لتخاذله . وما كان يقوى وهو فى سنه العالية على النضال فى سبيل الخلافة ، يقول أحدهم :

كــره المــوت أبو موسى وقد
كان فى المــوت نجــاء وكــرم

خــلع الملك وأضــحى ملبســاً
ثوب لــؤم ما تــرى منه القدم

وبعد انقضاء ست سنوات على هذه الحادثة نسى المهدى ماتجره ولاية العهد الثنائية من شقاء فأخذ البيعة على قواده لهارون بعد أخيه موسى وسماه الرشيد ، ويبدو أن المهدى أراد أن يكافىء ابنه هارون لحسن بلائه فى الحرب ضد الروم التى دارت رحاها شهوراً طويلة ،

وأحرز فيها هارون نصراً مؤزراً ، وذلك لأن إعـــلان ولايته للعهـــد جاء بعد عودته من الحرب مباشرة . ولما مات المهدى وتولى الخلافة ابنه موسى الهادى أراد خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر بن موسى ، وتابعه على ذلك القواد ، منهم يزيد بن مزيد ، وعبد الله بن مالك ، وعلى بن عيسى ومن هم فى طبقتهم ، فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر ابن موسى ودسوا إلى العباسيين فتكلموا فى أمره وتنقصوه فى مجلس الجماعة وقالوا لا نرضى به . وعندما وجد الهادى فيهم سنداً بدأ يضيق الخناق على هارون ، فأمر ألا يسار قدامه بحربة ، فاجتنبه الناس وتركوه ، فلم يكن أحد يجترىء أن يســـلم عليه أو يقربه .

وكان يحيي بن خالد البرمكي يقف وحده إلى جانب الرشيد ليشد أزره بعد أن مال إلى إجابة أخيه حتى لا يفسد عليه حياته ، وقد قال فى ذلك : « أليس يترك لى الهنىء والمرىء فهما يسعاننى وأعيش مع ابنة عمى ؟ » ، وهو يقصد أم جعفر التى كان قد تزوجها منذ سنوات خمس ، وكان يحبها حباً عنيفاً ، ووقف يحيي بن خالد دون تنفيذ ما جال بخاطر الرشيد ، وتعرض للقتل حين علم الهادى أنه يحرض أخاه على الاستمساك بحقه ، ولكنه استطاع بحسن تدبيره أن يفلت من انتقام الهادى ، وبعثت الخيزران أم الهادى والرشيد إلى يحيي بن خالد تتوسل إليـــه أن يدع الرشيد يجيب أخاه إلى الخلع لأنها تخشى عليه سطوته[1]

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٦ .

فأبى يحيى أن يلين ، وما هى إلا فترة يسيرة حتى مات الهادى فتناثرت الشائعات بأن أمه الخيزران قد دست إليه من جواريها من قتله بالجلوس على وجهه ، وكان قد أصابته علة ، ويرجعون ذلك إلى أسباب ، منها حب الخيزران الشديد لابنها الرشيد ، وخشيتها عليه من أخيه ، وكراهيتها للهادى بسبب منعه إياها من التدخل فى شئون الحكم ، وكانت تحب السيطرة والنفوذ منذ أيام زوجها المهدى ، وتقول بعض الروايات إنها تلقت خبر موت الهادى وكأنها تعرفه ، فقد قيل لها : « مات موسى ودفنوه . فقالت: إن كان مات موسى فقد بقى هارون ! » ، وطلبت سويقا[1] فشربت منه وسقت الحاضرين.

ولا نستطيع أن نقطع برأى فى صحة هذا الاتهام ، فهناك دلائل تزكيه ، وقد ذكرنا بعضها ، ومنها أيضاً ما يقوله الطبرى من أن الهادى كان قد عزم على قتل هارون ويحيى بن خالد فى الليلة نفسها التى مات فيها[2] . وهناك دلائل أخرى تنفى هذا الاتهام وتجعلنا نستبعد حدوثه ، وعلى أية حال لقد انقضت المحنة التى عاش فيها هارون بسبب الخلاف على ولاية العهد بموت أخيه الهادى ، ويروى أن يحيى بن خالد ذهب إلى الرشيد ليبشره بالخلافة فى الليلة نفسها التى مات فيها الهادى ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، فوجده نائماً فى

---

(١) نوع من الشراب يتخذ من الحنطة والشعير .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨ .

لحاف بلا إزار ، فقال : قم يا أمير المؤمنين ! فقال له الرشيد : كم تروعني إعجاباً منك بخلافتي ، وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل ، فإن بلغه هــذا فما يكون حالي ؟. وكأن نداء يحيي لهــارون بقوله : يا أمير المؤمنين قد أدخل في قلبه الفزع خوفاً من نكاية أخيه ، فلما بشره يحيي بالخلافة ، أخذا يتشاوران في الأمر ، وبينا هما كذلك إذ طلع رسول فقال للرشــيد : « قد ولــد لك غلام : فقال الرشيد دون تردد : سميته عبد الله ! .

وهكذا كانت ولادة المأمون في الليلة التي انتهت فيها محنة أبيه الرشيد، وفي اللحظة التي بدأ يمارس فيها سلطاته كخليفة للمسلمين . ولا شك أن الرشيد استبشر كثيراً بمولد ابنه في هذه الظروف السعيدة التي واتته ، ليس هذا فحسب ، بل إن عبد اللههو أول غــلام يولد للرشيد ، وللطفل الأول دائماً في نفس والده قدر من الإعزاز والمحبة يزيد عما لإخوته التالين له في الميــلاد . أما اختيار الرشيد لاسم عبد الله دون تردد منه ، فقد كان تعبيرا عما في نفسه من اعتراف بفضل الله عليه ، إذ نجاه مما كان فيه من هم وضيق ، دون أن يدبر للأمر بهــذا الإحكام والبســاطة التي تم بها .

وعلى الرغم من توالي أبناء الرشيد بعد ذلك إذ بلغ عددهم كما ذكرنا أحد عشر ما عدا المأمون ، إلا أنه ظل يحب المأمون ويؤثره كل الإيثار ، ربما لأنه أول أولاده ، ولأنه استبشر بولادته مع قدوم الخلافة

وانتهاء الأزمة التى أحاطت به – كما سبق أن بينت – وربما لأنه فقد أمه وهو بعد طفل صغير لا تتجاوز عمره أياما ، فقد أكدت المصادر التاريخية وفاتها فى نفاسها به [1] ، فقد نشأ المأمون إذن محروماً من عطف أمه عليه ، دون إخوته جميعاً الذين تمتعوا بعطف أمهاتهم ورعايتهن لهم ، يضاف إلى ذلك كله إعجاب الرشيد بذكاء ابنه وظهور مخايل النجابة عليه وانصرافه إلى العلم دون مظاهر اللهو والعبث ، ويروى فى ذلك أن الرشيد دخل على المأمون وهو ينظر فى كتاب ، فقال له : ما هذا ! فأجاب المأمون ، كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة ، فقال الرشيد : الحمد لله الذى رزقنى من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه » [2] .

وكثيراً ما كان الرشيد يبدى إعجابه بصفات المأمون النادرة فى خلقه وشخصيته إعجاب الأب الفخور بولده ، كما يتضح لنا فى قوله : إنى لأتعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدى وعز نفس الهادى ، ولو شاء أن أنسبه إلى الرابع لنسبته [3] يعنى نفسه .

أما صفات المأمون الجسمية وهو طفل صغير ، فمن الواضح أنها مزيج من السمات الآرية والعربية ، ونحن لا نعلم وصفه فى طفولته ، ولكن المؤرخين وصفوه لنا كبيراً ، ومن صفاته الثابتة التى لا تتغير

(١) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين : ٢٠٤ ، النجوم الزاهرة ٢ : ٨٤
(٢) زهر الآداب ١ : ١٢٨ .
(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٧٢ .

فيما بين الطفولة والرجولة أنه كان أبيض تعلوه شقرة (وقيل أسمر ، ولكن الاتفاق على بياضه أكثر ، وهو أقرب إلى المعقول) ، ضيق الجبهة ، بخده خال أسود ، واسع العينين أسودهما ، ولم يكن المأمون وهو طفل جميل الصورة بحيث يلفت النظر إليه ، ولا كان أجمل إخوته مع أن المؤرخين يقولون إن جمال ولد الخلافة انتهى إلى أولاد الرشيد ولعلهم يقصدون بعض أولاد الرشيد مثل محمد (الأمين) وأبي عيسى الذي اشتهر بجمال نادر فائق المثال ، حتى إنه كان إذا عزم على الركوب جلس له الناس حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخلفاء ! ويروى أن الرشيد قال لابنه أبي عيسى يوما — وهو بعد صبي صغير — « ليت جمالك لعبد الله » يعني المأمون ، فقال له أبو عيسى : « على أن حظه منك لي » [1] .

وهذه الرواية تبين إلى حد بعيد حب الرشيد الجارف لابنه عبد الله حتى ليتمنى أن ينتقل جمال أخيه أبي عيسى إليه ليتم له كل شيء ، وفي جواب أبي عيسى دلالة أخرى على إيثار الرشيد للمأمون أكثر بكثير من بقية أبنائه الآخرين ، وبالرغم من ذلك لا نجد نفرة بين المأمون وإخوته ، بل نراه يودهم جميعاً ويودونه ، وكان يحب أخاه أبا عيسى حباً شديداً ، فلما مات أبو عيسى ، صلى عليه المأمون ونزل في قبره ، وامتنع عن الطعام أياماً حزناً عليه [2] .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء : ٩٣ .

(٢) المصدر نفسه .

ولم تكن علاقته بالأمين علاقة جفوة ، ولكنها السياسة التى فرقت بين الأخوين من الصغر . وأوقعت بينهما الخلاف ، على الرغم من أن شخصية المأمون فى رزانته وجده وانصرافه إلى العلم والاطلاع تختلف اختلافاً بيناً عن شخصية الأمين الذى يحب العبث والمجون ويؤثر الرفاهية على الدرس والقراءة .

وكانت أم الأمين تشعر بحب الرشيد للمأمون وعطفه الزائد عليه أكثر بكثير مما كانت تحسه منه تجاه ابنها الأمين ، فأكلت الغيرة قلبها وكلمت الرشيد فى ذلك ، فأراد أن يثبت لها عملياً أن المأمون جدير بالحب لذكائه وفطنته وحسن تقديره للأمور ، فوجه إلى ولديه خادماً يقول لكل منهما فى خلوة : ماذا تفعل إذا أفضت الخلافة إليك ! فأما الأمين فقال للخادم : أقطعك وأعطيك ، وأما المأمون فقد قام إلى الخادم بدواة كانت بين يديه ، وقال : أتسألنى عما أفعل بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ! إنى لأرجو أن نكون جميعاً فداء له ، فقال الرشيد لأم جعفر : كيف ترين ! فسكتت عن الجواب .

ولعل فيما رواه أبو محمد اليزيدى مؤدب المأمون دلالة على قوة شخصيته ورزانته منذ كان طفلا ، قال اليزيدى : كنت أؤدب المأمون فأتيته يوما فوجهت إليه بعض الخدم يعلمه بمكانى فأبطأ ، ثم وجهت إليه آخر فأبطأ ، فقلت : إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة ، فقيل : أجل ، ومع هذا إنه إذا فارقك تعرم على خدمه ولقوا منه أذى شديداً ،

فقومه بالأدب . فلما خرج أمرت بحمله فضربته سبع درر (١) ، قال : فإنه ليدلك عينيه من البكاء إذ قيل : هذا جعفر بن يحيى قد أقبل ، فأخذ منديلا فمسح عينيه من البكاء وجمع ثيابه وقام إلى فرشه فقعد متربعاً ، ثم قال ليدخل . فدخل فقمت عن المجلس وخفت أن يشكونى إليه ، فأقبل عليه بوجهه وحدثه حتى أضحكه ، ثم خرج فجئت فقلت : لقد خفت أن تشكونى إلى جعفر ، فقال : يا أبامحمد ما كنت أطلع الرشيد على هذه ، فكيف بجعفر ، أنى أحتاج إلى أدب؟ »(٢)

وأبو محمد اليزيدى هو واحد من كثيرين من خير علماء هذا العصر كان المأمون يتلقى العلم على أيديهم ، وكان اليزيدى عفيفاً نقياً ، وشاعراً مجيـــداً ، لا يتعدى فى شعره الموعظة والحكمة ، وكان إذا ذهب إلى الحج وأقبل عليه أهل الأدب ليؤانسوه يقول لهم : ما شىء أحب إلى من مشاهدتكم ومحادثتكم ، ولكن هذا بلد يتقرب فيه إلى الله بالأعمال الصالحة ، وإنما أقيم شهراً أو شهرين ، ثم أنصرف إلى بلدى ، فإن رأيتم ألا تجروا فى مجلسى رفثاً ولا خنا ولا هجاء فى شعر ولا غيره فافعلوا(٣) ، وهـــكذا كان المأمون يتلقى دروس الأدب على اليزيدى ، وكان يتلقى مع الأدب دروساً فى العفة والتقوى وحسن الخلق ، ولم يكن اليزيدى يتورع عن تقويمه بالعصا كما رأينا .

---

(١) الدرة : ما يضرب به .
(٢) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين : ٢٠٩ .
(٣) طبقات الشعراء المحدثين : ٢٧٥ .

وكان المأمون يتلقى علم العربية على الكسائى الذى علم أباه من قبله (١) وهو أحد علماء الكوفة البارزين فى القراءات والنحو واللغة ، وكان يسمع المأمون الحديث من هشيم بن بشر ، وعباد بن العوام ، ويوسف ابن عطية ، وأبى معاوية الضرير ، وإسماعيل بن علية ، وحجاج الأعور ومن فى طبقتهم (٢) . وكان من شيوخه فى الحديث أيضاً أبوه هارون . وقد انكب المأمون على دراسة الحديث حتى صار من رواته ، وسمع منه كثيرون ورووا عنه. وقد ساعدته على رواية الحديث ذاكرته القوية الحافظة، التى كانت مضرب المثل . ذكر أن الرشيد أراد الحج فدخل الكوفة وطلب المحدثين فلم يتخلف إلا عبد الله بن إدريس وعيسى ابن يونس، فبعث إليهما الأمين والمأمون فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث فقال المأمون : يا عم أتأذن لى أن أعيدها من حفظى ! قال : فأعادها فعجب من حفظه (٣) .

وكان المأمون يقرأ الفقه على الحسن اللؤلؤى ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إنه برع فى الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وكانت له مع اللؤلؤى نادرة لطيفة تدل على اعتداد المأمون بنفسه ، ذلك أن اللؤلؤى لاحظ فى أثناء درس له من دروس الفقه أن المأمون قد أخذته سنة من

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ : ١٣٠ .

(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٧ .

النوم ، فقال له: نمت أيها الأمير ! فكأنه بدلا من أن يغادر المكان في صمت أراد أن يوقظ المأمون ليشعره بخطأ ارتكبه ، ولهذا نرى المأمون يحتد عليه —وكانت فيه حدة أحياناً— ويقول : سوقي ورب الكعبة ، وينادي غلمانه ليأخذوا بيد أستاذه ، فلما بلغ الرشيد ماصنع لم يغضب على ابنه ، بل رحب بما فعله وتمثل بقول الشاعر مفتخراً بولده :

وهل ينبت الخـطي إلا وشيجه
وتغـرس إلا في منـابتها النخل (١)

وهذه الحدة التي نلمحها أحياناً في شخصية المأمون والتي شكا منها خدمه إلى مؤدبه اليزيدي ، إنما تدل على فرط نشاطه في طفولته ، وأنه لم يكن مستكيناً هادئاً ، ينفق وقته كله في مذاكرة العـلم والتثقف ، بل يتشاغل أحياناً بشيء من اللهو البريء . وهذه الحدة في طبعه خفت إلى حد بعيد كلما دخل في طور الشباب والرجولة ، إلا من آثار قليلة في حالات يفقد الإنسان فيها شعوره .

ولكن هذه الحدة لا ينبغي أن تكون سبباً في انحرافات جنسية في أيام الصبا تبلغ بالمأمون إلى درجة حده كما جاء في بعض الروايات التي تقول إن أباه حده في جارية من جواريه ، ويؤكدون ذلك بما قاله الرقاشي الشاعر حين مدح الأمين فعرض بأخيه المأمون إذ قال :

---

(١) الوشيج الشجر الذي تصنع منه الرماح .

لم تــلده أمــة تعــ ـرف فى الســوق التجــارا
لا ولا حــد ولا خــا ن ولا فى الخزى جارا[1]

وإذا تقصينا رواية هذا الحد الذى تحير فيه ابن طباطبا ، هل كان فى جارية وجد معها أو فى خمر[2] ، لا نكاد نجد لها أثراً اللهم إلا ما رواه صاحب العقد الفريد إذ قال : « كان الرشيد حد المأمون . وذلك أنه دخل على الرشيد وعنده مغنية تغنيه ، فلحنت ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن ، فتغير لون الجارية ، وفطن الرشيد لذلك ، فقال : أعلمتها بما صنعت ؟ قال : لا والله يا مولاى ! قال: ولا أومأت إليها ! قال : قد كان ذلك ، فقال كن منى بمرأى ومسمع ، فإذا خــرج إليك أمرى فانتــه إليه ، ثم أخذ دواة وقرطاساً ، وكتب إليه :

يا آخــذ اللحن على الـ قينــة عند الطرب
تــريد أن تفهمهــا حــد لغــات العرب
أقســم بالله ومــا سطر أهــل الكتب
للكلب خــير أدبــاً من بعض أهل الأدب

إذا قرأت ما كتبت به إليك ، فأمر من يضربك عشرين مقرعة

(١) المعارف : ١٦٩ .
(٢) الفخرى : ٢٩١ .

جياداً ، فدعا المأمون البوابين ثم أمرهم ببطحه وضربه فامتنعوا ، فأقسم عليهم فامتثلوا لأمره[1] .

هذه هى رواية صاحب العقد عن قصة حد المأمون فى جارية ، وفيها دليل بالغ على أن المأمون لم يرتكب فاحشة يستحق عليها الحد ، فهو لم يخن أباه فى جاريته قط ، ولا الرشيد أوقع عليه عقوبة الحد ، كل ما هنالك أن الرشيد غضب لأن ولده بصر الجارية بموضع خطئها والرشيد موجود وهو أولى بذلك ، وما كان ينبغى للمأمون أن يتباصر بعـــلمه ولا أن يدل الجارية على خطئها قبل استئذان أبيه . أما العقوبة التى أنزلها به الرشيد فهى عقوبة والد لولده يؤدبه ويشعره بذنبه ، بل إن الرشيد حين وكل الى ابنه تنفيذ العقوبة التى حددها لـــه ، كان واثقاً كل الثقة بالمأمون ، وبقدرته على معاقبة نفسه . وتلك مهمة لا يقدر عليها الكثيرون . فشعر الرقاشى إذن إنما هو من قبيل القـــذف الذى لا دليل عليه ، وهو يريد أن يستغل عقوبة الرشيد للمأمون فيجعلها «حداً» وشتان ما بين المعنيين ، بل إن روح القذف واضحة فى البيت الأول إذ يعرض بأم المأمون لكونها أمة ، ولكنه ينزل من قدرها حين يجعـــلها « تعرف التجار فى السوق » ، وهو بالتالى ينزل من قيمـــة الرشيد نفسه .

ونجد حادثة أخرى تتصل بالجوارى فى شباب المامون ، لا أظنها

---

(١) العقد الفريد ٥ : ١٢٠ .

– إن صحت – تسقط من قيمته أو تغض من شأنه ، إنما هي تدل على حيوية طبيعية في كل شاب ، وميل فطري إلى الجنس الآخر ، فقد روى منصور البرمكي قال : « كان لهارون الرشيد جارية غلامية – يعني وصيفة على قد الغلام » وإن صح هذا فمعناه أن الأمين لم يستحدث الغلاميات كما هو معروف ، بل وجدن قبله – وكان المأمون يميل إليها وهو إذ ذاك أمرد ، فوقفت يوماً تصب على يد الرشيد من إبريق معها ، والمأمون جالس خلف الرشيد ، فاشار المأمون إليها كأنه يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها ، وأبطأت في الصب على مقدار نظرها إلى المأمون وإشارتها إليه ، فقال الرشيد . ما هذا ؟ ضعي الإبريق من يدك ، ففعلت ، فقال : « والله لئن لم تصدقيني لأقتلنك ، فقالت : يا سيدي أشار إلى عبد الله كأنه يقبلني ، فأنكرت ذلك . فالتفت إلى المأمون ، ونظر إليه كأنه ميت لما دخله من الفزع والخجل . فرحمه وضمه إليه ، وقال : يا عبد الله أتحبها : قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هي لك ، وفي هذه الحادثة كتب المأمون أبياتاً يقول فيها :

ظبي كتبت بطرفي ... من الضمير إليه
قبلته من بعيد ... فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد ... بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكاني ... حتى قدرت عليه[1]

---

(١) أمالي القالي ١ : ٢٢٥ .

ولو كان المأمون يعرف أن الجارية من سرارى أبيه ، ما كان غازلها أو اقترب منها ، والدليل على أنها لم تكن سرية أن الرشيد ، وهبها له دون تردد ، ولم يجد مبرراً لعتابه لأنه غافله وغازلها .

تلك إذن ملامح المأمون فى نشأته ، جمعنا متفرقها لنحاول أن نجعل منها صورة متكاملة ، لم يكن المأمون فتى عادياً فهو ابن الرشيد ، وكان ذكياً طموحاً يقبل على فروع المعرفة ويستزيد منها ، فهو يهوى العربية والأدب حتى نراه شاعراً ، ويهوى الفقه فيجادل فيه الثقات المتخصصين ، ويهوى الحديث حتى يؤخذ عنه ، ثم يهوى الفلسفة بعد ذلك ويكون له معها شأن . وهو فى محيط أسرته يحظى برعاية أبيه وحبه ، ويفتقد حنان الأم ، ويعيش وسط إخوة غير أشقاء ، ولكن فى مودة تنبع من نفسه الصافية ، التى لا نرى فيها التواء أو عقداً . وما الذى يسبب له الالتواء والعقد ، وليس فيه نقطة ضعف يخشى أن يكشفها . كان عبدالله واثقاً بنفسه كل الوثوق ، يعيش حياة رضية لا أثر فيها لحرمان من أى نوع ، بل ربما كانت مسرفة فى كل شىء ، كما رأينا فى صورة العصر ، ولكنه — وتلك ناحية القوة فيه — لم يفقد توازنه النفسى على الإطلاق ، وأخذ نفسه بشىء غير قليل من الحزم حتى لا يجرى وراء الظواهر المادية التى تشغل عصره ، كان فى إمكانه — وهو الشاب الفتى ابن الرشيد أغنى أغنياء العالم فى ذلك الوقت — أن يعيش حياة المترفين الخاملة يلهو ويشرب ، ويقعد للغناء وحوله الجوارى

الحســـان، ولكنه يترفع عن ذلك كله ، وكأنه يضع حجاباً بينه وبين الملهيات ليغرق فى دروس النحو واللغة والأدب ، ويغوص فى أعمـــاق الحديث والفقه والفلسفة ، ويقبل على ذلك كله إقبال المشغوف ، بينما كان أخوه الأمين يدفع إلى هذه الدروس دفعاً فلا يصل فيها إلى شيء لشغله بما يخلب لب أمثاله من الشباب . وقد يكون للرشيد فضل كبير فى اهتمامه بتثقيف أبنائه وإشرافه عليهم ، وموالاة سؤال أساتذتهم عنهم ، ولكن شخصية المأمون لها الفضل الأكبر فيما بلغته فى فترة تكونها ، وسوف نرى آثـــار هذا الفضـــل فيما يلى من الفصول .



فى ظلال الرشيد

مع أن عبد الله (المأمون) قد ولد فى الليلة التى بويع فيها الرشيد بالخلافة، ثم ولد أخوه محمد (الأمين) فى السنة ذاتها (١٧٠هـ.)، إلا أن الرشيد لم يسم أحداً منهما ولياً للعهد حتى عام ١٧٥ هـ.، ولعل السبب فى ذلك تحرجه فى الاختيار. فقد كان فى قرارة نفسه يحب عبد الله ويثق فى قدرته على تحمل أعباء الحكم من بعده، ولكن زوجته زبيدة والهاشميين معها كانوا يدفعونه دفعاً لتفضيل الأمين على أخيه.

وكانت الفكرة الراسخة عند هارون ألا يختار وليين للعهد يتعاقبان فى الخلافة، فهو لم ينس بعد محنته أيام أخيه الهادى، ومحنة عيسى بن موسى أيام جده وأبيه. ويبدو أنه ظل طوال السنوات الخمس يحاول أن يجد مخرجاً دون جدوى. ولم يكن التأخير فى اختيار ولى العهد إلا زعزعة لحكم هارون، وإغراء للطامعين

من البيت العباسى ، وفى ذلك يقول الطبرى : « وكانت جماعة من بنى العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولى عهد » (١) ، لهذا لم يجد الرشيد مناصاً من الاختيار .

وفى تلك الأثناء نشطت زبيدة أم محمد (الأمين) فى التأثير على هارون ، وأرسلت أخاها عيسى بن جعفر إلى البرمكة الذين كانوا محيطين بهارون فى تلك الفترة ، ولهم عليه تأثير عنيف ، فوسطهم لدى هارون ، وكان الفضل بن يحيى البرمكى أشد المؤيدين لبيعة محمد لأنه كان فى حجره — وهذا النظام الذى يعهد بالأمير إلى كبير فى الدولة موثوق به ليوجهه ويرعاه ، ربما كان منقولا عن الفرس ، وقد نفذه هارون فجعل محمداً فى حجر الفضل ، وعبد الله فى حجر جعفر بن يحيى ، والقاسم فى حجر عبد الملك بن صالح — فكان من الطبيعى إذن أن يتحمس كل كفيل لأميره ، وهكذا بدأ الفضل بن يحيى جهوده ليفوز محمد دون أخيه عبد الله بولاية العهد ، واستغل الفضل ولايته على خراسان لإعلان هذه البيعة — ليقطع على الرشيد تردده - ففرق أموالا ، وأعطى الجند أعطيات متتابعة ، ثم أظهر البيعة لمحمد وسماه الأمين فبايع الناس له ، وأغرى الشعراء بمدحه وتوكيد البيعة له ، فقال النمرى فى ذلك :

أمست بعمرو على التوفيق قد صفقت
على يد الفضل أيدى العجم والعرب

---

(١) تاريخ الطبرى : أحداث سنة ١٧٥ هـ .

ببيعة لولى العهد أحكمها

بالنصح منه وبالإشفاق والحدب

قد وكد الفضل عقداً لا انتقاض له

لمصطفى من بنى العباس منتخب

فلما تناهى خبر هذه البيعة إلى الرشيد ، وأن أهل المشرق قد بايعوا لمحمد، انقطع تردده بتأثير بنى هاشم وزوجته ، فكتب إلى الآفاق بالبيعة لمحمد ، وعقد له ولاية عهد المسلمين من بعده فى بغداد، وأخذله بيعة القواد والجند[1] ، واستخدم الشعر سلاحاً للدعاية للأمين وتوكيد ولايته للعهد فقال سلم الخاسر :

قد وفق الله الخليفة إذ بنى

بيت الخلافة للهجان الأزهر

فهو الخليفة عن أبيه وجده

شهدا عليه بمنظر وبمخبر

قد بايع الثقلان مهدى الهدى

لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

ونلاحظ فى الأبيات تأكيد الشاعر لنسب الأمين العربى ، حتى لينسبه إلى أمه فى البيت الأخير نكاية فى عبد الله بن مراجل

(١) تاريخ الطبرى أحداث سنة ١٧٥ هـ ويروى الطبرى فى أحداث سنة ١٧٩ هـ أن الرشيد عقد ولاية العهد لمحمد فى سنة ١٧٣هـ ولم يذكر هذا غيره .

(المأمون) ، ولهـذا قيل إن زبيـدة حشت فم الشاعر جوهراً باعه بعشرين ألف دينار[1] .

وأراد الفضل بن يحيي – عن طريق مساهمته فى إتمام هذه البيعة– أن يؤكد سلطانه ويقوى نفوذه استعداداً لما سيلقى إليهمن مهام الأمور فى المستقبل ، فنراه يتخذ فى خراسان جنداً من الأعاجم يسميهم العباسية ويجعل ولاءهم لـه ، ويقول الطبرى إن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل[2] ، وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

ما الفضـل إلا شـهاب لا أفول لـه
عنـد الحـروب إذا ما تأفل الشـهب
حـام على مـلك قـوم غـر سهمهـم
من الوراثـة فى أيـديهـم سـبب
أمسـت يد لبنى ساقى الحجيج بها
كتـائب ما لهـا فى غـيرهم أرب
كتائب لبـنى العبـاس قـد عـرفت
ما ألف الفضـل منهـا العجم والعرب
أثبت خمس مئـين فى عـدادهم
من الألـوف الـتى أحصـت لك الكتب

(١) تاريخ الخلفاء : ١٩٣ .
(٢) تاريخ الطبرى : أحداث سنة ١٧٨ هـ .

يقارعون عن القوم الذين هم
أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا

ويبدو أن الرشيد تخوف الفضل بن يحيى فعزله عن خراسان . وأحس — فى الوقت ذاته — أن عهده بولاية العهد لمحمد دون أخيه عبد الله كان ضد إرادته وأنه اضطر إليه كارهاً بفعل مؤثرات من حوله . ولهذا ظل فترة طويلة مؤرقاً معذب الضمير لا يدرى ما يصنع حتى يصحح خطأً وقع فيه . وقد روى لنا الأصمعى رواية تدل على هذا القلق الذى كان يعانيه الرشيد ، كما نتبين فى نهايتها الحل الذى رآه مخرجاً له من قلقه النفسى ، قال : « بينما أنا أساير الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً . فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى ، ثم أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة
موحد الرأى لا نكس ولا برم
واترك فعالة أقوام ذوى خطل
لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً ، ثم قال لمروان الخادم : على بيحيى ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والإسلام جذع ، والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف ، وعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ،

وكان من خبره ما قد علمت وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر ، فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن ، حتى صارت إلى غير أهلها . وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصييره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ، فأشر على فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى ، لطيف النظر . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة ، حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (١) .

وهكذا كشف الرشيد عن ذات نفسه فى تلك الليلة واستطاع

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٢ .

أن يحلل شخصية عبد الله ومحمـــد بوعى ودون مواربة ، كما أبان الضغط الشديد الذى تعرض له من بنى هاشم ليقدم محمداً على أخيه فى ولاية العهـــد ، بل يؤثره بها دونه ، وفى رواية للسيوطى يذكر الرشيد تأثير أم جعفر عليه صراحة مع بنى هاشم لإتمام هذا الأمر الذى نفذه كارهاً[1] . وعندما استبد به الخوف والقلق على مصالح الرعية أراد أن يمحو خطأ اختياره لمحمـــد ولياً للعهد، فاستطاع — بمشاركة يحيى بن خالد له فى الرأى —أن يهدىء من قلقه ولكن بالوقوع فى خطأ كان يتحاشاه منذ البداية ، وهو إقرار وليين للعهد ، فى الوقت الذى يؤمن فيه بفشل هذه التجربة من قبل .

كان الرشيد منصرفاً من الحج سنة ١٨٢ هـ. فتوجه إلى الرقة ، وفيها نفـــذ ما اعتزمه من قبل فأعلن بيعته لابنه عبد الله المأمون بعد محمـــد الأمين ، وأخذ البيعة على الجند بذلك ، ثم أرسل المأمون إلى بغداد ومعه من أهل بيته جعفر بن أبى جعفر المنصور ،وعبد الملك بن صالح ، ومن القواد على بن عيسى فبويع له فى بغـــداد حين وصل إليها .

وبذلك صار الأمين والمأمون وليين للعهـــد ، وأكثر الشعراء فى مدح صنيع الرشيد ومدح المأمون،ومن العجيب أن سلما الخاسر الذىمدح اختيار الأمين ابن زبيدة ولياً للعهدوحشت زبيدة فمهجوهراً

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٠٤ .

جائزة لـه عن أبياته ، هو نفسه الذى كتب يمدح اختيار المأمون ، جامعاً لـه عديداً من الصفات الكريمة ، يقول :

بايع هارون إمام الهدى
لذى الحجا والخلق الفاضل
المخلف المتلف أمواله
والضامن الأثقال للحامل
والعالم الناقد فى علمه
والحاكم الفاضل والعادل
لخير عباس إذا حصلوا
والمفضل المجدى على العائل
أبرهم براً وأولاهم
بالعرف عند الحدث النازل
لمشبه المنصور فى ملكه
إذا تدجت ظلمة الباطل
فتم بالمأمون نور الهدى
وانكشف الجهل عن الجاهل[1]

ولكن يبدو أن نور الهدى لم يتم باختيار المأمون بعد الأمين لولاية

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٢ .

العهد، فقد طمح إخوة المأمون فى ترشيحهم أيضاً، ويبدو أن فرق السن بينهم كان ضئيلا ، فلم يجدوا حرجاً فى المطالبة علناً بترشيحهم لولاية العهد، وكان أكثر الساعين إلى ذلك الابن الثالث لهارون واسمه القاسم ، ويظهر أن أمه « قصف » كانت أثيرة إلى قلب الرشيد ، فسعت سعيها ليكون ابنها فى قائمة المرشحين للخلافة ،وأغرت الشعراء بإعلان ذلك فى أشعارهم التى يلقونها على مسامع الرشيد ، بل إن عبد الملك بن صالح — الذى كان القاسم فى حجره — **كتب إلى الرشيد يطالب بالبيعة له على أساس نكتة حسابية إذ يقول :**

يا أيها الملك الذى
لو كان نجماً كان سعداً
اعقد لقاسم بيعة
واقدح له فى الملك زنداً
الله فرد واحد
فاجعل ولاة العهد فرداً(١)

ولم يلبث الرشيد أن استجاب لهذا الضغط ، فبايع للقاسم وسماه المؤتمن ، وذلك بعد البيعة للمأمون بفترة يسيرة ، ولكنه — فيما يبدو — أصم أذنيه عن البيعة لرابع أبنائه وهو المعتصم لأنه كان منصرفاً عن

---

(١) المصدر نفسه .

الثقافة والعلم حتى قيل لقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أميا[1] . ولما استقرت ولاية العهد لأبنائه الثلاثة أعلن تقسيم ملكه بينهم ، فخص الأمين بالشام والعراق ، وولى المأمون ممالك خراسان بأسرها . وولى المؤتمن الجزيرة والثغور ،ولم يكن يجاوز أكبر هؤلاء الإخوة — وهو عبد الله المأمون — الثانية عشرة من عمره وقتذاك .

وكثرت أحاديث الناس حول صنيع الرشيد ، فمنهم من باركه قائلا : إنه أحكم أمر الملك ، ومنهم من لعنه قائلا : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية، وانقسم الشعراء فريقين ، فريق يؤيدما فعله هارون ويعبر عنه عبد الملك بن صالح يقـــوله :

الله قـــلد هـــاروناً سياستنـــا
لما اصطفـــاه فأحيا الدين والسننا

وقلد الأرض هـــارون لرأفتـــه
بنا أمينـــاً ومأموناً ومؤتمنا

وفريق يعارض — ويبدو أنه كان أعلى صوتاً وأكثر تعبيراً عن رأى الشعب — والشاعر الذى عبر عن هذا الفريق كأنما كان يخترق أستار الغيب فيشـــهد ما يحدث وراءها من فتن دموية ، يقـــول :

---

(١) تاريخ الخلفاء : ١٩٣ .

أقول لغمـــة فى النفس مـــنى

ودمـــع العـــين يطرد اطرادا

خـــذى للهول عـــدته بحـــزم

ســـتلقى ما سيمنعـــك الرقـــادا

فإنـــك إن بقيت رأيت أمـــراً

يطيـــل لك الكـــآبة والســـهادا

رأى الملك المهـــذب شر رأى

بقســـمته الخـــلافة والبـــلادا

رأى ما لو تعقبه بعـــــلم

لبيـــض من مفـــارقه الســـوادا

فقـــد غـــرس العـــداوة غير آل

وأورث شمـــل ألفـــتهم بدادا

وألقـــح بينهـــم حـــرباً عوانا

وســـلس لاجتنـــابهم القيـــادا

فويـــل للرعيـــــة عن قلـــل

لقـــد أهـــدى لهـــا الكرب الشدادا

وألبسهـــا بـــلاء غـــير فـــان

وألزمها التضعضـــع والفســـادا

ســـتجرى من دمـــائهم بحـــور

زواخـــر لا يرون لهـــا نفـــادا

فوزر بـــلائهم أبـــداً عليـــه

أغيـــاً كان ذلك أم رشاداً(١)

ويبدو أن الرشيد كان يحس إحساساً قوياً بتورطه فى هذا الأمر كله ، وكان يتخيل ما سوف يحدث بين الأخوين من شقاق، وقد عبر عن ذلك فى أكثر من مناسبة، وكان تخوفه من جهة الأمين لا من جهة المأمون ، لوثوقه بضعف شخصية الأمين وسرعة استجابته للمؤثرات . ولهذا نرى الرشيد يحاول إيجاد نوع من الضمان لتنفيذ ما اعتزمه من تولى الامين ثم المأمون الخلافة . وظن أنه عثر على هذا الضمان عندما حج فى سنة ست وثمانين ومائة ، ولكنه كان واهماً فى ظنه، وما ارتآه ضماناً لم يكن إلا مظهراً شكلياً لاغناء فيه ولاجدوى منه . لقد ذهب الرشيد إلى الحج فى تلك السنة ومعه وجوه بنى هاشم والقواد والفقهاء والقضاة والوزراء، فلما قضى مناسك الحج كتب لعبدالله المأمون ابنه كتابين . أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما ، أحدهما على محمدبما اشترط عليه الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله من الأعمال وصير إليه من الضياع والغـــلات والجواهر والأموال ، والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولـــده ، وأهل بيته ومواليه وقواده

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٣ .

ووزرائه وكتابه وغيرهم ، وتقدم الرشيد إلى الحجبة فى حفظ الشهادة بالبيعة والكتاب ومنع من أراد إخراجها والذهاب بهما .

أما الكتاب الأول فنصه كما رواه الطبرى : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين فى صحة من عقله ، وجواز من أمره ، طائعاً غير مكره : أن أمير المؤمنين ولانى العهد من بعـــده ، وصير البيعة لى فى رقاب المسلمين جميعاً ، وولى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدى برضا منى وتسليم ، طائعاً غير مكره ، وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وعشورها وجميع أعمالها فى حياته وبعده ، وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضا منى وطيب نفس أن لأخى عبد اللهبن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدى وتسليم ذلك له ، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضياع والعقد ، وما أعطاه فى حياته وصحته من مال أو حلى أو جواهر أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين موفراً مسلماً إليه ، وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً ، فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله بن هارون

أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين ، وأن يمضي عبد الله بن أمير المؤمنين إلى خراسان والرى والكور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله بن أمير المؤمنين من معسكر أمـير المؤمنين وغـيره من سلطان أمير المؤمنين وجمـيع من ضم إليه أمـير المـؤمنين حيث أحب من لـدن الرى إلى أقصى عمل خراسان ، ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً و لا رجلا واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين . . . ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملا ، ولا يدخل عليه فى صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره . . . وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض اسمه ومكانه مع عبد الله بن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه ، فعلى محمد بن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله..فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد الله عن ولاية العهد من بعده أو عزل عبد الله عن ولاية خراسان . . أو صرف أحد قواده . . أو أن ينتقصه قليلا أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين بوجه من الوجوه أو بحيلة من الحيل صغرت أو كبرت فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين،

وهو ولى الأمر بعد أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار ما كانت الحياة في أبدانهم، وليس لأحد منهم جميعاً — من كانوا أو حيث كانوا — أن يخالفه ولا يعصيه ، ولا يخرج عن طاعته ، ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين فى خلع عبد الله وصرف العهد عنه . . . وأنتم فى حل من البيعة التى فى أعناقكم لمحمدبن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين ، وعلى محمد بن هارون أن ينقاد لعبد الله ويسلم له الخلافة ، وليس لمحمد ولا لعبد الله أن يخلعا القاسم بن أمير المؤمنين هارون ولا يقدما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية ، فإذا أفضت الخـلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمر إليك فى إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولـده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقـدم قبله ، يحـكم فى ذلك بما أحب ورأى[1]».

ويستفاد من هذه الوثيقة أن الرشيد أراد أن يحكم الأمر لابنه المأمون إحكاماً شديداً بحيث لا يستطيع الأمين أن يخل بشىء . وفى اعتقادى أن كل ماكان يتمناه الرشيد لابنه المأمون ولم يستطع أن يحققه لـه ، ضمنه فى هـذه الوثيقة ، ولكنها لم تزد على أن تكون حبراً على ورق ، بالرغم من شهادة الشهود وإقرار الأمين على نفسه وحلفه

(١) انظر النص الكامل فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٦ .

فى بيت الله الحـــرام [١] .

وبالرغم من تعليق الوثيقة فى الكعبة ، ويبدو أن الشؤم لاحقها منذ البداية فسقطت عند تعليقها[٢] ، **وقد استعظم الناس الشرط والأيمان فى الكعبة كما يروى المسعودى حتى لقد رئى رجل من هذيل يقود بعيره وهو يقول :**

وبيعـــة قد نكـــثت أيمـــانهـــا

وفتنـــة قـــد ســـعرت نـــيرانهـــا

فقال لـــه أحد الحجاج ، ويحك ما تقول !. قال : أقول إن السيوف ستسل ، والفتنة ستقع ، والتنازع فى الملك سيظهر . أما ترى البعـــير واقفاً والرجلان يتنازعان،والغرابان قد وقعا على الدم والتطخا به ، والله لا يكون آخر هذا الأمر إلا محاربة وشرا[٣] .

ونلاحظ أن الرشيد فى هذه الوثيقة يحيط المأمون بكافة الضمانات القوية التى تجعله يقف على قدميه إذا حاول الأمين أن يسلبه حقه فى

---

(١) يروى المسعودى أن الأمين لما حلف للرشـــيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبـــة ، رده جعفر بن يحيى وقال له : فان غدرت بأخيك خذلك الله ، حتى فعل ذلك ثلاثا ، كلهـــا يحلف له ، ولهـــذا الســـبب اضطغنت أم الأمين على جعفر فكانت من بين الذين حرضوا الرشيد على قتله (مروج الذهب ٢ : ٢٧٣) .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٣ .

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ .

الخـــلافة ، فأعطاه ولاية خراسان وهى تعتبر مملكة واسعة مترامية الأطراف ، عظيمة الموارد ، وجعل له استقلالا كاملا بها فى حياته وبعد مماته، أى فى خلال خلافة أخيه الأمين أيضاً ، ووفر له جو العمل على أسس ثابتة إذ حمى رجاله من العزل بيد الأمين عند وصوله إلى الخلافة، بل إنه حرم الأمين من كل حقوق الخليفة إزاء منطقة خراسان التى يحكمها المأمون فى استقلال تام عن الدولة .

ولم يكن اختيار الرشيد ولاية خراسان ليعهد بها للمأمون عبثاً ، بل لقد بنى هذا الاختيار على أسباب كثيرة ، منها أن الخراسانيين هم شيعة العباسيين ، وفيهم خضوع ومؤازرة لهم، حتى إن أبا جعفر المنصور أثبت ذلك فى وصيته لابنه المهدى إذ يقول له: « وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم . وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم فى أهـــله وولـــده »[1] .

ثم إن « مراجل » أم المأمون خراسانية ، فـــله خئولة إذن فى خراسان وعصبية تؤازره ، وقد وقر فى نفوس الفرس منذ زمن بعيـــد احترام ملوكهم إلى حد التقديس والعبادة، وفى ذلك يقول أوليرى : « لقد كان من عادة الفرس فى القديم أن ينظروا إلى كل ملك من ملوك

(١) تاريخ الطبرى ٩ : ٣٩١ .

الساسانيين باعتباره « باغ » ، وذلك لقب لا يفهم منه معنى « إلـــه » فهماً تاماً ، وإنما يفهم على أنه حلول الإله، حيث تتوارث الروح المقدسة عن طريق التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، وهكذا نسبوا للملك قوى إعجازية وعبدوه باعتباره مقام حضرة إلهية. . وقد بقى الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة برغم اعتناقهم الإسلام ، فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل[1] . وهذا يفسر لنا استماتة الخراسانيين فى القتال ضد جيوش الأمين ، دفاعاً عن خليفتهم المأمون ، ولم تكن هذه الأسباب جميعها بعيدة عن الرشيد عند ما اختار ولاية خراسان لتكون من نصيب المأمون، فإذا كان لم يستطع أن يحقق أمله فى اختياره خليفة دون أخيه الأمين بسبب عصبية بنى هاشم والمؤثرات الأخرى من حوله ، فلا أقل من أن يجعل للمأمون كياناً يرد به غائلة الأمين إذا حدثته نفسه بنقض العهد الموثق فى حرم الكعبة .

وعلى الرغم مما يؤكده هذا العهد من عدم ثقة الرشيد بابنه الأمين ، نراه يفرط فى الثقة بالمأمون فيعطيه الحق فى خلع القاسم من ولاية العهد، وصرف ذلك إلى من يرى من أولاده أو إخوته ، مع أنه حرم الأمين هـــذا الحق .

وفى مقابل العهد الذى كتبه الأمين على نفسه ، استكتب الرشيد ابنه المأمون عهداً ردد فيه ماجاء فى كتاب الأمين مما يجب عليه بالنسبة

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ : ١٠٦ .

للمأمون فقال : . . إن أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد بن هارون ، وولانى فى حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها . وشرط على محمد ابن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة وولاية أمور العباد والبـــلاد بعده . وولاية خراسان وجميع أعمالها . ولا يعوض لى فى شيء مما أقطعنى أمير المؤمنين وابتاع لى من الضياع والعقـــد والرباع وابتعت منه من ذلك . وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكســـاء والمتاع والدواب والرقيق . وغير ذلك . ولا يعرض لى . ولا أحد من عمالى وكتابى بسبب محاسبة » .

ويستمر المأمون فى تأكيد حقه قبل الأمين بتفاصيله التى أثبتناها من قبل ، فإذا استوفى تأكيد هذا الحق أوجب على نفسه « أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث . وأنفذ كتبه وأموره . وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه فى ناحيتى ، ما وفى لى بما شرط لأمير المؤمنين فى أمرى » . وكان الرشيد — حتى فى هذا الكتاب — يريد أن يستوثق للمأمون ما شرطه لـــه ، كأنه كان متخوفاً أشد الخوف من سلوك الأمين بعــد توليه الخـــلافة .

وهـــكذا أحس الرشيد ببعض الراحة بعد شخوصه بابنيه إلى بيت الله « وأخذ البيعة منهما بأشد المواثيق وأغلظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما

ومودتهما . . وكتبا له فى بطن بيت الله الحـــرام بخطوط أيديهما، بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمـــير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما الحجبة وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة ! »[1] .

لقد فعل الرشيد ذلك كله طلباً لراحة نفســـه ، وتهدئة لضميره المعـــذب الذى يؤمن بأن الخلافة من حق المأمون لســـلامة تفكيره وحسن سيرته وقوة شخصيته ، وقدرته على العمل لصالح المســـلمين ، ولكن ها هو ذا يضطر إلى صرفها للأمين واضعاً المأمون فى موقف عسير ، وقفه الرشيد نفسه قبل ذلك ، وقاسى منه الأمرين ، ولهـــذا أراد أن يجنب المـــأمون بعض مخاطر هـــذا الموقف بإقرار الضمانات التى تحدثنا عنها من قبل،يضاف إلى ذلك إيثاره له بالمال الكثير ليمنحه القدرة الكافية على العمل المثمر ، والتأثير فى الناس ، وتقوية جيشه . واستمالة الطامعين إلى جانبه ، ومن بين هدايا الرشيد إلى ابنه المأمون — مما تكشف عن حبه الشديد له وإيثاره — خاتم الخليفة المنصور الذى كان يتيمن به الرشيد كثيراً ونقشه : « الله ثقتى آمنت به »[2] . وينبئنا الطبرى أن الرشيد بعد منصرفه من الحج ، وبعد أن وثق البيعة

---

(١) انظر نص الكتاب الذى بعث به الرشيد الى عماله فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٧ — ٧٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٩٨ .

لابنيه أمر لعبد الله (المأمون) بمائة ألف دينار حملت له من الرقة إلى بغـــداد(١) . ولم يكتف بذلك بل نراه حين شخص إلى خراسان فى عام ١٩٣ هـ. جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه ، وأشهدهم وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون ، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون(٢) .

كل هذا الإيثار من جانب الرشيد مرده شعوره بالذنب لتفضيله الأمين على أخيه ، فهو يحاول أن يعوضه عن تأخر ولايته الخـــلافة ، بما يغدق عليه من أموال ، وبمن يطيعهمن الرجال ، وبما يمده من مصادر القوة فى العدد والعدة ، ولكنه نسى أنه بهذا العمل يوغر صدر الأمين على أخيه ، ويملؤه بالحقـــد والكراهية ، ويشعره بأنه خليفة عاجز لا حول له ولا نفوذ ، ما دام يرى أنأخاه المأمون يستأثر بأهم ولايات الدولة وأكثرها غنى ، ويحوز الأموال والأسلحة الكثيرة والجيش الذى يستطيع أن يقض مضجعه ويؤرقه .

وكانت رحلة الرشيد إلى خراسان التى أشرنا إليها نهاية المطاف له ، إذ عرضت له عـــلة ، ما لبثت أن اشتدت عليه وهو فى مدينة طوس ، فقضى نحبه بعد أن ظل فى الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً ، وهذه المدة — كما نعلم — هى عمر المأمون وقت وفاة أبيه . ولم يحضر

---

(١) المصدر نفسه ١٠ : ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٢٤ .

وفاة الرشيد من أبنائه غير صالح ، أما الأمين فكان فى بغداد وقتذاك ، وكان المأمون فى مرو ،وحين سمع الأمين بعلة أبيه أرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتباً جعلها فى قوائم صناديق منقورة ، ألبسها جلود البقر ، وقال له : لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن فى عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه ولا ما معك حتى يموت أمير المؤمنين ، فإذا مات فادفع إلى كل رجل منهم كتابه . ونجح رسول الأمين فى مهمته بالرغم من شك الرشيد ورجاله فيه ومحاولتهم عبثاً العثور على ما يكون معه من رسائل . وحينما استوثق بكر من وفاة الرشيد ، أخرج الرسائل من مخبئها السرى ووزعها على أصحابها ،وانطلق رسول إلى مرو يحمل كتاب الأمين إلى أخيه المأمون وهو يقول فيه : « إذا ورد عليك كتاب أخيك ، أعاذه الله من فقـــدك عند حـــلول ما لا مرد له ولا مدفع مما قد أخف وتناسخ الأمم الخالية والقرون الماضية ، بما عزاك الله به، واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين وأجزل الحظين ، فقبضه الله طاهراً زاكياً ، قد شكر سعيه وغفر ذنبه إن شاء الله ، فقم فى أمرك قيام ذى الحزم والعزم والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المســـلمين ، وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يحبط الأجر ، ويعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وخذ البيعة على من قبلك من قوادك وجنـــدك وخاصتك وعامتك لأخيك ، ثم لنفسك ، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وإثباتها ، فإنك مقـــلد من ذاك

ما قلدك الله وخليفته . وأعلم من قبلك رأيى فى صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم ، فمن أنكرته عند بيعته،أو اتهمته على طاعته ، فابعث إلى برأسه مع خبره ، وإياك وإقالته، فإن النار أولى به . واعمل بما نأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ماترى وتشاهد، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك . ويسأله أن يشد بك عضده، ويجمع بك أمره ، إنه لطيف لما يشاء » (1) .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى المأمون — وهى تؤكد الشروط والعهود التى سبق أن أقرها الرشيد(2) . وتكشف عن وثوق الأمين بصحة رأى أخيه وبعد نظره — كان المأمون فى طريقه من مرو إلى سمرقند . فوصلته الرسالة وهو على مسيرة فرسخ من مرو. فعاد إليها ودخل دار الإمارة ، ثم نعى الرشيد على المنبر . وشق ثوبه ونزل . وأمر للناس بمال

(1) تاريخ الطبرى 10 : 126 .

(2) فى كتاب « الامامة والسياسة » أن العلة حين اشتدت على هارون ذكر البيعة لابنه المأمون . فلما سمعت بذلك زبيدة هجرته وتغاضت عنه . ثم دخلت عليه فعاتبته فى ذلك أشد المعاتبة . فقال لها الرشيد : ويحك انما هى أمة محمد ورعاية من استرعانى الله مطوقا بعنقى . ثم يقول فى ختام الرواية ان الرشيد جعل الخلافة للمأمون أولا ثم الأمين . وهذه الرواية التى ينفرد بها الكتاب اما أن تكون خطأ أو لعلها تبين أن الرشيد حاول ذلك قبل وفاته (الامامة والسياسة 2 : 172) .

فوزع عليهم ، وبايع لمحمد ولنفسه ، وأعطى الجنـــد اثنى عشر شهراً .
ولست أشك فى أن فجيعة المأمون فى أبيه الرشيد كانت عظيمة ، فقد كان الرشيد – كما رأينا – يؤكد فى كل مناسبة تقديره العميق للمأمون وحبه الجارف له . لقد منحه ولاية خراسان وهو بعد صبى صغير ، فاستفاد من وجوده فيها فائدة عظيمة من الناحيتين السياسية و الثقافية . أما من الناحية السياسية فقـــد تمكن وهـــو فى خراسان – موطن خئولته – من رد طغيان الأمين واستيلائه على السلطة فى النهاية ، وأما من الناحية الثقافية ، فقد تأثر بالهيلنية المحدثة التى كانت مرو مركزاً لها ، واستفاد ثقافة فلسفية انضافت إلى ثقافته العربية الأصيلة .

وكان الرشيد فى حياته يدرب المأمون على أصول الحكم والسياسة ، فكان يندبه لقيادة الجيوش وقمع الفتن ، كما كان ينيبه عنه فى المناسبات الاجتماعية ، فيخبرنا ابن عبد ربه أن الرشيد بعث ابنه المأمون للصلاة على الكسائى وإبراهيم الموصلى والعباس بن الأحنف الذين ماتوا فى وقت واحد ؟ [1] . وكان الرشيد يدرب المأمون أيضاً على مواجهة الجماهير والتأثير فيهم عن طريق الخطابة التى كان موهوباً فيها منذ صغره لجهارة صوته وحسن لهجته . ويحكى أن الرشيد طلب من أبى محمد اليزيدى مؤدب المأمون أن يعد خطبة للمأمون ليلقيها يوم الجمعة ، فأعدها لــــه ، فلما خطب بها رقت له قلوب الناس حتى أبكاهم ، وقد كتب اليزيدى بهذه المناسبة قصيدة يهنىء فيها الرشيد ، يقول فيها :

---

(١) العقد الفريد ٥ : ٣٧٧ .

لتهن أمير المؤمنين كرامة
عليه بها شكر الإله وجوب
بأن ولى العهد مأمون هاشم
بدا فضله إذ قام وهو خطيب
ولما رماه الناس من كل جانب
بأبصارهم والعود منه صليب
رماهم بقول أنصتوا عجباً له
وفى دونه للسامعين عجيب
ولما وعت آذانهم ما أتى به
أنابت ورقت عند ذاك قلوب
فأبكى عيون الناس أبلغ واعظ
أعز بطاحى النجار نجيب
إذا ما علا المأمون أعواد منبر
فليس له فى العالمين ضريب

وهكذا كانت حياة المأمون فى كنف الرشيد تظللها الرعاية والمحبة ، وكانت عملا وجهداً ، وكانت فترة تكوين لشخصية المأمون وتدريب له على السياسة والحكم ، وواضح أن المأمون كان يتردد بين خراسان وبغداد ، يقيم فترة من الوقت فى مقر ولايته ، وفترة أخرى فى مركز الخلافة قريباً من الرشيد ، وواضح أيضاً أن المأمون تزوج فى سن مبكرة – شأن الشباب فى ذلك العصر – ولعل أولى زوجاته هى أم عيسى ابنة

عمـــه موسى الهادى ، وقد ظلت مقيمة فى بغداد ومعها طفلاها من المأمون إلى أن سقطت بغداد فى أيدى قواته ، فانتقلت مع طفليها إلى خراسان[1] . ويذكر صاحب شذرات الذهب أن المأمون قد تزوجها فى عام ١٨٨ هـ . أى أنه كان يبلغ ثمانى عشرة سنة من عمره وقتذاك .

وقد كان من الممكن أن تستمر حياة المأمون وأخيه الأمين كما أراد لهما الرشيد ، المأمون يتولى أمر خراسان وله بها استقلال يكاد يكون كاملا ، والأمين خليفة المسلمين ، ولكن القدر كان يوجه حياتهما توجيهاً آخر ، ذلك أن قوادالرشيد وأهله تشاوروا — وهم فى خراسان عقب وفاة الرشـــيد — فى اللحاق بمحمد ، فبدأوا ينسجون خيوط الفتنة بين الأخوين ، فقال الفضل بن الربيع : لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا ندرى ما يكون من أمره . وأمر الناس بالرحيل إلى بغـــداد ناكثين بوعـــودهم للرشـــيد بالبقاء إلى جانب المأمون . فلما علم المأمون بذلك جمع من معه من قواد أبيه فشاورهم وأخبرهم الخبر . فأشاروا عليه بأن يلحقهم فى ألفى فارس فيردوهم ، إلا أنالفضل بن سهل عارض هذا الرأى قائلا : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد . ولكن الرأى أن تكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولا فتذكرهم البيعة . وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث .

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٨ وقد ذكر اليعقوبى أنهما كانا يسميان محمدا الأصـــغر ، وعبيد الله (تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٩٧)

ونفذ المأمون مشورة الفضل ، فلما وصل رسول المأمون إلى جماعة المارقين وهم فى طريق عودتهم إلى بغداد . قال الفضل بن الربيع : إنما أنا واحد منهم ، أما عبد الرحمن بن جبلة فشد على حامل الرسالة بالرمح فأمره على جنبه . ثم قال : قل لصاحبك والله لو كنت حاضراً لوضعت الرمح فى فيك . ونال من المأمون .

ولما وصلت أخبار ذلك كله للمأمون ، جزع وتحسر . وأحس أن بريق الخلافة قد أعمى أبصار فئة من الناس فضلوا وكذبوا العهود والمواثيق . ولم يمض على وفاة الرشيد غير يوم أو بعض يوم . ولكنه لم يلبث أن وجد حوله رجالا يقفون معه فى وجه العاصفة ، وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى هون على المأمون خروج بعض قواده عليه قائلا : أعداء استرحت منهم . وعدد له الخارجين على الخلفاء من قبله وكيف تم القضاء عليهم وأبان له أن موقفه أفضل من موقف الخلفاء السابقين لأنه نازل فى أخواله وبيعته فى أعناقهم . ووضع الفضل يده على صدره وهو يقول للمأمون فى ختام حديثه : اصبر وأنا أضمن لك الخلافة(١) .

---

(١) انظر حديث الفضل بن سهل فى تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٨ .



فى طوفان السياسة

اولا : فى مرو

شخصية عجيبة ارتبطت بحيــاة المأمون السياسية ارتباطاً وثيقاً منذ كان ولياً للعهد فى حياةأبيه الرشيد ، حتى نهاية إقامته فى مرو بخراسان وهو خليفة على المسلمين وأقصد بهذه الشخصية الفضل بن سهل ، وهو فارسى مجوسى الأصل ، يقال إنه كان من أولاد ملوك الفرس، وأن أباه سهلا أسلم أيام المهدى[1] . وأن الفضل كان يعمل قهرماناً ليحيي بن خالد ، أو أنه كان يشتغل فى عصر الرشيد – وهو ما يزال شاباً فتياً – بالترجمة من الفارسية إلى العربية ، فنقل ليحيي البرمكى كتاباً لا ندرى ما هو فأعجب يحيي بحسن فهمه وجودة عباراته، فقال له : إنى أراك ذكياً وستبلغ مبلغاً رفيعاً، فأسلم حتى أجد السبيل إلى

(١) يقول ابن طباطبا انه أسلم أيام الرشيد (الفخرى : ٣٠٤) .

إدخالك فى أمورنا والإحسان إليك . ونلاحظ هنا فى عبارة يحيى أن الفرس والموالى بصفة عامة كانوا يتخذون الإسلام وسيلة لاقتناص المراكز العليا فى الدولة . واستجاب الفضل لرغبة يحيى قائلا : نعم أصلح الله الوزير أسلم على يديك ، فقال له يحيى : لا . ولكن أضعك موضعا تنال به حظاً من دنيانا . ودعا سلاماً مولاه . وقال له خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر وقل له يدخل على المأمون حتى يسلم على يديه . وكان المأمون – كما نعلم – فى حجر جعفر وتم الأمر كما أراد يحيى . وكان ذلك فى عام ١٩٠ هـ . وظل الفضل بن سهل منذ ذلك التاريخ ملازماً للمأمون ولجعفر بن يحيى . وكان يتلقى على جعفر أصول المهارة السياسية التى كان يحذقها . وكان البرامكة يعلقون على الفضل بن سهل آمالا كبيرة من ذلك ما يذكره الجهشيارى قال ذكر أبو العلاء المذارى أنه سمع الفضل بن سهل يقول . قال لى يحيى بن خالد . فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة . وأنت عندى منهم . فلما نكب البرامكة تفرغ الفضل بن سهل لخدمة المأمون . وظل امتداداً حقيقياً للبرامكة فى سخائه وكثرة إفضاله على الناس . وفى براعته فى تحريك الأمور من وراء ستار ، ووصفه الجهشيارى بأنه سخى سرى نبيل النفس(١) . ويقول غير مصدر إنه كان أخبر الناس بعلم النجامة وأكثرهم إصابة فى أحكامه(٢) . وأن سبب ميله إلى المأمون

(١) الوزراء والكتاب : ٣٠٧ .
(٢) وفيات الأعيان ٣ : ٢١٠ ، الفخرى : ٣٠٤ .

أنه نظر فى طالعه فرأى صعود نجمه فلزمه، وبلغ من براعته فى معرفة الطوالع أنه ترك رسالة بوقت وفاته ومكان حدوثها فقال إنها ستكون بين ماء ونار ، فكان مقتله فى الحمام ! وأرى أن لزوم الفضل بن سهل للمأمون واختياره جانبه لم يكن محتاجاً إلى رصد الطوالع والبراعة فى معرفة الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، ولكنه كان ذكياً حاذقاً يعرف شخصية المأمون جيداً ، وما هو عليه من همة عالية ورزانة وقدرة على تصريف الأمور ومواجهة الصعاب ، كما كان يعرف شخصية الأمين وضعفها وتهالكها على الملذات ومتابعة الشهوات ، ويروى أن مؤدب المأمون قال يوماً للفضل : إن المأمون لجميل الرأى فيك، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألف ألف درهم ، فاغتاظ من ذلك وقال له : ألك على حقد ، ألى إليك إساءة ، فقال المؤدب ، لا والله ما قلت هذا إلا محبة لك ، فقال : أتقول لى إنك تحصل منه ألف ألف درهم والله ما صحبته لأكتسب مالا قل أو جل ، ولكن صحبته حتى يمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب ! (١)

ثم لا تنس أن الميل الطبيعى للفضل بن سهل الفارسى الأصل ينبغى أن يكون فى اتجاه المأمون لا الأمين ، ويجب أن نؤكد منذ البداية أن الفضل ابن سهل لم ينس أصله الفارسى قط ، وأنه ظل يعمل لصالح الفرس ، واستطاع أن يغرر بالمأمون سنوات طويلة من ناحية استخدامه لتحقيق

(١) عصر المأمون ١ : ٢١٣ .

المصالح الفارسية أولا . ولهذا اتهم المأمون بأنه فارسى الهوى ، وأنه يقف على رأس النفوذ الفارسى ويمثله ، فى حين أن الأمين يمثل فى صراعه ضد أخيه النفوذ العربى .

وبالرغم من كل الشبهات التى تحيط بالفضل بن سهل ينبغى أن نقرر أنه يعتبر من الشخصيات التاريخية الفذة فى القدرة السياسية والاتزان الفكرى وضبط النفس إلى أقصى حدودها . لقد رأينا كيف أن الفضل عارض كل مستشارى المأمون الذين أرادوا إعادة القواد الناكثين للعهود بالقوة ، وكان رأيه فى ذلك صائباً ، فما فائدة قائد منهم لا يحمل للمأمون تقديراً ولا حباً ، ورأينا كيف ثبت الفضل المأمون فى موقفه وقال له اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ، ثقة بالنفس لا حد لها واعتداد من الفضل بقدرته ومواهبه ، ولكنه لم يكن مجرد قوال لا يدرى من أمره شيئاً ، بل استطاع أن ينفذ ما وعد به المأمون فجعل الخلافة تنقاد له بعد صراع مرير وكفاح دائب .

لقد ولى الأمين الخلافة وليس فى خاطره أن ينكث بوعده ، كل ما فى نفسه أن ينصرف إلى حياة عامرة بالملذات والبهجة ، حتى إنه أمر — بعد بيعته بيوم واحد — ببناء ميدان حول قصر أبى جعفر فى بغداد يخصص للصوالجة . وكان ينعم بحب جاريته « نظم » التى تزوجها وأنجب منها ابنه موسى ، كما كان مشغولا بحبه الجديد للجارية « بذل » التى كانت لجعفر بن موسى الهادى فرآها الأمين وهام بها حباً حتى

استطاع أن يشتريها بعشرين ألف ألف درهم كما يقول صاحب العقد الفريد (١) ، وإن كنت أشك فى صحة هذا الرقم لضخامته . ولم يكن يشغل بال الأمين صراع من أجل السلطان ، بل كان مشغولا بلهوه، منهمكاً فى الملذات ، كما يقول كثير من المؤرخين ، حتى حين يلقى وزيره الفضل بن الربيع الذى آثر أن ينكث بوعده للمأمون، ليبقى بجانب الأمين إيثاراً منه لعاجل فائدة ، لم يكن لقاء الأمين مع وزيره جداً كله ، بل لعل معظم تلاقيهما كان للعب النرد ، ويقال إنهما لعبا يوماً فتراهنا فى خاتميهما ، فغلب الأمين فأخذ الخاتم وأرسل فى الحال وأحضر صانعاً ، وكان مكتوباً على الخاتم « الفضل بن الربيع » ، فقال الأمين للصائغ : أكتب تحته « ينكح » ، فنقش الصائغ ذلك فى الحال . ثم أعاد الخاتم إلى الفضل وهو لا يعلم ما نقش عليه ، ومضت على ذلك أيام ، دخل بعدها الفضل على الأمين فسأله : ما على خاتمك مكتوب ؟ قال : اسمى واسم أبى ، فتناوله الأمين ثم قال له : ما هذا المكتوب تحت اسمك ! فلما قرأه الفضل فهم ما فعله به الأمين ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، هذا والله هو الخذلان المبين ، أنا وزيرك ولى اليوم كذا وكذا يوماً أختم الكتب بهذا إلى الأطراف وهو على هذه الصفة ، هذا والله آخر الدولة ودمارها (٢) ! وهذه القصة — على

---

(١) العقد الفريد ٥ : ١١٨ .

(٢) الفخرى : ٦٣ .

غرابتها — ليست منكورة على الإطلاق لمن يعرف أخلاق الأمين وتشاغله بالبطالة واللهو عن كل أمور الدولة وما يمس كرامتها وسمعتها .

وكان من الممكن أن تمضى به الأمور على هذا المنوال دون أن يدخل مسالك السياسة الضيقة ودروبها المعقدة ، ودون أن يشغل نفسه بالحرب وأهوالها ، ولكن قيض الله له وزيره الفضل بن الربيع — وقد رأينا قصر نظره فى الميل إلى جانب الأمين دون المأمون — وكأنما خشى على نفسه غضب المأمون إذا صار إلى الخلافة يوماً (١) . فسعى — كما يقول الطبرى — « فى إغراء محمد به وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه ، بل كان عزمه فيما ذكر عنه الوفاء لأخويه .. فلم يزل الفضل به يصغر فى عينيه شأن المأمون ويزين له خلعه حتى قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد ، وأدخل فى ذلك من رأيه معه على بن عيسى

---

(١) كشف المأمون عن بغض الفضل بن الربيع له منذ أيام أبيه الرشيد فقال : « كان فى أيام الرشيد وحاله حالى يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن ، وكان له عندى كالذى لى عنده ، ولكنى كنت أداريه خوفا من سعايته وحذراً من أكاذيبه ، فكنت اذا سلمت عليه فرت على أظل لذلك فرحا ، وبه مبتهجا ، وكان صفوه الى المخلوع (كتاب بغداد : ١٥) .

ابن ماهان، والسندى بن شاهك ، وغيرهما ممن بحضرته،فأزال محمداً عن رأيه » (١) .

ونحن نعلم مدى انقياد الأمين لآراء غيره ، فلم يلبث إلا شهورا منذ بداية خلافته حتى عزل أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل بالشام وقنسرين والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة ابن خازم ، ثم أمر بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة بعد الدعاء لـه وللمأمون والقاسم . وكانت هذه خطوة لها ما بعدها ، وقد استطاع المأمون أن يدرك أن الأمين يدبر خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطرز ، حتى يؤكد له تنبهه إلى ما يراد به واستعداده للمقاومة، ولم يلبث بعض قواد الأمين — الذين أحسوا ضعفه وانقياده — أن تركوه ولحقوا بالمأمون فى خراسان . وكان أهم هؤلاء القواد رافع بن الليث بن نصر ابن سيار . وهرثمة بن أعين الذى ولاه المأمون قيادة حرسه . عندئذ بدأت الأمور تتحرج بين الأخوين ، وأحس كل منهما تأهب الآخر له بعد أن أظهر كلاهما المودة لصاحبه من قبل . فكانت رسالة الأمين الأولى مؤكدة للمواثيق والعهود ، أما المأمون فقد تواترت رسائله إلى أخيه الأمين بالتعظيم ، كما تواترت هداياه إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح (٢) .

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٩ .

ولم يلبث الأمين أن اقتنع بوجوب عزل أخويه من ولاية العهـد ، فبعث إلى المأمون ثلاثة رسل هم العباس بن موسى بن عيسى ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ليبلغوه تقديم موسى بن الأمين الذى سمى « الناطق بالحق » على نفسه . فأبى المأمون ذلك ، وأراد أحدهم وهو العباس بن موسى أن يهون الأمر عليه قائلا : وما عليك أيها الأمير من ذلك ، فهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع فما ضره ذلك (١) ، عندئذ صاح الفضل بن سهل بالعباس قائلا : اسكت فإن جدك كان فى أيديهم أسيراً . وهذا بين أخواله وشيعته ، وأعجب الفضل بذكاء العباس فأراد أن يستميله إلى جانب المأمون فخلابه . وقال له : يذهب عليك فى فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من المأمون : ومناه بولاية الموسم وبعض مواضع الأعمال بمصر . ولم يتركه حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافة فكان العباس بن موسى بعد ذلك عيناً على الأمين يبعث بأخباره إلى المأمون .

وبإشارة من الفضل فيما يظهر أطلق على المأمون اسم الإمام تمهيداً لإعلان خلافته ، ولما استنكر أخوه الأمين هذه التسمية ، وأثار موضوعها أحد رسله ، أجاب الفضل ابن سهل فى خبث ، قد يكون إمام المسـجد والقبيـلة ، فإن وفيتم لم يضركم ، وإن غدرتم فهو ذاك (٢) .

---

(١) مرت بنا الوسائل العنيفة التى اتبعت مع عيسى بن موسى لخلعه .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣١ .

وبإزاء هذا الجهد الضخم الذى كان يبذله الفضل بن سهل لتحقيق النصر السياسى للمأمون ، كان الفضل بن الربيع يقود المعـــركة فى الجانب الآخر : جانب الأمين ، فنهى عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على المنابر ، وأعلن المبايعة لموسى بن الأمين وولاه العراق ، وأرسل إلى مكة ليأخذ المواثيق التى وضعها الرشيد فى الكعبة ، ونجح فى الحصول عليها من الحجبة فمزقها الأمين .

وأخذ كل جانب من الفريقين يعجم عود الآخر ، فالأمين يطالب إلى المأمون أن يتنازل له عن بعض الكور الداخلة فى نطاق ولا يته ، والمأمون يأبى ذلك استناداً إلى ما هو مثبت فى العهود والمواثيق ، وإلى وجوده وسط عدو مخوف الشوكة وأجناد لا تطيع إلا بالأموال . ثم يأمر المأمون بوضع حراسة مشددة على حدود خراسان ، فلا يجوز رسول من العراق إلا مع ثقات من رجاله ، لا يدعونه يستعلم خبراً أو يؤثر أثراً . وبذلك استطاع أن يحمى أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو تودع صدورهم رهبة ، وكل ذلك بتدبير الفضل بن سهل الذى وكل إليه المأمون قيادة المعركة السياسية ، ورد الأمين على رفض المأمون التنازل له عن كور الجبال رداً عنيفاً ، فلم يملك المأمون إلا أن يجيبه برسالة يقول فى ختامها :

« فلا تبعثنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك ، وارض بما حكم به الحق فى أمرك ، أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام »(١) .

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤ .

ووقعت هذه الرسالة وقع الصاعقة على الأمين فردعلى أخيه رداً عنيفاً يخوفه من تعرضه « لنار لا قبل له بها » . وانتابت المأمون الهواجس خوفاً على زوجه وولديه الذين خلفهم في بغداد ، وخوفاً على ماله الذى تركه له الرشيد[1] .

فكتب إلى الأمين يستأذنه فى حمل أهله وماله إليه ، فلم يأذن له. ومع ذلك ظل المأمون ثابتاً فى موقفه إزاء هذا الجو المتوتر الملىء بالاحتمالات وكان الفضل بن سهل ينصحه بألا يكون « المستفتح باب الفرقة » حتى لا يفقد عطف العامة عليه، والعامة دائماً مع المظلوم المفترى عليه ، فى الوقت الذى كان الأمين فيه يستشير الناس فى خلع أخيه ، ويرى أن ولايته للعهـــد كانت « فلتة شبهها على الرشد جعفـــر بن يحيى بســـحره » [2] .

والحقيقة إن الخـــلاف بين الأخوين منذ بدايته كان يتحول إلى صالح المأمون بحكم شخصيته القوية الثابتة ، البعيدة عن التهالك على الملذات والشهوات ، وبحكم مستشاريه الناصحين وعلى رأسهم الفضل ابن سهل بسعة أفقه وحسن تدبيره، وبحكم السياسة الرشيدة التى ســـار عليها المأمون فى خراسان فاستطاع استمالة الجنود وعامة الناس بحيث

---

(١) ذكرنا أن الرشيد بعث الى المأمون فى بغداد مائة ألف دينار ولكن جاء على لسان المأمون فى رواية للطبرى أن الرشيد منحه مائة ألف ألف ، ولعلها دراهم وليست دنانير (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤) .
(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٣٦ .

لا ينحازون إلى غيره. حتى إن الفضل بن الربيع حين سأل أحد الخبراء عن إمكان إثارة أهل خراسان وجندها ضد المأمون، قال له : أجناد عبد الله قوم على بصيرة من أمرهم لتقدم سعيهم وما يتعاهدون من خطبهم. وأما العامة فهم قوم كانوا فى بلوى عظيمة من تحيف، ولأنهم فى أموالهم ثم فى أنفسهم صاروا به إلى الأمنية من المال والرفاغة فى المعيشة، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم، ويتذكرون بلية لا يأمنون العودة إليها » (١) . يضاف إلى ذلك أن شعور عامة الناس كان مع المأمون لإحساسهم بأن الأمين قد ظلمه وحرمه من حق كان قد شهد عليه فى الكعبة .

ونرى فى الجانب الآخر ضعف شخصية الأمين وتهالكه على على مغريات الحياة وتشاغله بالبطالة واللهو وتبديده الأموال فيما لا يجدى. ثم إن من حوله من المستشارين الذين اصطنعهم كانوا ممن نبذهم أبوه الرشيد وأقصاهم لسوء سيرتهم (٢) ، فإذا لجأ الأمين إلى ناصح يخلص له مثل يحيى بن سليم أبى أن يتبعه واتهمه بالخديعة (٣) . أما رأى يحيى فيقول فيه: « إذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه (أى المأمون) فلا تجاهره مجاهرة فيستنكرها الناس ويستشنعها العامة ، ولكن تستدعى الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد وتؤنسه بالألطاف والهدايا وتغرق

---

(١) المصدر نفسه : ١٠ : ١٣٧ .
(٢) الاسلام والحضارة العربية ٢ : ٢٢٠ .
(٣) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٦ .

ثقاته ومن معه وترغبهم بالأموال. وتستميلهم بالأطماع ، فإذا أوهنت قوته واستفرغت رجاله أمرته بالقدوم عليك ، فإن قدم صار إلى الذى تريد منه . وإن أبى كنت قد تناولته وقد كل حده ، وهيض جناحه . وضعف ركنه . وانقطع عزه » .

ومع هذا كله كان المأمون يتهيب الموقف فى حالات ضعف تنتابه. وكان يهم أن يسلم نفسه للأمين حتى لا يقع بينهما ما لا بد أن يقع من صدام وحرب . وكان الفضل بن سهل يثبته فى مكانه المرة بعد المرة ويطالبه بالتمسك بموضعه . فيجيب المأمون فى غمرة اليأس : « وكيف يمكننى التمسك بموضعى ومخالفة محمد وعظم القواد والجنود معه . وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه. مع ما قد فرق فى أهل بغداد من صلاته وفوائده . وإنما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها . لا ينظرون إذا وجدوها حفظ بيعة . ولا يرغبون فى وفاء عهد ولا أمانة » . ويثير الفضل الأمل فى نفس أميره . ويستحث كرامته ونخوته فيقول: « أنا لغدر محمد متخوف . ومن شرهه إلى ما فى يديك مشفق . ولأن تكون فى جندك وعزك ، مقيماً بين ظهرانى أهل ولايتك أحرى ، فإن دهمك منه أمر جردت له وناجزته وكايدته ، فإما أعطاك الله الظفر عليه بوفائك ونيتك ، أو كانت الأخرى فمت محافظاً مكرماً . غير ملق بيديك . ولا ممكن عدوك من الاحتكام فى نفسك ودمك » .

ولا تظهر براعة الفضل بن سهل وثباته وحسن سياسته وتدبيره

فى هذا الموقف فحسب ، بل تبدو أيضاً حين تخوف المأمون شر أخيه ، وشر ملوك العجم المحيطين به فى خراسان ، والذين استشارهم الأمين فى الغالب ضد أخيه . فتحفزوا للقضاء على المأمون ، وهم جيغويه وخاقان صاحب التبت . وملك كابل . وملك أتراء بنده . مما جعل المأمون يفكر فى الهروب من هذا الموقف العسير كله ، ليلجأ إلى ملك الترك ، ولكن الفضل شد من أزره . وأشار عليه بمنح جيغويه وخاقان . استقلالهما الذاتى . وإرسال هدايا إلى ملك كابل لاسترضائه . والتنازل عن الجزية لملك أترار بنده [1] .

وكان لا بد أن تحدث الصدام المسلح بعد معركة التحدى السياسى من الجانبين فى صورة الرسائل المتبادلة بينهما ، وبعد أن أعلن الأمين خلع أخيه وبايع لابنيه موسى وسماه الناطق بالحق . وعبد الله وسماه القائم بالحق . وبدأ الأمين هذا الصدام بإعداد جيش قوى يتكون من أربعين ألف مقاتل ، جعل قيادته لعلى بن موسى بن ماهان . وبدأ الجيش سيره فى جمادى الآخرة (وقيل شعبان) عام ١٩٥ هـ . ، وقائده مزهو بنفسه وجيشه . واثق من نجاحه فى مهمته .حتى لقد أخذ معه قيداً من فضة ليليق بمعصم المأمون حين يأتى به أسيراً . وبعث المأمون جيشاً متواضعاً يبلغ تعداده أقل من أربعة آلاف يتكون معظمه من الأتراك والفرس ، وجعل على رأسه طاهر بن الحسين أكبر قواده ، وكان ذا شهرة واسعة

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٨ .

فى فنون القتال ، حتى إن شاعراً من خراسان مدح المأمون لحسن اختياره . فقال :

رمى أهل العراق ومن عليها
إمام العدل والملك الرشيد
بأحزم من مشى رأياً وحزماً
وكيداً نافذاً فيما يكيد

وكان على بن عيسى يستعلم فى الطريق أخبار طاهر وهو يسخر منه ويقول : « وما طاهر ؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصانى ، أو شرارة من نارى . وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب » . واستطاع طاهر بن الحسين أن يحدد موقع المعركة لتكون ملائمة لظروف قواته القليلة العدد . فجعل الرى وراءه ليتحصن بها ويقاتل فى سككها إذا هزم ، وقبل أن يبدأ القتال ذكر طاهر على بن عيسى ببيعته للمأمون ، ثم جمع سبعمائة رجل ممن يثق بهم . وهجم على قلب قوات على بن عيسى فى ضربة مفاجئة . واستطاع بهذه الحركة أن ينال رأس على بن عيسى ، فدب اليأس فى نفوس جنده ، واستطاع طاهر أن يستبيح عسكره ، وهجم جنوده فوجدوا صناديق حسبوها مالا ، فلما كسروها فإذا فيها خمر سوارى ! (١)

وكان هذا الانتصار مفاجأة كبرى للفريقين المتنازعين . أما الأمين

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤١ .

فلم يدر بخلده قط أن جيشه الضخم يمكن أن تدور عليه هزيمة منكرة، وأن أعظم قواده وأولهم إجابة له فى خلع المأمون يقتل فى أول لقـاء . وأما المأمون فكان يستهول جيش الأمين وقوة عدته ، ويتخوف على ابن عيسى لمكانته وصحبته الطويلة لأهل خراسان ، ولهذا نراه قبل بدء القتال يبعث إليه رسالة مطولة يذكره فيها البيعة التى فى عنقه ، وكأنه يستعطفه ألا يقود جيشاً ضده [1] . ولم يدر المأمون أن على بن عيسى سوف يقتله غروره بنفسه ، وزهوه بقوته ، واستهانته بعدوه ، حتى نسى أبسط قواعد القتال من بث الطلائع وجمع الأخبار . وأرسل طاهر إلى الفضل بن سهل وزير المأمون يبشره بالظفر قائلا : « أطال الله بقاءك و كبت أعداءك ، وجعل من يشناك فداك . كتبت إليك ورأس على بن عيسى فى حجرى ، وخاتمه فى يدى، والحمد لله رب العالمين » .

وعقب هذا النصر العظيم لم يجد المأمون بداً من خلع أخيه الأمين وإعلان نفسه خليفة على المسلمين، فقد استعلن الشر ، ولا بد من خوض المعركة إلى نهايتها .

وتغنى شعراء المأمون بهذا الانتصار الذى كان تمهيداً قوياً للخلافة ، فقال أحدهم :

أصبحت الأمـــة فى غبـــطة

من أمـــر دنيـــاها ومن دينها

(١) انظر الرسالة فى تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣ ـ ١٤٤ .

إذ حفظت عهد إمام الهــدى
خــير بنى حــواء مأمونها
على شــفا كانت فــلما وفت
تخلصت من ســوء تحيينهــا
قامت بحــق الله إذ زبرت[1]
فى ولــده كتب دواوينهــا
ألا تراهــا كيف بعد الردى
وفقهــا الله لــتزيينهــا[2]

وقال آخــر :

عجبت لمعشر يرجون نجحــاً
لأمــر ما تتم بــه الأمــور
وكيف يتم ما عقــدوا وراموا
وأس بنــائهم منــه الفجور
أهاب إلى الضلال بهم غــوى
وشــيطان مواعــده غرور
يصيب بهم ويلعب كل لعب
كما لعبت بشــاربها الخمور

(١) زبرت أى كتبت .
(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٣ .

وكادوا الحــق والمأمون غدراً
وليس بمفــلح أبداً غــدور

هو العــدل النجيب البر فينا
تضمــن حبه منا الصــدور

وعاقبة الأمور لــه يقينــا
به شهد الشريعة والزبور(١)

أما في الجانب الآخر : جانب الأمين ، فقد كانت الضربة شديدة عليه فلم يدر ما يصنع إلا أن يمعن في تحديه للمأمون فصادر أمواله وضياعه وغلاته . وضمها إلى نفســه(٢) ، وأرسل إلى زوجته أم عيسى المقيمة في بغــداد فطلب ما عندها من جوهر ، فلما امتنعت هجم على منزلها وانتهب كل ما فيه وأخذ كل ما لديها من جوهر(٣). ثم سارع بإرسال جيش آخر يبلغ عشرين ألفاً بقيادة عبد الرحمن الإبناوى ، لم يكن حظه خيراً من حظ سابقه،وقتل عبد الرحمن أيضاً بعد أن أبى الفرار وظل يقاتل في شجاعة وبطولة ، ويحمس جنوده العرب مشيراً إلى أعدائه قائلا : « إنهم لعجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر » ، وقد رثاه الشعراء أحر رثاء لبطولته وثباته ، فمن ذلك قول القائل :

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠٤ .
(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣ .
(٣) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٦٦ .

ألا إنما تبـكى العيون لفـارس
نفى العـار عنـه بالمناصـل والقنا
يجـلى غبـار الموت عن صحن وجهه
وقد أحرز العليا من المجـد واقتـنى
فـتى لا يبـالى إن دنا من مـروة
أصاب مصون النفس أو ضيع الغـنى
يقيم لأطـراف الذوابل سـوقها
ولا يرهب الموت المتـاح إذا دنا (١)

وقبل أن يصل جيش عبد الرحمن ويقتتل مع طاهر ، كان طاهر قد فرغ لتوه من جيش آخر للأمين ، كان عبارة عن فلول جيش على ابن عيسى جمعها ابنه يحيى بعد انقضاء المعركة، وحاول أن يصنع شيئاً إلا أن طاهراً حصره فى همذان واضطره إلى طلب الأمان .

وكان يحدث ذلك كله والأمين لا يغير شيئاً من أسلوب حياته، وكأنه لم يكن يرى فى هذه الحرب التى يخوضها معركة مصير ، بل مناوشة سرعان ما ينتهى أمرها ، تحتاج إلى مال من السهل تدبيره، وإلى رجال يسوقهم للموت وما أكثرهم ، أما هو فيتشاغل بعبثه « ينام نوم الظربان لا يفكر فى زوال نعمة ، ولا يروى فى إمضاء رأى ولا مكيدة ،

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٦ .

قد ألهته كأسه وشغله قدحه ، فهو يجرى فى لهوه والأيام تضرع فى هـــلاكه » (١) .

بل يروى الطبرى أن الأمين لما جاءه نعى على بن عيسى ، كان على الشط يصيد السمك ، فقال للذى أخبره : ويلك دعنى فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وانا ما أصطدت شيئاً بعد (٢) .

وقد شجع انتصارجيوش المأمون جند أخيه على القيام بثورة ضده، ولكنه استطاع تهدئتهم بتفريق الأموال فيهم ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الشعراء من السخرية به وبمجونه وشذوذه ، وبولى عهده ووزيره ومستشاريه ، يقول الشـــاعر :

أضـــاع الخـــلافة غش الوزيـــر
وفســـق الإمـــام وجهـــل المشـــير

ففضـــل وزيـــر وبكر مشـــير
يريـــدان ما فيـــه حتف الأمـــير

ومـــا ذاك إلا طـــريق غـــــرور
وشـــر المســـالك طـــرق الغرور

(١) هذا ما وصفه به وزيره الفضل بن الربيع (الطبرى ١٠ : ١٥٧) والظربان دويبة يبدو أنها تنام كثيرا .
(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٤ وكوثر غلام للأمين كان متهما به

وأعجب من ذا وذا أننا
نبايع للطفل فينا الصغير

ومن ليس يحسن غسل استه
ولم يخل متنه من حجر ظير[1]

وأحس المأمون بعد انتصاره الثالث على جيوش الأمين استقراراً وأمناً بفضل سياسة وزيره الداهية ، بل لقد أحس هذا الاستقرار والأمن منذ انتصار طاهر على جيش على بن عيسى الذى كان يمثل معظم قوة الأمين العسكرية ، ولهذا نراه يدخل المسجد فى مرو فيصعد المنبر ويحمد الله ، ويثنى عليه ويصلى على رسوله . ثم يخاطب الناس فى شبه عهد مؤكد وميثاق يستهل به خلافته ، ويشرح فيه أسس سياسته فيقول : « أيها الناس إنى جعلت لله على نفسى إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ولاأسفك دماً عمداً لاتحله حدوده، ولاتسفكه فرائضه. ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى إلاما كان فى الله لـه ، جعلت ذلك كله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً ، أن أفى رغبة فى زيادته إياى فى نعمى ، ورهبة من مساءلته إياى عن حقه وخلقه، فإن غيرت أو بدلت كنت

(١) المصدر نفسه ١٠ : ١٤٣ وفضل يقصد الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر . والظئر المرضعة .

للعبر مستأهلا . وللنكال متعرضاً ، وأعوذ بالله من سخطه . وأرغب اليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته[1] .

وشعر المأمون أنه مدين بهذا النصر العظيم للفضل بن سهل فأراد مكافأته فعقد لـــه على الشرق من جبل همذان إلى جبل سقينان والتبت طولا . ومن بحر فارس والهند إلى بحر الديلم وجرحان عرضاً ،وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين، وأعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين : رئاسة الحرب ورئاسة التدبير ، ويبدو أن المأمون لم يكتف بذلك فقد كان يحس أنه مغمور بمعروف الفضل بن سهل وبعد نظره . فكتب له كتاباً سماه « كتاب الشرط والحباء » . يصف فيه طاعته ونصيحته وعظته وعنايته ، وذهابه بنفسه عن الدنيا . وارتفاعه عما بذل من الأموال والقطائع والجوهر والعقد ، ويشرط له على نفسه كلما يسأل ويطلب لا يدفعه ولا يمنعه . ووقع فيه المأمون بخطه وأشهد على نفســه ! » .

وهذا الكتاب الذى أشار إليه اليعقوبى على جانب كبير من الأهمية، لأنه يفسر لنا استئثار الفضل بن سهل بالسلطة دون المأمون ، حتى كاد الأمر يخرج من يده تماماً.ومن محاسن الصدف أن الجهشيارى ذكر لنا نص هذا الكتاب وهو يقول فيه :« أغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك

(١) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ٣ : ١٧٩ .

إياى على طاعة الله . وإقامة سلطانى ، فرأيت أن أغنيك وسبقت الناس . من الحاضر كان لى ، والغائب كان عنى ، فأحببت أن أسبق إلى الكتاب بخطى . بما رأيته على نفسى ، وأنا أسأل الله تمامه ، فإن حولى وقوتى ومقدرتى وقبضى وبسطى به ، لا شريك لـه ، وقد أقطعتك السيب بأرض العراق على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين ، عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ، ولما قمت به من حق الله وحقى . فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ، ما لزمت ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولى بقيامها . وجعلت ذلك كله بشهادة الله وجعلته لك كفيلا على عهدى . وكتبت بخطى سنة ست وتسعين ومئة »[1] :

والمأمون بتسليمه الفضل كل السلطات معذور أشد العذر ، فالفضل شخصية قوية طاغية ، ولولاه لأسلم المأمون نفسه للأمين ، فهو جدير بالثقة من ناحية ولائه للمأمون ، كما أنه جدير بالثقة من نواح أخرى ، فقد كان نزيها عن أموال الرعية كما وصفه المأمون بحق ، وحينما قتل لم يوجد له مال ولا ضيعة ولا فرس ولا آنية يعتد بها ، وكل ما وجد فى ميراثه خمسة أعبد وفرس وبرذون وكان الفضل يحس أنه غنى بجاهه ونفوذه ، فقد قال له أحد جلسائه يوماً : « أيها الأمير لو أمرت أن يتخذ

(١) الوزراء والكتاب : ٣٠٧ .

لك ضياع وعقد ، فقال ولم ويحك ؟ إن دام ما أنا فيه فالدنيا ضيعتى وعقدى(١) ، يضاف إلى ذلك أنه لم يكن رجلا تتحكم فيه الشهوة أو تأسره اللذة ، فهو لم يبح لنفسه النبيذ الذى أباحه العراقيون بصفة عامة استناداً إلى تفسير لأبى حنيفة، بل كان يحرمه ويحظر شربه ويأمر بعقوبة شاربه(٢) ، وإذا صح ما روى من أن المأمون جهد بالفضل أن يزوجه بعض بناته فأبى(٣) ، لكان فى ذلك دلالة على قوته النفسية، وعدم انسياقه وراء العواطف أو المظاهر .

وظل الفضل فى مرو يقود المعركة السياسية ضد الأمين ، بينما قائد المأمون العظيم طاهر بن الحسين يكتسح المدن والكور التى تخلفها وراءها جيوش الأمين المنكسرة . ولم يكن جهد طاهر فى إقامة دولة المأمون أقل من جهد الفضل ، فقد تحمل عبء القيادة العسكرية منذ البداية ، فى الوقت الذى جبن فيه معظم قواد المأمون عن تحملها ، وطاهر كالفضل من أصل فارسى ، فقد ذكر المسعودى نسبه فقال : طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن حمزة الرستمى من ولد رستم بن دستان الشديد ، وهم موالى خزاعة فى الإسلام ، وإليهم ينتمون(٤) . ويقول محمد الخضرى إن جد طاهر كان مولى طلحة بن عبيد الله المعروف .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٨٠ .
(٢) الوزراء والكتاب : ٣٠٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٠٧ .
(٤) التنبيه والاشراف : ٣٤٧ .

بطلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، ويغلب على الظن أنه مولى إسلام ، أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته ، ولذلك كان يقال له الخزاعى[1] .

وبعد أن انتصر طاهر على جيوش الأمين فى ثلاثة مواقع، برغم ضخامتها ووفرة عدتها ، زادت ثقته بنفسه ، فانطلق يحوز المدن ويضمها إلى ملك المأمون .ولكن الأمين لم يكن قد ألقى سلاحه بعد،لقد بعث إلى أسد بن يزيد بن مزيد ليقود جيشاً جديداً ضد المأمون. فاشترط أسد شروطاً قاسية بالنسبة لاختيار الجند وما يقدم لهم من عطاء جزيل يوازى عطاء سنتين ، كما طلب ألا يحاسب عما يفتتحه من المدن والكور، ووافق الأمين مرغماً على هـذه الشروط جميعاً ، إلا أنه حمى غضباً حين طلب أسد أن يدفع إليه ابنا المأمون ليكونا أسيرين فى يده حتى يعطى أبوهما الطاعة ،فإن أبى ينفذ فيهما أمره ، وصاح الأمين بأسد بن يزيد — وهذا موقف يحمدله » : أنت أعرابى مجنون ، أدعوك إلى ولاء أعنة العرب والعجم ، وأطعمك خراج كور الجبال إلى خراسان ، وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك ، وتدعونى إلى قتل ولدى وسفك دماء أهل بيتى ، إن هذا للخرق والتخليط[2] » .

وهذا الموقف النبيل الذى وقفه الأمين يتفق مع ما طلبه إلى على بن

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية : ٢٠٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٨ .

عيسى – حين كان واثقاً بالنصر– ألا يؤذى أخاه المأمون ، وأن يأتى به أسيراً .

وبدلا من أن يبعث الأمين بأسدبن يزيد قائداً ألقى به فى السجن ، واختارأخاه أحمد بن يزيد لقيادة الجيش الجديد الذى تألف من عشرين ألف رجل من الأعراب ، كما عززه بجيش من الأنبار فى مثل هذا العدد يقوده عبد الله بن حميد بن قحطبة . وزحف الجيشان إلى طاهر ، فاستعظم قوتهما ، ولكنه لم يلبث أن استخدم الأساليب السياسية فى تبديد شمل هذه القوة ، فدس الجواسيس يبثون الأراجيف أن الأمين قد أنقص عطاءهم ، حتى وقع الخلاف فى صفوف جيش الأمين. وقاتل الجند بعضهم بعضاً ، ورجعوا دون أن يقاتلوا طاهراً [١] .

وكان لا بد للأمين أن يرسل جيشاً آخر بعد أن عظم أمر طاهر وعظم أمر سيده المأمون ، فأشار عليه عبد الملك بن صالح – وكان والياًعلى الشام فى عهد الرشيد – بأنيعد جيشاً من أبناء الشام هذه المرة، لأن جند العراق خوفتهم الهزائم المتلاحقة وأضعفتهم الحرب وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم . فاستجاب الأمين لرأيه. وولاه الشام والجزيرة، واستحثه على الخروج لملاقاة المأمون. ولم يقدر لهذا الجيش أن يخرج من الشام ، إذ نشبت بين جنوده معارك قبلية،فقتل بعضهم بعضاً ، ومالبث أن توفى عبد الملك بن صالح نفسه،وإلى هنا كان الضيق قد بلغ

(١) المصدر نفسه ١٠ : ١٦٠ .

مداه بأهل العراق عامة ، وأهل بغداد بصفة خاصة ، فدبروا انقلاباً للإطاحة بخلافة الأمين ، واستطاعوا القبض عليه وسجنه ، وأخذوا عليه البيعة لأخيه المأمون . ومن العجيب أن مدبر هذا الانقلاب الذى أراد أن يصرف الخلافة إلى المأمون هو الحسين ابن أول قائد لجيوش الأمين ضد المأمون على بن عيسى الذى قتل فى المعركة ، ولم يستمر نجاح هذا الانقــلاب أكثر من يومين ، استطاع بعدهما أنصار الأمين فك أسره وإخماد الفتنة .

وفى غمرة هــذا الاضطراب الذى كان يسود بغداد عاصمة خلافة لأمين ، كان طاهر يمضى فى طريقه من حلوان إلى الأهواز ، فيستولى عليها ، وينفذ عماله فى كورها ، ويولى على اليمامة والبحرين وعمان عمالا من قبله . ثم يتوجه إلى مدينة واسط ، وعمال الأمين يهرولون من وجهه ، بل إن أحدهم لا يجد عاراً فى ذلك فهو يقول لتابعــه : « قرب فرس الهرب فإنه طاهر ، ولا عار علينا فى الهرب منه »[1] .

وأرسل طاهر أحد قواده فاستولى على الكوفة ، وسرعان ما جاءه كتاب من عامل الأمين على البصرة يقرفيه بخلع الأمين ، وكذلك فعل عامل الموصل ، وتبعهما بعد ذلك عامل الأمين على مكة والمدينة ، وحين أقبل موسم الحج دعى للمأمون بالخلافة فيه لأول مرة بدلا من الأمين وكان يتولى الموسم العباس بن موسى بن عيسى من قبل المأمون .

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٨ .

وعند ما اقترب طاهر من بغداد انشق عليه عدد كبير من جنوده يبلغ نحو خمسة آلاف ، ملوا عنف المعارك وطمعوا فى صلات الأمين وعطاياه ، ويبدو أن رجال الأمين استطاعوا استمالتهم من هذه الناحية، فسر الأمين بانضمامهم إليه بعد أن سقطت أجزاء الدولة فى أيدى رجال المأمون، وأصبح الأمين محصوراً فى مدينة بغداد فحسب ، ولهذا فرق فى هؤلاء المارقين عن جيش طاهر أموالا عظيمة ، وقود رجالا منهم وغلف لحاهم بالغالية بينما لم يعط قواده شيئاً، واستطاع جواسيس طاهر أن ينقلوا إليه ذلك الخبر ، فراسلهم ووعدهم، واستمالهم وأغرى أصاغرهم بأكابرهم ،فشغبوا على محمد ، ولحق كثير منهم بطاهر ، ولم يفلح «قواد الغالية» كما سماهم أهل بغداد ، فى قمع ثورتهم واضطرابهم ففسد الأمن وخرج أهل السجون، وسادت الفوضى ، وأصبح لا أمل لأهل بغداد إلا دخول طاهر إليهم ، ليستتب الأمن والنظام فى مدينتهم، وقد عبر عن ذلك شاعرهم ، فقال :

قل للأمين الله فى نفسه
ما شتت الجند سوى الغالية

وطاهر نفسى تقى طاهراً
برسله والعدة الطافية

أضحى زمام الملك فى كفه
مقاتلا للفئة الباغية

يا ناكثاً أسلمه نكثه
عيوبه من خبثه فاشيه
قد جاءك الليث بشداته
مستكلباً فى أسد ضارية
فاهرب ولا مهرب من مثله
إلا إلى النار أو الهاوية (١)

ولم يحس الشعب وحده وطأة هذا الخلاف ، بل أحسه الأمراء العباسيون أنفسهم . وقد ظلوا محايدين لا ينحازون إلى فريق دون الآخر ، فلما امتد النزاع واستمر أكثر من عامين ، لم يجدوا بداً من اتخاذ جانب ، فمال معظمهم إلى المأمون ، فلحق به أخوه القاسم ومنصور بن المهدى عام سبع وتسعين ومائة (٢) . وفى السنة ذاتها تم لطاهر بمعونة القائد العربى العظيم هرثمة بن أعين حصار بغداد ، وضاق الخناق على الأمين فأنفق كل ما لديه من مال ، ثم اضطر أن يبيع مافى خزائنه من أمتعة ، كما أخرج آنية الذهب والفضة وضربها دنانير ودراهم لينفق منها على حربه اليائسة .

وإنا لنستشعر يأس الأمين القاتل وندمه الشديد على كل ما بدر منه فى آخر خطبة له قبل مقتله بأيام ، وقد نفث فيها كل ما كان

---

(١) المصدر نفسه ١٠ : ١٧٣ .
(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٧٤ .

يعتمل فى صدره من ضيق ، ولم يتحـــرج فى كشف غفــلته وسوء تقديره وانقياده لوزيره الفضل بن الربيع[١] .

وبذل الفريقان جهدهما فى تقريب يـــوم الانتصار ، ولم يباليا بأرواح الناس وأرزاقهم ودورهم فى بغداد . فعم القتل والتخريب والدمار ، وعاث الأوباش والرعاع واللصوص ، وكان البغدادى الذى يجد سبيلا للهجرة هو السعيد فى تلك الأيام . واضطر الأمين إلى اصطناع السفلة والأوباش ، فكان الناس إذا تخلصوا من أيديهم ووصـــلوا إلى جانب طاهر ، ذهب عنهم الروع وأمنوا وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع وبز[٢] . وما ذاك إلا لأن جيش طاهر نظامى ، وكانت أوامره صريحة بحفظ الضعفاء والنساء ، أما جيش الأمين فكان فلولا مبعثرة يدخل فيها كل طامع أثيم . بل نجـــد الأمين بعد انتصار قواته على جيش طاهر لأول مرة فى وقعة قصر صالح ، يقبل على اللهو والشراب ، ويكل أمره كله إلى محمد بن عيسى بن نهيك والى الحرش ، وهم اللصوص والفساق الذين كانوا يسلبون ما يقدرون عليه من الناس . ولكن هؤلاء السفلة الأوباش ظهر فيهم شجعان ومقـــاتلون خطرون ، استهان بهم أحد فرسان جيش طاهر حين رآهم عرايا لا سلاح معهم ولا عدة ، ولا جنة تقيهم فأوتر قوسه وتقدم فأبصره بعضهم وتحت

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٨٢ .

إبطه مخلاة فيها حجارة، وفى يده بارية قصيرة[1]، فجعل الخراسانى كلما رمى بسهم استتر منه الرجل ، فوقع فى باريته أو قريباً منه ، فيأخذه فيجعله فى موضع من باريته وهو يصيح : رانق أى ثمن النشابة رانق قد أحرزه ، ولم تزل تلك حال الخراسانى حتى أنفذ سهامه ثم حمل على الرجل ليضربه بسيفه ، فأخرج من مخلاته حجراً فجعله فى مقلاع ورماه فما أخطأ به عين الفارس ، ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا هروبه من وجهه ، **وقد وصف أحد شعراء بغداد هذه الفئة من المقاتلين فقال :**

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطانها ولا لـنزار

معشرا فى جواشن الصوف يغدو ن إلى الحرب كالأسود الضوارى

وعليهم مغافر الخوص تجز يهم عن البيض والتراس البوارى

ليس يدرون ما الفرار إذا الأ بطال عاذوا من القنا بالفرار

واحد منهم يشد علـى ألـ فين عريان ماله من إزار

ويقـول الفتى إذا طعن الطع نـة خذها من الفتى العيـار

كم شريف قد أخملته وكم قد رفعت من مقامـر طرار[2]

وبذل طاهر مابوسعه لإنهاء الحرب ، فهدم الدور وحرقها ، ومنع

(١) البارية : حصير .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٨٣

الزاد عن المدينة ، وضيق عليها أشد الضيق، وكانت له فى كل يوم معركة حامية مع قوات الأمين . وقد صور لنا شعراء الشعب فى تلك الفترة — وخاصة عمرو بن عبد الملك الوراق — كل هذه الوقائع فى شعرهم بحيث يمكن أن تكون لوحات فنية معبرة عن يوميات الحرب منسوبة إلى أماكنها أو إلى أيامها : وقعة درب الحجارة ، وقعة الكناسة ، وقعة باب الشماسية ، وقعة يوم الأحد ، وقعة يوم الاثنين وهكذا .

وبعد أشهر طويلة من القتال العنيف الذى لا يعرف هوادة ولا رحمة ، وبعد أن تفرق عن الأمين معظم قواده وجنده ، حتى صاحب شرطته، استقر رأيه على الفرار من المدينة، من ناحية هرثمة بن أعين القائد العربى ، وخاف أن يخرج من ناحية طاهر حتى لا يقع فى يده ، ولكن طاهرا كمن له حتى صار فى حراقته، فرماها جنده بالسهام والحجارة فغرقت ، وسبح الأمين حتى وصل إلى الشاطئ ، فتلقاه جند طاهر الذى لم يلبث أن أمر بقتله. وقد بعث طاهر برسالة مطولة إلى المأمون شرح فيها كل الظروف المحيطة بانتهاء حرب بغداد والتى أدت إلى قتل الأمين (١) . وقد أبان فى هذه الرسالة بوضوح اختلافه مع القائد العربى هرثمة بن أعين الذى كان من رأيه تخلية سبيل الأمين، وهو يعلل تشدده فى رفض ذلك بأنه لا يريد أن يثير الأمين فتنة من جديد، ثم يدعى طاهر أن مواليه هم الذين قتلوا

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٣ - ٢٠٥ .

الأمين تقربا منهم إلى المأمون(وتناولوه بسيافهم منازعة فيه وتشاحنا عليه)، ثم يعلل تمثيله به ووضعه رأسه على أحد أبواب بغداد بقوله (فلما أصبحت هاج الناس واختلفوا فى المخلوع فمصدق بقتله ومكذب، وشاك وموقن ، فرأيت أن أطرح عنهم الشبهة فى أمره ، فمضيت برأسه لينظروا إليه فيصبح بعينهم) .

وقد نقل لنا الطبرى وصفا تفصيليا مؤثر المقتل الأمين نقلا عن شهود عيان فقال: لما تهيأ الأمين للخروج وكان بعد العشاء، خرج إلى صحن القصر فقعد على كرسى وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود، ثم دعا بابنيه فضمهما إليه وشمهما وقبلهما وقال : أستودعكما الله ، ودمعت عيناه ، وجعل يمسح دموعه بكمه، ثم قام فوثب على فرس له.. فلما خرج من باب خراسان وجد حراقة هرثمة، فنزل إليها فقام من فيها على أرجلهم إعظاما ، وجثا هرثمة على ركبتيه وقال له : ياسيدى ماأقدر على القيام لمكان النقرس الذى بى ، ثم احتضنه وصيره فى حجره، ثم جعل يقبل يديه ورجليه وعينيه ويقول : ياسيدى ومولاى وابن سيدى ومولاى.. ثم أمر هرثمة بالحراقة أن تدفع . وعندئذ شد عليهم أصحاب طاهر فى الزواريق ، وتعلقوا بالسكان ، بعضهم يقطعه ، وبعضهم ينقب الحراقة ، وبعض يرمى بالآجر والنشاب حتى نقبت ودخلها الماء فغرقت .. ومالإن سبح الأمين ووصل إلى الشاطئ حتى تلقفه رجال طاهر فأخذوه إلى بيت أبى صالح الكاتب . ويحكى لنا ماحدث هناك أحمد بن سلام صاحب المظالم الذى كان فى الحراقة وأسر على الشاطئ وأخذ إلى البيت نفسه قبل

الأمين ، قال إنه سمع حركة خيل ودق الباب ففتح فدخل جماعة وهم يقولون : يسر زبيدة : أى ابن زبيدة بالفارسية . فدخل الأمين عريان عليه سراويل وعمامة متلثم بها ، وعلى كتفيه خرقة خلقة ، ثم حسر العمامة عن جهه ، فلما عرف ابن سلام قال له : ادن منى وضمنى إليك فإنى أجد وحشة شديدة ، فضمه إليه فوجد قلبه يخفق خفقا شديدا ، فلما انتصف الليل أو قارب ، سمعت حركة خيل ودق الباب ففتح ، فدخل قوم من العجم بأيديهم السيوف مسللة ، فلما رآهم قام قائماً وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسى فى سبيل الله ، أما من حيلة ، أما من مغيث ؟ ثم أخذ بيده وسادة وجعل يقول : ويحكم إنى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى . فدخل عليه رجل منهم اسمه حمارويه فضربه بالسيف ضربة وقعت على مقدم رأسه ، فضرب محمد وجهه بالوسادة واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده ، فدخل جماعة فنخسه واحد منهم بالسيف فى خاصرته وركبوه فذبحوه ذبحا من قفاه ، وأخذوا رأسه فمضوا به إلى طاهر ، فنصبه على باب الأنبار فى بغداد ، ثم بعث به ومعه شارات الخلافة : البردة والقضيب والمصلى (وهو من سعف مبطن) إلى المأمون . فماذا كان موقف المأمون من مقتل أخيه الذى يقول الطبرى إن الفضل بن سهل دخل عليه برأس محمد على ترس بيده ، فلما رآه المأمون سجد . وسجوده — فى رأيى — كان تعبيرا عن شكره لله تعالى الذى آزره ونصره وهو المستضعف المظلوم المسلوب الحق . أما إنه

لم يحزن على قتل أخيه بهذه الصورة البشعة فهذا ماننفيه تماما . ولعل مما يصور ألمه قول الفضل بن سهل الذى نراه تعبيرا عما بنفس المأمون: مافعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألسنتهم أمرناه أن يبعث به أسيرا فبعث به عقيرا » . وما أمر به الفضل إنما كان من توجيه المأمون . ولهذا غضب المأمون على طاهر غضبة عنيفة ، وولى كل ما كان افتتحه من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن الحسن ابن سهل أخا الفضل . ولم تصف له نفسه بعد ذلك قط ، بل يروى أنه أوعز إلى غلام له بمرافقة طاهر فى ولايته خراسان حتى إذا صادف غرة منه دس له السم . ونحن وإن كنا نستبعد أن يفعل المأمون ذلك ، إلا أننا نؤمن بكراهيته الشديدة له إزاء ما فعله بأخيه ، ولكن يد طاهر العظمى فى بناء دولة المأمون جعلته يتغاضى عن كرهه له فى الظاهر ، ويذكر ابن طيفور أن المأمون قال لطاهر : أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة لست أنا ولا أنت رابعهم ولا خامسهم وهم : الفضل بن الربيع ، وبكر بن المعتمر ، والسندى بن شاهك ، هم والله ثأر أخى وعندهم دمه . ولكنه فى موطن آخر بكى حين دخل عليه طاهر ، فما عرف أحد سر بكائه ، وجهد طاهر أن يعرف السر ، فأعزى خادم المأمون بمال كثير حتى استطاع أن يعرف سر هذا البكاء إذ قال المأمون « إنى ذكرت محمدا أخى وما ناله من الذلة فخنقتنى العبرة فاسترحت إلى الإفاضة ولن يفوت طاهرا منى مايكره »(١) ويبدو أن طاهراً أحس كراهية المأمون له فدبر فى نفسه أمرا، ذلك أنه

(١) كتاب بغداد : ٢٤ .

صعد المنبر يوم الجمعة فخطب فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له ولم تمض عليه هذه الليلة حتى كان قد مات ، ولهذا اتهم المأمون بتدبير موته — وهذا بعيد عندى — وإن كان قد أظهر شماتته حين بلغه نعيه فقال: « لليدين وللفم ، الحمد لله الذى قدمه وأخرنا » (١) . وحين وصلت إلى المأمون أبيات إبراهيم بن المهدى فى رثاء الأمين ، أشتد حزنه وألمه وغضبه على طاهر ، **إذ جسم له إبراهيم بن المهدى بشاعة مقتل أخيه حين قال :**

عوجـاً بمغـنى طـلل دائر
بالخـلد ذات الصـخر والآجر

والمرمر المسنون يطـلى بـه
والبـاب باب الذهب الناضـر

عوجا بهـا فاستيقنا عنـدها
على يقـين قـدرة القـادر

وأبلغـا عنى مقـالا إلى الـ
مولى على المـأمور والآمـر

قـولا لـه يا ابن ولى الهـدى
طهـر بـلاد الله من طـاهـر

لم يكفـه أن حـز أوداجـه
ذبح الهـدايا بمـدى الجـازر

---

(١) كتاب بغداد : ٢٢ .

حتى أتى يسحب أوصاله

في شطن يفنى مدى الشابر

قد برد الموت على جنبه

وطرفه منكسر الناظر [1]

وقد كثرت المراثي في الأمين من شعرائه المقربين مثل الحسين بن الصحاك ، ومن زوجته لبابة بنت على بن المهدى التي لم يكن قد دخل بها بعد[2] . كما كثرت فيه الأهاجي أيضاً .

والواقع أن مقتل الأمين بيد طاهر ومواليه الأعاجم لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه حادث فردى عابر ، بل هو جزء من قضية أساسية هي قضية الصراع بين العرب والأعاجم ، فقد رأينا كيف أن قائد الأمين كان يصيح في جنوده ويقول لهم : « إنهم لعجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر » ، فكأن الأمين كان يمثل جانب العرب في حربه ضد أخيه الذى يمثل جانب العجم ، والظروف التي وضع فيها الاثنان كانت تحتم أن يحدث هذا الصدام بين العرب والعجم على الرغم منهما ، فالمأمون في قلب بلاد العجم ، ووزراؤه ومستشاروه كلهم من العجم ، ولابد أن قواده وجنوده سوف يكونون منهم إلا القليل

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٥ الشطن : الحبل ، الشابر الذى يقيس بالشبر وهو يعنى الحبل الطويل .

(٢) المصدر نفسه ١٠ : ٢٠٣ .

ممن لزمه أو لجأ إليه مثل هرثمة بن أعين . ولكن إذا كان المأمون قد وجد فى هــذا الموقف اضطراراً فإن وزيره الفضل بن سهل قد استغل هــذا الموقف استغلالا كاملا متعمداً لصالح العجم ضد المصالح العربية . وقد استطاع أن يسيطر على المأمون سيطرة كاملة حتى قيل إنه قد أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالرأى دونه (١) .

وعلى الرغم من استقرار الخلافة للمأمون بعد مقتل أخيه وبقائه سيد الامبراطورية الأوحد كما يقول بروكلمن (٢) إلا أنه ظل فى مكانه بمــرو بتدبير الفضل بن سهل قرابة خمس سنوات، وكان الفضل يرمى من وراء ذلك إلى نقل مركز الخلافة الإسلامية من العراق إلى خراسان ، واختيار مرو عاصمة للخلافة، وبذلك يحس الأعاجم من الفرس بعودة دولتهم إليهم ، وكان الفضل يصنع صنيع وزراء الفرس الأقدمين ، فقد هيأ كرسياً مجنحاً كان يحمل فيه إذا دخل على المأمون، فــلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فيوضع الكرسى وينزل عنه فيمشى ، ثم يحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، فيسلم الفضل عليه ويعود فيجلس على كرسيه . ويقول الجهشيارى :

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٢٧ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ : ٣٣ .

وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك مذهب الأكاسرة ، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل فى مثل ذلك الكرسى ويقعد بين أيديها عليه (١) .

وكان من نتيجة بقاء المأمون بعيداً عن مركز الخلافة الأصلى فى بغداد أن كثر الطامعون فى الخلافة الخارجون عليها ، الكارهون لحكم الفضل بن سهل وجماعته من الفرس ، حتى إنه أوعز إلى المأمون بأن يعين أخاه الحسن بن سهل مكان طاهر بن الحسين — كما سبق أن أشرنا — و يبعد طاهراً فيوليه على الموصل والجزيرة والشام والمغرب ، ثم يندبه لقتال نصر بن شبث أول الخارجين على دولة المأمون ، وهو من بنى عقيل ، كان عربياً شريفاً شهماً ، رأى فى قتل الأمين انتصاراً للفرس على العرب فغضب لذلك ، وخاصة لما رآه من ميل المأمون للأعاجم ووقوعه فى أيديهم ، ولما قوى أمره بانضمام كثير من العرب الناقمين إليه ، قال له بعض مستشاريه ، لو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك ، فقال من أى الناس؟ فقالوا : نبايع لبعض آل على بن أبى طالب ، فقال: أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول إنه خلقنى ورزقنى ! — يشير إلى المعتقدات الفارسية التى دخلت التشيع — قالوا: فنبايع لبعض بنى أمية ، قال : أولئك قوم قد أدبر أمرهم ، والمدبر لا يقبل أبداً ، ولو سلم على رجل مدبر لأعدانى إدباره ، وإنما هواى فى بنى العباس ، وإنما حاربتهم

---

(١) الوزراء والكتاب : ٣١٣ .

محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم[1] ، وهكذا كانت أولى الثورات ضد المأمون ثورة عربية ضد النفوذ الفارسى الذى يؤرث ناره الفضل بن سهل .

وما لبث أن ثار على حكم المأمون المغلوب على أمره محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا ، ثار بالكوفة يدعو إلى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة . ويشير الطبرى إلى سبب ثورته الحقيقى فيقول إن غلبة الفضل بن سهل على المأمون وتعيين الحسن بن سهل والياً على العراق قد أثارت الفتن فى الأمصار . واستطاع ابن طباطبا أن يهزم الجيش الذى قاده الحسن بن سهل ، ولكنه ما لبث أن مات فجأة ، فانتهت ثورته بموته ، ولكن ما لبث أن أحياها أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى ، وهو من رجال هرثمة بن أعين ، يقال إنه مطله بأرزاقه فغضب أبو السرايا ومضى إلى الكوفة فبايع ابن طباطبا وأخذ الكوفة واستوثق أهلها له بالطاعة ، فلما مات ابن طباطبا ، ظل أبو السرايا يقاتل جيوش المأمون التى يعدها الحسن بن سهل ، وينتصر عليها ، حتى أرسل له المأمون هرثمة بن أعين فقضى عليه .

ولم يكد هرثمة يفرغ من قتال أبى السرايا حتى ندب لقتال محمد ابن محمد العلوى الذى هجم على دور بنى العباس بالكوفة ودور مواليهم وأتباعهم ، فخربها وانتهبها ، واستطاع هرثمة أن يعيد السكينة والأمن

---

(١) ابن خلدون ٣ : ٢٥٢ .

إلى المدينة المنكوبة ، وما برح مكانه حتى أتته كتب المأمون بتوليه الشام أو الحجاز ، ولكنه كان يحس أن المأمون أسير الفضل بن سهل ، ليست له حرية التصرف فى شىء ، وأن الفضل يريد أن يصرف الخلافة إلى الأعاجم فأبى أن يذهب إلى ولايته قبل أن يلقى المأمون ليبصره بأسباب هذه الثوارت المتلاحقة ضد حكمه منذ قتل الأمين ، ويطلب إليه الانتقال إلى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ويكبح الطامعين ، وهنا يظهر الفضل بن سهل حقيقة نواياه ، فاستئثاره بالسلطة دون المأمون يجعله يبعد المزاحمين الأقوياء مثل طاهر بن الحسين أو هرثمة بن أعين ، ولكن إذا فكر أحدهم فى الاقتراب من المأمون لإفساد تدبير الفضل — وخاصة من ناحية سيادة الأعاجم فى هذه الدولة دولة المأمون التى يصنعها على عينه فالويل له .

لقد دخل هرثمة إلى مرو كما أراد وخاف أن يحول الفضل بن سهل بينه وبين المأمون فدق الطبول عند دخوله المدينة وسرعان ما أوغر الفضل صدر المأمون عليه ، لقد صوره فى صورة المارق الذى يعادى دولة المأمون ، وأفهم الخليفة أن ثورة أبى السرايا كانت من تدبير هرثمة نفسه ، وأثبت له دليل عدائه بعدم استجابته لأمر الخليفة بالذهاب إلى الشام أو الحجاز ، وأبان له أن سبب قدومه عليه رغبته فى الخلاف والتهديد بالثورة [1] ، فلما دخل هرثمة على المأمون واجهه صراحة

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٣٦ .

بهذا الصراع الذى يدور ضد العرب بتدبير الفضل بن سهل ، وقال له : قدمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك [1] ، وأشار إلى الفضل قائلا : " الحمد لله الذى لم يمتنى حتى رأيت هذا المجوسى فى هذا المجلس على كرسى " [2] . ولما كان صدر المأمون موغراً بكلام الفضل لم يسمح لهرثمة بإطلاعه على حقائق الأمور ، وإنما كان اللقاء بينهما عاصفاً حاداً . واستشاط المأمون غضباً فأمر بهرثمة فوجىء على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ، ثم أمر بحبسه ، وما لبث أن قتل فى سجنه، لا ندرى هل كان ذلك بإذن من المأمون أو الفضل ، وإن كان الطبرى يقول إن الفضل دس إليه من قتله [3] .

وهكذا دفع القائد العظيم هرثمة حياته ثمناً لدفاعه عن العروبة وإخلاصه النصيحة للمأمون الذى زادت الثورات اشتعالا ضده ، فخرج إبراهيم ابن موسى باليمن، وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس. ثم بايع الطالبيون محمد بن جعفر بالخلافة ، وكان شيخاً زاهداً محبباً، فلما ارتكب جنوده المقابح والخطايا أعلن خلع نفسه والعودة للطاعة . وفى السنة ذاتها (سنة ٢٠٠هـ .) ثار بالبصرة زيد بن موسى المعروف بزيد النار لكثرة ما حرقه من دور العباسيين وأتباعهم فى البصرة .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٧٨ .

(٢) الوزراء والكتاب : ٣١٧ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٣٦ .

وبعد مقتل هرثمة ثار الجنود فى وجه الحسن بن سهل وطردوه من بغداد ، فلجأ إلى المدائن ثم ارتد إلى واسط بسبب ما هاج من الفتن ضده .

والحقيقة إن موقف المأمون من الصراع بين العرب والفرس لم يكن واضحا كل الوضوح فى هذه الفترة ، فعلى الرغم من غلبة الفضل بن سهل عليه إلا أن بعض العرب الذين كانوا حوله ، كانت تتمثل فيهم العصبية العربية،ولم يملك أحدهم نفسه وهو يحيى بن عامر بن إسماعيل الذى أغلظ للمأمون لوقوعه تحت تأثير الفرس ، فقال له : يا أمير الكافرين ! فأمر به المأمون فقتل بين يديه[1] .

أما عبد الله بن مالك الخزاعى فكان عربياً له مكانته منذ أيام المهدى والرشيد ، وكان يمثل الحزب العربى فى بطانة المأمون بمرو ، فناصبه آل سهل العداء وأخذوا يكيدون له عند المأمون حتى أمر به فحمل على ظهر جمل وضربت استه كما يضرب الصبيان! ، ومن العجيب أن الفضل ابن سهل الذى يدبر كل ذلك ويحرك المأمون لتنفيذ ما دبره، يظهر نفسه أمام المأمون بمظهر الناصح المشفق عليه لكثرة ما يتعقب العرب بالقتل ، وذلك حين أراد أن يقتل نعيم بن حازم ، فيذكره الفضل بما كان منه قائلا : « يا أمير المؤمنين إنك قتلت بالأمس هرثمة وقدره فى الناس قدره وأظهرت موته،وقد تيقن الناس قتلك إياه ، وضربت عنق يحيى بن عامر صبراً ،وأمرت بحمل عبد الله بن مالك وضربت

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٣٨ .

اســته كما يضرب الصبيــان » [1] .

ويبدو أن المأمون قد وقر فى نفسه ـ بتأثير الأعاجم بطبيعة الحال ـ أن العرب ليسوا أهل طاعة وولاء، ويتضح هذا من حديث رواه الطبرى أن رجلا تعرض للمأمون بالشام فقال له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان، فقال : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى فى بيت مالى درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر . ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً ، اعزب فعل الله بك [2] .

وتأكيداً لسيادة الفرس واستئثارهم بالسلطان ـ والمأمون بينهم فى مرو ـ استطاع الفضل بن سهل أن يميل قلب المأمون إلى العلويين . واستغل فيما يبدو ثوراتهم المتلاحقة ضد المأمون سلاحاً للتأثير عليه ليقبلهم كأولياء فيكف أيديهم عن حربه، والعلاقة بين الفرس والشيعة علاقة قديمة ، إذ وجد الفرس فى الحزب الشيعى فرصة لهم للقضاء على الحكم الأموى المتعصب لعروبته . ومنفذاً لتحقيق فكرتهم الأصيلة عن الإمامة واتصالها الوثيق بالألوهية والنبوة . فاستمالة المأمون إلى جانب

---

(١) الوزراء والكتاب : ٣١٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٦ .

العلويين إنما هو تأكيد لإخلاصه التام للأعاجم . وتختلف الآراء بالنسبة لموقف المأمون من العلويين . فمن قائل إنه كان شديد الميل إليهم طبعاً لا تكلفاً ، ويدللون على ذلك بأنه كان يحرص على حضور جنائز رؤسائهم كيحيى بن الحسين بن زيد الذى صلى عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، على حين أنه أرسل أخاه صالحاً لينوب عنه فى جنازة أحد العباسيين الأقرباء ، وقد مات بعد يحيى بقليل ، فلما عزى صالح أم الفقيد وهى زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله ابن عباس ابنة عم المنصور – وكانت لها عند العباسيين هيبة ومنزلة واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه . ظهر غضبها .وقالت لحفيدها : تقدم فصل على أبيك ، وتمثلت بقول الشاعر :

سبكناه ونحسبه لجينا

فأبدى الكير عن خبث الحديد !

ثم قالت لصالح : قل له يا ابن مراجل : أما لو كان يحيى بن الحسين ابن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته ![1] .

وحين مات محمد بن جعفر – وكان قد أرسل إلى خراسان بعد خروجه على المأمون – دخل المأمون بين عمودى السرير فحمله حتى وضعه فى لحده وقال : هذه رحم مجفوة منذ مائتى سنة ، وقضى دينه وكان عليه نحو ثلاثين ألف دينار[2] .

---

(١) الكامل ٥ : ٢٣٠ .

(٢) مقاتل الطالبيين : ٣٥٣ .

ويرى بعض الباحثين أن المأمون كان يفضل على بن أبى طالب على غيره من الخلفاء الراشدين ، ويرى أنه أحق بالخلافة منهم ، ويرجعون هذا الاعتقاد إلى تأثير البيئة التى تربى فيها المأمون فإنه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل إلى الفضل بن سهل ، وكلاهما يضمر التشيع ، فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه [1] . ولهذا كان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم ، وظل على عقيدته تلك إلى آخر حياته بدليل ما جاء فى وصيته لأخيه المعتصم : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فأحسن صحبتهم . وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

ويمكن أن نفسر فى ضوء هذا الاعتقاد ما قاله المأمون لزينب بنت سليمان بن على التى كان العباسيون يعظمونها — كما أشرنا من قبل — حين سألته عما دعاه إلى نقل الخلافة من بيته إلى بيت على . قال : يا عمة إنى رأيت علياً حين ولى الخلافة أحسن إلى بنى العباس ، وما رأيت أحداً من أهل بيتى حين أفضى الأمر إليهم كافئوه على فعله فى ولده ، فأحببت أن أكافئه على إحسانه [2] .

---

(١) انظر محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية : ١٨١ .
(٢) الفخرى : ٣٠٢ .

والمأمون حين قال ذلك وحين كتب وصيته كان بعيداً عن تأثير الفضل بن سهل بعد أن قضى نحبه منذ زمن طويل ، ولكن لا يخلو اعتقاده مع ذلك من تأثير قديم صحب نشأته .

وقد يرى بعض الباحثين أن المأمون لم يكن يعتقد ما يقوله حقاً بدليل مناقشته لعلى بن موسى الرضا الذى اختاره لولاية عهده ، إذ قال له : بم تدعون هذا الأمر ، قال : بقرابة على من النبى صلى الله عليه وسلم ، وبقرابة فاطمة، فقال المأمون : إن لم يكن ها هنا شىء إلا القرابة ، فى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ، ومن هو فى القرابة مثله ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ، فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين . وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان واستولى على على ما لا يجب له [1] .

وما دام رأى المأمون كذلك فميله إلى العلويين إذن كان مجرد مناورة سياسية بارعة منه ، فهو يريد أن يحمل العلويين على الظهور لأن القوم كادوا يعدونهم من غير الطينة البشرية . فارتأى أنهم متى ظهروا من استتارهم للناس ، رأوهم مثل غيرهم ، فيهم الفاجر والطاهر ، فتنتهى المطالبة أو تخف ، وتحقن الدماء [2] .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٤٥ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية : ٤٣٠ .

وهذا الرأى الذى يبديه محمد كرد على منقول فى الحقيقة عن القفطى الذى يريد أن يثبت أن المأمون كان أعظم دهاء من الفضل بن سهل، فهو يقول إن المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على بن أبى طالب متخشين مختفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بنى العباس، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء، فظنوا بهم ما يظنونه بالأنبياء، ويتفوهون فى حقهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالى، فأراد معاقبة العامة [على هذا الفعل، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به. فنظر فى هذا الأمر نظراً دقيقاً. وقال لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم ولا نقلب شكرهم لهم ذماً، ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً، وإذن فالرأى أن نقدم أحدهم ويظهر لهم إماماً، فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة فى الآدميين. فيتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفى بالاختفاء. فإذا تحقق ذلك أزلت من أقمته، ورددت الأمر إلى حالته الأولى.

وقوى هذا الرأى عنده وكتم باطنه عن خواصه وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين على، واهتديا إلى الرضا، فأخذ الفضل فى تقرير ذلك وترتيبه وهو لايعلم باطن الأمر، وأخذ فى اختيار وقت لبيعة الرضا فاختار طالع السرطان وفيه المشترى. فأراد عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم أن يعلم نية المأمون فى هذه البيعة فأنفذ إليه رقعة قبل العقد مع ثقة من خدمه. قال فيها: إن هذه البيعة

فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقض لأسباب فلكية بينها ، فرد عليه المأمون: قد وقفت على ذلك ، أحسن الله جزاءك ، فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرئاستين على هذا ، فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له ، فهم ذو الرياستين بذلك، فما زال عبد الله بن نوبخت يصوب رأيه الأول حتى مضى أمر البيعة(١) .

وأعتقد أن هذه القصة موضوعة لتبرئة الفضل بن سهل من تهمة تحويل الخلافة إلى العلويين .

ويبدو لى أن المأمون قد تأثر بتعاليم المعتزلة وهو ما يزال فى مرو ، فكان رأيه فى الخلافة رأيهم أن تكون للأصلح لها فى المسلمين ، ولو كان من غير قريش ، ولهذا كان متحيراً فى اختيار ولى عهده ، وقد كانت مسألة الإمامة من أخص موضوعات الخصومة بين العرب والفرس التى كانت نفس المأمون مسرحا لها ، وقد جعلت الحيرة فى أمرها تجاذبه مجاذبة متصلة ذات اليمين وذات الشمال كما يقول الدكتور الحاجرى بحق (٢) ، ولهذا نراه يدعو العلماء إلى الكتابة فى أمر الإمامة ،وأن تحمل كتبهم إليه فى مرو ، وكان الجاحظ أحد الذين استجابوا له وأرسلوا كتبهم إليه .

ومن الواضح أن المأمون قد اقتنع بعدم صلاحية أخيه القاسم الملقب بالمؤتمن للخلافة . فأعلن خلعه منذ عام ١٩٨ هـ ، ولم يخالف بهذا الخلع

---

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء : ١٤٩ .

(٢) الجاحظ : ١٨٣ .

عهد الرشيد إذ جاء فيه (فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين، فالأمر إليه فى إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، يحكم فى ذلك بما أحب ورأى ، ويبدو أن الفضل بن سهل انتهز فرصة خلو ولاية العهد وحيرة المأمون فى اختيار الأصلح لها ، فزين له على بن موسى بن جعفر لفضله وورعه وعلمه فاختاره ولياً للعهد عا م ٢٠١ هـ . ، وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق طالباً أخذ البيعة لـه ، وغضب أهل بغداد لذلك وقالوا : إنما هذا دسيس من الفضل ابن سهل[١] ، واجتمع العباسيون فقر رأيهم على خلع المأمون ولكنهم اختلفوا على شخص الخليفة منهم فعرضوا الأمر على منصور بن المهدى ، فأبى وقال أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولى من أحب ، فبايع أهل بغداد لإبراهيم بن المهدى بالخلافة وسموه المبارك . وغلب إبراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسواد كله ، وعسكر بالمدائن ، وإبراهيم هو عم المأمون ولكنه كان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء اسمها شكلة ، وكان مع سواده عظيم الجثة ، ولهذا يقال لـه التنين [٢] .

وم ينر أهل بغداد فحسب على المأمون لصرفه الخلافة إلى العلويين

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٤٣ .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٩٠ .

بتأثير الفرس . بل نجد العرب فى خراسان يثورون أيضاً ولا يتحرج نعيم بن حازم أن يقول للفضل بن سهل فى حضرة المأمون: إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس إلى ولد على ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً ، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده وهى البياض إلى الخضرة ، وهى لباس كسرى والمجوس [1] . فكأن نعيم بن حازم يريد أن يقول إن الفضل بن سهل صرف الخلافة إلى أولاد على لمرحلة انتقالية تصير بعدها إلى الفرس ، ودليله على ذلك اختيار اللون الأخضر وهو شعار الفرس بدلا من اللون الأسود الذى يميز العباسيين ، والأبيض الذى يميز العلويين ، وكان هذا هو فهم العرب الصحيح للموقف السياسى إذ ذاك ، ولهذا جهدوا الجهد كله فى تبصير المأمون بالعاقبة .

ولعلنا نتساءل : كيف تم اختيار على بن موسى من بين العلويين ؟ يقول صاحب « مقاتل الطالبيين » إن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبى طالب فحملوا إليه من المدينة وفيهم على بن موسى الرضا ، فلما قدموا على المأمون أنزلهم داراً وأنزل على بن موسى الرضا داراً . ووجه إلى الفضل بن سهل فأعلمه أنه يريد العقد له ، وأمره بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل على ذلك . ففعل واجتمعا بحضرته ، فجعل الحسن يعظم ذلك عليه ويعرفه ما فيه إخراج الأمر من أهله عليه، فقال له : إنى عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبى طالب إن ظفرت

(١) الوزراء والكتاب : ٣١٣ .

بالمخلوع ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل . فاجتمعا معه على ما أراد فأرسلهما إلى على بن موسى الرضا ، فعرضا ذلك عليه فأبى ، فهدداه وتهدده المأمون حتى قبل ، وحين أجلسه للبيعة جعل ابنه العباس أول المبايعين (١) .

وهذا النص يطلعنا على رغبة المأمون الحقيقية فى اختيار ولى عهده من بين الطالبيين ، وأن فكره اتجه إلى على بن موسى الرضا بدليل إنزاله فى دار مستقلة . ويبدو أن علياً كان طيب السمعة حتى إنه كان يكنى بأبى بكر فى نزاهته وعدالته(٢) . أما معارضة الحسن بن سهل فلعلها من تدبير أخيه الفضل ليبعدا عن أنفسهما تهمة التأثير على المأمون فى ذلك الأمر الخطير . وربما كانت فكرة تعيين أحد العلويين فكرتهما حقاً ، ولكن اختيار الشخص نفسه كان بتدبير المأمون بدليل الكراهية المتبادلة بين على بن موسى الرضا من جانب ، والفضل وأخيه الحسن من الجانب الآخر ، وبفضل هذه الكراهية استطاع ولى عهد المأمون أن يوغر صدره عليهما بتعداد مساوئهما ، كما نجح فى إزالة الغشاوة من على عينيه وتبصيره بالحقيقة التى يحاول الفضل إخفاءها عنه دائماً . لقد كشف له عن الفتن التى تضطرب بها البلاد منذ خلوص الخلافة له . وكيف أن أهل بيته والناس جميعاً قد نقموا عليه أشياء حتى قالوا عنه إنه مسحور مجنون ، ولما بلغ بهم الضيق كل مبلغ بايعوا لعمه إبراهيم بن

(١) مقاتل الطالبيين : ٣٦٩ .
(٢) المصدر نفسه : ٣٦٨ .

المهدى بالخلافة، وبدا المأمون كأنه يسمع ذلك لأول مرة، فقد رد قائلا: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم، ووضح أن هذا ما أخبره به الفضل ليحجب عنه خطورة الموقف ولم يجد على بن موسى بدأ من إخبار المأمون بأن الفضل قد كذبه وغشه. وأن الحرب دائرة بين إبراهيم والحسن بن سهل، وأن الناس تكره مكان الفضل وأخيه من المأمون. وكان على صريحاً غاية الصراحة حين ذكر للمأمون أن الناس تكرهه أيضاً وتكره ولايته للعهد[1].

واستطاع المأمون أن يستوثق من صحة هذه الأنباء الخطيرة بعد سؤال جماعة طلبوا الأمان من الفضل بن سهل أولا. فأيدوا قول على ابن موسى وزادوا عليه إخبار المأمون بحقيقة موقف هرثمة الذى جاء ينصحه فقتل. وحقيقة موقف طاهر بن الحسين الذى أخلص له فأقصى إلى الرقة.

وانقشعت سحابة الأكاذيب التى صنعها الفضل بن سهل ليحجب الحقائق عن المأمون بقصد إبعاده عن طوفان السياسة، لا لخوفه أن يغرق فيه. ولكن لإبقائه فى قاع الطوفان. عندئذ قرر المأمون أن يترك مرو ويهجر خراسان التى عاش فيها أشق وأحلى فترات حياته، لينطلق إلى بغداد يواجه عاصفة السياسة متحدياً، بدلا من إخفاء رأسه فى أكاذيب

(١) انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٤٩.

ثانيا ـ في بغداد :

بدأ المأمون رحلته من مرو قاصداً بغداد فى أواخر عام ٢٠٢ هـ. ، ولكنه لم يصل إلى بغداد إلا فى أوائل عام ٢٠٤ هـ. فكأنه قضى ما يقرب من عامين فى الطريق من خراسان إلى العراق ، وهذا أمر يدعو إلى أشد الغرابة والتساؤل ، وكأنى بالمأمون كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو فى طريقه إلى بغداد ، وكأنه كان يتوقع أمراً جللا ويتوجس من أعظم الأخطار .

والحقيقة إن المأمون رسم سياسة حكيمة للقضاء على الفتنة فى العراق بهذا التمهل الشديد فى رحلته إذ جعل أعداءه يتهاوون واحداً إثر الآخر كلما أحسوا باقترابه . ونرى المأمون فى الوقت ذاته ، يعيش فى المدن التى مر بها أياماً وشهوراً ليثبت حكمه ويقوى سلطانه ، وكأنى به يريد أن يقول للناس فى كل مكان : هأنذا بينكم ، أتفقد بنفسى أحوالكم ، وقد أصبح الفضل بن سهل غير مستطيع التأثير على ، لأنى أقيم الآن شئون حكمى بنفسى .

وأهم المدن التى توقف المأمون عندها وطال مكثه فيها والتى تعتبر مراكز تحركاته منذ غادر مرو : سرخس ، طوس ، جرجان ، الرى ،

النهروان . ولا نعرف بالضبط المدة التى قضاها فى كل مدينة ، ولكننا نعرف بعض هذه المدد من خلال أحاديث الطبرى ، فقد قضى فى سرخس مثلا ما يقرب من ستة أشهر .

وفى خلال هذه الرحلة الطويلة جرت أحداث خطيرة ، يعسر على الإنسان أن يصدق أنها محض صدفة ، فما إن غادر المأمون مرو فى طريقه إلى بغداد حتى كانت سرخس أولى المدن التى عرج عليها ليقيم فيها . وفى خلال إقامته بهذه المدينة تمت حادثة اغتيال مروعة لوزيره ومستشاره الأول الفضل بن سهل[1] ، دخل عليه المتآمرون وهو فى الحمام فضربوه بالسيوف ، واختلف المؤرخون حول شخصيات الذين اغتالوه . فذكر الطبرى أنهم أربعة ، غالب المسعودى الأسود ، وقسطنطين الرومى ، وفرج الديلمى ، وموفق الصقلبى ، بينما نجد اليعقوبى يذكر أن القتلة اثنان : غالب الرومى صاحب ركاب المأمون ، وسراج الخادم . واتفق المؤرخان أن الذى دس فى قتل الفضل ابن أخته على بن أبى سعيد [2] أو هكذا اعترف القتلة أمام المأمون ، ويبدو أن غالباً كان زعيم المؤامرة إذ يذكر اليعقوبى أن الفضل حاول رشوته بمائة ألف دينار ليهب له حياته فقال له غالب « ليس بأوان تملق ولا رشوة » [3] . ومن العجيب

---

(١) يقول اليعقوبى ان اغتيال الفضل تم فى قومس ولم يذكر ذلك غيره (تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٧٩) .

(٢) يذكر اليعقوبى أنه ابن خالته (تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٨٠) .

(٣) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٨٠ .

أن بعض المصادر تذكر أن غالباً هذا هو خال المأمون[1] ، وهذا أمر نستبعده ، ولا بد أن يكون فى الكلمة تحريف ، فلعل الكاتب أراد أن يقول « خادم » المأمون . واختلف الباحثون حول دور المأمون فى هذه الجريمة الغامضة ، هل تمت بتدبيره خصوصاً أن القتلة من عبيده وخدمه ، ويد التدبير واضحة فى اختيارهم من أجناس مختلفة حتى لا يكون ثأر الفضل محصوراً فى جنس بعينه ، وإذا كان المأمون قد بعث فى طلب القتلة بعد هروبهم وجعل جائزة كبيرة لمن يأتى بهم ، فقد يكون ذلك مجرد تمويه منه لإخفاء الحقيقة . بل لقد تردد فى كتابات بعض المؤرخين أن القتلة واجهوا المأمون بأنه هو الذى أمرهم بقتل الفضل ، فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ، فقال لهم : أنا أقتلكم بإقراركم ، وأما ما ادعيتموه على من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة [2] ، وقيل إنهم اتهموا ابن أخت الفضل بذلك ، ولوصحت هذه الرواية فإن قولهم كان لإبعاد الشبهة عن المأمون ، إذ ليس مقتل الفضل من مصلحة ابن أخته على بن أبى سعيد الذى وجد كل معونة من الفضل وكان يعهد إليه بأعمال سياسية خطيرة .

وإتماماً لفصول الرواية أمر المأمون بقتل المتآمرين جميعاً ومعهم من حامت حولهم الشكوك والشبهات ، وهم : عبد العزيز بن عمران

(١) انظر : وفيات الأعيان ٣ : ٢١٠ واسمه فيه « غالب السعودى الأسود » .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية : ٣٠٠ .

الطائى ، وخلف بن عمر البصرى ، وموسى البصرى وعلى بن أبى سعيد[1] .
ولا بد أن القتلة قد ذكروا هذه الأسماء أمام المأمون فأخذهم بالشبهة ليدرأ عن نفسه التهمة .

ويميل أكثر المؤرخين إلى إثبات يد المأمون فى مقتل الفضل ، ويتابعهم فى ذلك بعض الباحثين المحدثين [2] ، والحقيقة إن الملابسات كلها تدين المأمون فهو قد هجر مرو بعد أن أحس اهتزاز عرشه وسطوة الفضل عليه ، ثم هو فى طريقه إلى بغداد ضد إرادة الفضل وجماعته من الفرس ، وهو يعلم أن أهل العراق ناقمون عليه بسبب تأثر الفضل عليه ، فلماذا لا يكتسب محبة العراقيين بالتخلص من الفضل ، وهو بذلك يستطيع أن يحكم فى حرية ، ويثبت لمن حوله قدرته على الاضطلاع بمهام الدولة بنفسه دون استشارة أحد .

وأراد المأمون أن يستميل الحسن بن سهل والفرس جميعاً إلى جانبه ، فاسترضاه وبعث إليه برؤوس ضحايا المؤامرة ، وصيره فى مكان أخيه من الناحية الظاهرية ، بل أراد أن يوثق صلته بآل سهل إلى أبعد مدى

---

(١) ذكر الطبرى أسماءهم كما يلى : عبد العزيز بن عمران ، وموسى ، وخلف ، أما اليعقوبى فذكرهم بالصورة التى أثبتناها .

(٢) من المؤرخين الطبرى وابن الطقطقى وابن خلكان والمسعودى الذى انفرد برواية غريبة بعيدة عن الصحة وهى أن المأمون قتل الفضل لأنه ضايقه فى جارية اشتراها (مروج الذهب ٢ : ٣١٧ ، ومن الباحثين الشيخ الخضرى .

فتزوج بوران بنت الحسن بن سهل بعد شهور من مقتل الفضل ، ولم يكن من دافع وراء هذا الزواج غير السياسة ، إذ كانت بوران فى ذلك الوقت طفلة لم تتجاوز العام العاشر من عمرها ، ولهذا عقد المأمون عليها توكيداً للمعنى السياسى الذى قصده ، ولم يدخل بها إلا بعد انقضاء ثمانية أعوام .

وقد أشار إبراهيم الصولى الفارسى الأصل إلى هذا الزواج الذى يعبر عن التقاء الفرس بالعرب ، فقال :

ليهنك أصهار أذلت بعزها
خدوداً وجدعن الأنوف الرواغما
جمعت به الشملين من آل هاشم
وحزت به للأكرمين المكارما
بنوك غدا آل النبي ووارثوا الـ   خلافة والحاوون كسرى وهاشما

ويرى كاتب مادة المأمون فى دائرة المعارف الإسلامية أن العرب هم الذين قتلوا الفضل بن سهل باعتباره عدواً لهم ، والحقيقة إن مقتل الفضل لم يكن انتصاراً للعرب بقدر ما هو إيقاف لتيار المد الفارسى الذى كان الفضل يعده ليجرف أمامه الخلافة العربية .

وقد رثى شعراء الفرس الفضل بن سهل أحر رثاء ، واتجهت آمالهم

---

(١) ديوان الصولى (مجموعة الطرائف الأدبية) : ١٣٧ .

بعده إلى أخيه الحسن كما يتضح لنا من قصيدة إبراهيم الصولى التى أولها :

إحـــدى الململمـــات الجـــلائل
أودت بفضـــــل والفضائل

فهو يقول فيها :

ما مات من حســـن أخـــوه
وشبهـــه فـــيما يحـــاول

ثم لا يريد الفرس أن يقطعوا أملهم فى المأمون أيضاً ولا فى ولى عهده على بن موسى الرضا ، ولهذا يقول إبراهيم الصولى :

المـــوت بعـــدك نعمـــــة
والعيش بعـــــدك غـــير طائل

إما يـــزل بـــك ذا الزمـــــان
فـــإن مدحـــك غـــير زائـــل

فى الله والمـــأمـــون منـــــه
المـــرتضى عـــــوض لعاقـــل

مثـــل الخـــليفة والرضــــا
عـــزا عن النوب الجــــــلائل

وبـــنى الأكـــارم للأكـــارم
والعقـــــائـــل للمعـــــاقل[1]

---

(١) المصدر نفسه : ١٧٤ .

وإذا كان الحسن بن سهل قد أخذمكان أخيه إلا أنه لم تكن له خطورة تذكر ، وكان فيما يبدو ضعيف الشخصية سهل القياد .

وترك المأمون سرخس بعد انقضاء شهرين على مقتل الفضل ، ورحل إلى طوس فمكث فيها عدة أشهر . وفى طوس حدثت مفاجأة جديدة إذ مات ولى عهد المأمون على بن موسى الرضا بصورة فجائية ، جعلت أصابع الاتهام تشير إلى المأمون مرة أخرى فى خلال ستة أشهر فحسب . فذكروا أنه قدم لولى عهده عنباً مسموماً أو رماناً فى بعض الروايات. ويقول ابن طباطبا فى ذلك : « ثم دس (المأمون) إلى على بن موسى الرضا سما فى عنب – وكان يحب العنب – فأكل منه واستكثر فمات من ساعته ، ثم كتب إلى بنى العباس ببغداد يقول لهم :إن الذى أنكر تموه من أمر على بن موسى قد زال ، وإن الرجل قد مات »(١).

والربط بين موت على بن موسى وبين رسالة المأمون إلى العباسيين بهذه الصورة توحى حقاً بأن المأمون قد دبر مقتل على . أما اليعقوبى فهو مؤمن أيضاً بأن وفاة على بن موسى لم تكن طبيعية ، ولكنه لم ينسب ذلك إلى المأمون صراحة ، فهو يقول: « يقال إن على بن هشام أطعمه رماناً فيه سم »(٢) ، ولكنهلم يذكر لنا من هو على بن هشام ، وأغلب الظن أنه واحد من حاشية المأمون ، بل هو كذلك بالفعل ، فهل دبرت الحاشية هذه الجريمة دون علم المأمون ! إن اليعقوبى يثبت حزن المأمون

---

(١) الفخرى : ٣٠١ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٨١ .

الشديد على وفاة على الرضا ، فهو ينقل عن شاهد عيان أن المأمون سار فى جنازة الرضا حاسراً فى مبطنة بيضاء ، وهو بين قائمتى النعش يقول: إلى من أروح بعدك ياأبا الحسن ؟ وأقام عند قبره ثلاثة أيام ، يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فيأكله ، ثم انصرف فى اليوم الرابع (١) .

ثم لا ننسى أن المأمون قد وثق صلته بولى عهده قبل مقتله بشهور ، إذ زوجه ابنته أم حبيب ، كما زوج محمد بن على بن موسى ابنته الأخرى أم الفضل (٢) على حلكة لونه وسواده (٣) ، ومع ذلك يتهمه أكثر من مرجع بتدبيره موت ولى عهده إمام الشيعة الثامن ، وقد أكد هذا أبو الفرج الأصفهانى وأبدى اقتناعه التام بموت على بن موسى بالسم ، ولكنه تردد فى كيفية السم الذى سقيه . وبرغم اقتناع أبى الفرج الأصفهانى أقر بأن المأمون لم يظهر موت على بن موسى فى وقته ، وتركه يوما وليلة ثم وجه إلى محمد بن جعفر بن محمد وجماعة من آل أبى طالب . فلما أحضرهم وأراهم إياه صحيح الجسد لا أثر له ، بكى وقال : عز على يا أخى أن أراك فى هذه الحالة ، وقد كنت أؤمل أن أقدم قبلك ، فأبى الله إلا ما أراد . وأظهر جزعاً شديداً وحزناً كثيراً . وخرج مع جنازته يحملها فدفنه إلى جانب هارون الرشيد (٤) .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) تاريخ الطبرى حوادث سنة ٢٠٢ هـ ويبدو أنه لم يدخل بها الا فى سنة ٢٠٥ هـ .

(٣) مقاتل الطالبيين : ٣٧١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٧٢ .

ومن العجيب أن أبا الفرج هــو المصدر الوحيد الذى أثبت أن المأمون دخل إلى على بن موسى فى علته يعوده ، فوجده يجود بنفسه ، فبكى وقال : أعز على يا أخى بأن أعيش ليومك ، وقد كان فى بقائك أمل ، وأغلظ على من ذلك وأشد أن الناس يقولون إنى سقيتك سماً ، وأنا إلى الله من ذلك برىء ، فقال له الرضا : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت والله برىء[1] .

والمتمعن فى هذه الروايات جميعاً يخرج بعدة حقائق فى هذه القضية ، منها أن إشاعة دس السم قد انتشرت بمجرد مرض على بن موسى وقد تبرأ منها المأمون ووافقه على ذلك على بن موسى نفسه برواية أبى الفرج الأصفهانى وميوله الشيعية غير منكورة ، ومنها أيضاً أن المأمون حرص على إطلاع العلويين على جسد على بن موسى بعد وفاته ليعاينوا بأنفسهم كذب إشاعة التسميم وهو يترك آثاراً ظاهرة . يضاف إلى ذلك جزع المأمون الشديد على ولى عهده ، وهو فى الوقت ذاته زوج ابنته ، كما ثبت من الروايات جميعاً إعجاب المأمون بشخصه لحكمته وصدقه ، ولا ننسى أن على بن موسى هو الذى كشف للمأمون حقيقة الدور الخطير الذى يقوم به الفضل بن سهل فكان السبب المباشر فى اتجاه المأمون إلى العراق . فالأقرب إلى التصور إذن — إن كان موت الفضل قد تم بالسم حقاً وليس موتاً طبيعياً — أن يكون ذلك بتدبير آل

---

(١) المصدر نفسه : ٣٧٥ .

سهل انتقاماً لمقتل الفضل ، ورداً على إفساده تدبير الفرس بالاستقرار في مرو ، ولعل السم المستخدم في هذه الحالة لا تكون له آثار ظاهرة . ومن المؤرخين الذين استبعدوا قتل المأمون لعلى بن موسى ابن الأثير[1] . واقتنع بذلك بعض الباحثين المحدثين مثل الخضرى الذى نسب القتل إلى بطانة المأمون لرغبتهم في اجتذاب ولاء العباسيين له [2] ، ومثل أحمد فريد رفاعى الذى استند إلى أن شخصية المأمون وخلقه يجعلان فرض قتله لولى عهده فرضاً واهناً ضعيفاً[3] .

ولكن الباحثين من الشيعة يؤمنون بصحة هذا الافتراض كل الإيمان [4]

وإن كنا قد ملنا إلى تأييد فكرة تدبير المأمون مقتل الفضل بن سهل، إلا أننا نؤمن بعدم اشتراكه في تدبير هذا الموت الفجائى لعلى الرضا ، ولو أن فائدة المأمون محققة بموت الشخصين .

أما رسالة المأمون إلى بنى العباس يدعوهم فيها إلى طاعته بعد وفاة على الرضا فلا تعدو أن تكون إقراراً للواقع واستفادةبه ، وليس معناها أن المأمون يقول للعباسيين : لقد قتلت لكم الشخص الذى تكرهونه وتنقمون على خلافتى بسبب ولايته لعهدى ، ويحجب عنى ولاءكم .

---

(١) الكامل : ١٩٣ .

(٢) تاريخ الأمم الاسلامية : ١٨٣ .

(٣) عصر المأمون ١ : ٢٦٨ .

(٤) انظر : الامام على الرضا لعبد القادر أحمد يوسف ط بغداد ١٩٤٧ .

وقد رثى الشيعة على بن موسى أحر رثاء كعادتهم فى بكاء ضحاياهم ، وما كان أكثرهم فى عهد المأمون برغم علاقته القوية بالعلويين ، وقد عدد أبو الفرج الأصفهانى أسماء شهداء الشيعة الذين تمردوا على الخلافة العباسية ، والذين لم يحل تعيين ولى عهد منهم فى عصر المأمون دون استمرار ثورتهم . بل لقد قام زيد بن موسى أخو على الرضا بثورة ضد المأمون فى البصرة ، فاستعان المأمون بعلى الرضا فى قمع هذه الثورة[1] .

ومن المراثى التى قيلت فى على الرضا قول دعبل الخزاعى الذى يعبر عن ثورة الشيعة ضد الحكم العباسى بصفة عامة ، واتهام المأمون صراحة بدس السم لإمامهم :

رعتهم ذئاب من أميـــة وانتحت
عليهـــم دراكاً أزمـــة وســـنون

وعاشت بنو العباس فى الدين عيشـــة
تحـــكم فيهـــا ظـــالم وظنـــين

وسموا رشـــيداً ليس فيهـــم لرشده
وهـــا ذاك مـــأمون وذاك أمـــين

فما قبـــلت بالرشـــد منهم رعاية
ولا لـــولى بالأمـــانة ديـــن

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٣٢ (ترجمة على الرضا) .

رشيدهم غاو وطفلاه بعده

لهذا دنا باد وذاك مجون

ألا أيها القبر الغريب محله

بطوس عليك الساريات هتون

شككت فما أدرى أمسقى بشربة

فأبكيك أم ريب الردى فيهون

وأيهما ما قلت إن قلت شربة

وإن قلت موت إنه لقمين

أيا عجباً منهم يسمونك الرضا

ويلقاك منهم كلحة وغضون(١)

وبعد موت على الرضا أصبح من المؤكد أن العلويين قد أصبحوا معادين للدولة المأمون كل العداء ، ونرى فى دعبل الخزاعى شاعرهم مثالا معبراً عنهم ، فكثيراً ما مدح المأمون فى أثناء إقامته بخراسان مصافياً للعلويين ، ومن ذلك أرجوزته التى أولها :

يا سلم ذات الوضح العذاب

وربة المعصم ذى الخضاب (٢)

(١) مقاتل الطالبيين : ٣٧٤ وفى نشرة الديوان بتحقيق محمد نجم نجد فى البيت الخامس قوله (لهذا رزايا دون ذاك مجون) ولا أجد لها معنى .

(٢) انظر : طبقات الشعراء لابن المعتز : ٢٦٧ .

ولكنه لم يلبث أن انقلب عليه وعلى العباسيين جميعاً ، كما رأينا فى قصيدته التى رثى بها على بن موسى الرضا .

وكان على المأمون أن يحارب فى جبهات متعددة بقصد استقرار الحكم له فى الداخل، وحماية الدولة من أعدائها فى الخارج أيضاً . ففى الشرق كانت العقائد التى بشر بها أبو مسلم الخراسانى وتلميذه المقنع ، وهى القائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الإلهية ، قد بعثت فى أذربيجان على يد بابك الخرمى الذى اجتمع حوله خلق كثيرون ، واتسع سلطانه حتى لقد أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن الغرب(١) ، وقد بدأت ثورة بابك هذه عام ٢٠١ هـ. ، وظلت قوية طوال عهد المأمون بحيث لم يستطع القضاء عليها قط ، والذى أخمدها هو أخوه المعتصم عام ٢٢١هـ. ، أى أنها استمرت عشرين عاماً بلا انقطاع ، بدأت والمأمون فى مرو ، واستمرت طوال إقامته فى بغداد .

وقد ظهر بابك فى كورة من شمال بلاد فارس تسمى البذ ، ويقول السمعانى فى كتابه الأنساب إن الخرمى نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية ، وهم قوم يدينون بما يريدون ويشتهون ، وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به ، ويقول ابن النديم فى الفهرست إن الخرمية صنفان: الخرمية الأولون ويسمون المحمرة ، وهم منتشرون بنواحى الجبال فيما

(١) انظر : تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٤ .

بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمذان ودينور ؛ وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز ، وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل ، ويقصد ابن النديم بهؤلاء أصحاب مزدك الذى أمرهم باقتراف الملذات والعكوف على الشهوات والأكل والشرب ، ولهم مشاركة فى الحرم ، ومع هذا يرون أفعال الخير وترك القتل . أما الخرمية البابلية فإن صاحبهم بابك الخرمى كان يقول لمن استغواه : إنه إله ؛ وأحدث فى مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب ، فكأن ثورته ضد الخلافة العباسية كانت ثورة عقائدية تريد أن تطيح بالإسلام وتقوض أركان المجتمع بما تحدث فيه من آراء هدامة ، ولهذا لم يتوان المأمون عن قتال الخرمية ، ولكن جميع قواده الذين أرسلهم لقتال بابك قتلوا أو وقعوا فى الأسر ، ولهذا أوصى أخاه المعتصم باستئصال الخرمية غضباً للدين وحماية له، يقول فى وصيته: والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة فإن طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل فى ذلك مقدم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليـــه » .

وقد حاول بندل جوزى أن يصور الحركة البابكية بأنها حركة اشتراكية شيوعية ، وخاصة أنها كانت بالمصادفة تتخذ ألوية حمراء ، ويقول إنها انتشرت انتشاراً هائلا حتى إن عدد الذين انضموا إلى جيش بابك فى أذربيجان والديلم فقط بلغ ثلاثمائة ألف نفس ، ويقول أيضاً إن الحركة البابكية لم تكن لمقاومة الإسلام والمسلمين ، ولا مقاومة العرب

كأمة مغتصبة فاتحة ، بل محاربة النظام الاجتماعى الذى كانت تئن تحته الطبقات السفلى ، وإبداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها ، ولا ظالم ولا مظلوم ، ولا غنى ولا فقير ، ولا سيد ولا عبد، نظام مبنى على العدل والإخاء والمساواة ، ثم يحاول الباحث بعد ذلك أن يدحض كل الاتهامات التى توجه إلى الحركة البابكية ، والتى تصور شذوذها الاجتماعى واستباحتها للمحرمات(١) .

وبندلى جوزى فى دفاعه عن الحركة البابكية إنما يدافع عن حركة شيوعية ملحدة ، لا يهمه فيها غير هذا الجانب ، أما مخالفتها للدين وتصادمها مع القيم الروحية والخلقيةفلم يكن يعنيه فى شىء ، وقد كان المأمون مدركاً كل الإدراك خطورة هذه الحركة على الدين وعلى الدولة معاً ،وكان يعلم جيداً الصلة بين الحركة البابكية وبين أعدائه من الروم ، ولهذا اهتم بقتال بابك وأرسل عدة جيوش لقتاله ، ولكن فشل كل قواده فى إنزال الهزيمة به لوعورة هذه المناطق الجبلية التى كان بابك يتحصن بها ، وللمساعدات القيمة التى كان الروم يمنحونها لبابك نكاية فى الدولة الإسلامية .

وإلى جانب ثورة بابك ، كان على المأمون أن يخمد ثورة أخرى فى المشرق أيضاً ،قام بها حاتم بن هرثمة انتقاماً لمقتل أبيه هرثمة بن أعين. وقد استفاد بابك من هذه الثورة العربية إذ أصبحت منطقة أذربيجان

(١) انظر : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام : ٥٨ — ٨٨ .

تغلى بالثورات ضد الخليفة ، وتحاول اقتطاع هـذه الولايات من جسم الدولة .

وفى منطقة سجستان ومكران كان الحمزية – وهم فرقة من الخوارج تتبع حمزة بن أكرك وتقول بتكفير من لا يوافق على قتال مخالفيه – تعيث فساداً فى المنطقة منذ خرجوا فى عهد الرشيد سنة تسع وسبعين ومائة . فلما استقر المأمون فى بغداد كتب إلى حمزة كتاباً استدعاه فيه إلى طاعته فأبى . فبعث المأمون بطاهر بن الحسين فقتل الكثيرين من الحمزية ، ثم استدعاه المأمون ، فطمع حمزة فى خراسان فتصدى له عبد الرحمن النيسابورى أحد قواد المأمون وقضى عليه(1) .

ويقول البغدادى إن دعوة الباطنية ظهرت أيضاً فى أيام المأمون ، من حمدان قرمط ومن عبدالله بن ميمون القداح ، وهى ترجع إلى أصل مجوسى(2) . وما أصدق هذا الباحث إذ يقول : « ما ظهرت البدع والضلالات فى الأديان إلا من أبناء السبايا ! »(3) ، وكان من حظ المأمون أن ظهر منها فى عهده عدد ليس باليسير ، كان عليه أن يقاومها جميعـاً .

وفى بغداد كانت ثورة العباسيين ضد المأمون قد أتت بإبراهيم

---

(1) الفرق بين الفرق : 79 .
(2) المصدر نفسه : 110 .
(3) الفرق بين الفرق : 101 .

ابن المهدى خليفة – كما سبق أن ذكرنا – وطرد الحسن بن سهل نائب المأمون على العراق ، فانتقل إلى المدائن ، واستطاع إبراهيم بن المهدى أن يغلب على الكوفة والسواد كله . ولكن لم يستقر له الأمر تماماً فخاض حروباً ضد أعدائه . وكانت بينه وبين الحسن بن سهل وقائع كثيرة ، لم يحرز أحدهما فيها انتصاراً حاسما ، ولكن إبراهيم انتصر على مهدى ابن علوان الحرورى . وعلى أخى أبى السرايا بالكوفة . ثم استطاع أن يقبض على سهل بن سلامة الذى كان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقد انتشرت دعوته انتشاراً عظيماً ، وعمل كل مؤمن بها برجاً على باب داره نصب عليه السلاح والمصاحف ، ويبدو أن إبراهيم بن المهدى تخوف من هذه الدعوة فقاتل أصحابها وسجن زعيمها ، ولكن حينما دخل المأمون بغداد أطلق سهلا من سجنه وأجازه ووصله وأمره أن يجلس فى منزله ليواصل دعوته[1] ، إذ لم يجد فيها أى تعارض مع حكمه أو سلطانه ، بل وجدها – على العكس من ذلك – امتداداً لحركة المطوعة الذين كانوا نكيراً على الفساق فى بغداد .

وبعد رحيل المأمون عن طوس وافته الكتب بأن نائبه ووزيره الحسن بن سهل قد أصابته لوثة ، بسبب حزنه على مقتل أخيه الفضل فيما يبدو – حتى شد فى الحديد وحبس فى بيته ليتداوى ، وأظهر الناس

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٤ .

شماتتهم فيه بسبب كراهيتهم لشخصه ، وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء فقـــال :

تولت دولـــة الحســـن بن سهـــل
ولم أبـــلل لهـــاتى من نداهـــــا
فـــلا تجزع على ما فـــات منهـــا
وأبـــكى الله عيـــنى من بكاها [١]

ويقول أحد الباحثين إن حكم الحسن بن سهل نيابة عن المأمون دام ست سنوات كانت كلها طغياناً وارتباكاً صائراً بالتدريج إلى فوضى [٢] .

وبعد موت على بن موسى الرضا لم يجد العباسيون فى بغداد عذراً لقبول خلافة « التنين الأسود » أو « ابن شكلة » أى إبراهيم بن المهدى فخلعوه بعد أن استمر فى الخلافة سنة وبضعة أشهر ، ودعوا للمأمون بالخلافة من جديد ، فلم يجد إبراهيم بداً من الاختفاء حتى لا يتعرض لنقمة المأمون عليه ، وأخذ يعتب على العباسيين تفريطهم فيه ، بعد أن نقل المأمون الخلافة إلى العلويين ، فقال :

فـــلا جزيت بنو العباس خـــــيراً
على رغمى ولا اغتبـــطت بـــرى

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٣٠٨ .
(٢) مسالك الثقافة الاغريقية : ٢٤٢ .

أتونى مهطعـــين وقــد أتاهم
بــوار الدهــر بالخـبر الجـلى

وقد ذهــل الحــواضن عن بنيها
وصــد الثــدى عن فم الصــبى

وحــل عصــائب الأمــلاك منها
فشــدت فى رقــاب بــنى عــلى

فضــجت أن تشــد على رؤوس
تطــالبهــا بمــيراث النــبى [1]

ولما صار المأمون إلى النهروان خرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس بعد أن دانوا بطاعته، وأراد أن يشفى الجراح التى أحدثها الفضل ابن سهل فى نفس قائده طاهر بن الحسين فبعث إليه ليوافيه بالنهروان وصحبه فى دخوله إلى بغداد . وكان ما يزال هو وأصحابه يلبسون الثياب الخضر لإعلان ميلهم إلى العلويين . وكان دخول المأمون إلى بغداد شجاعة خارقة منه بعد أن مزقتها الفتن والثورات، ولم يكن مع المأمون مال يستطيع أن يسترضى به الخارجين عليه كما فهم من حديث جرى بينه وبين واحد من صحابته، فقد روى أحمد بن أبى خالد — الذى صار وزيراً للمأمون بعد مرض الحسن بن سهل — قال لما قدمنا من خراسان

(١) التنبيه والاشراف : ٣٤٩ .

مع المأمون فصرنا فى عقبة حلوان ، وكنت زميله ، قال لى المأمون : « يا أحمد إنى أجد رائحة العراق ، قال : فأجبته بغير جوابه . وقلت له : ما أخلقه ! فقال : ليس هذا جوابى ، ولكنى أحسبك سهوت أو كنت مفكراً . قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين. قال : فيم فكرت ! قال « قلت فكرت فى هجومنا على بغداد وليس معنا إلا خمسون ألف درهم مع فتنة غلبت على قلوب الناس واستعذبوها . فكيف يكون حالنا إن هاج هائج أو تحرك متحرك ؟ قال : فأطرق ملياً ثم قال : صدقت يا أحمد ما أحسن ما فكرت ولكنى أخبرك : الناس على طبقات ثلاث فى هذه المدينة – يعنى بغداد – ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإمساكنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يسعه. فوالله ما كان إلا كما قال » (١) .

وبعد أيام من دخول المأمون إلى بغداد لم يجد حرجاً فى العدول عن الثياب الخضر شعار العلويين ، واتخاذ اللون الأسود شعار العباسيين . وذلك حتى يزيل ما علق بنفوس أهـــله من ميله السابق إلى العلويين ، ومع تمزق الثياب الخضر تمزقت العلاقة بين المأمون والعلويين التى ظلت فى شبه هدنة بضع سنوات ، ولكنه مع ذلك ظل يضعهم فى جانب من قلبه يحرص عليهم ويجاملهم . وفى عام ٢٠٧ هـ. ثار أحد الطالبيين على

(١) كتاب بغداد : ١١ .

خلافة المأمون ، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب . وكان يدعو فى أرض اليمن إلى الرضا من آل محمد ، فأرسل إليه المأمون جيشاً كثيفاً قضى على ثورته ، وغضب المأمون بعدها على الطالبيين فمنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد(١) .

بل نراه يهتم بإشاعة وصلته — بعد ذلك بسنوات — عن علاقة عبد الله بن طاهر بالعلويين ، فبعث إليه جاسوساً يستجلى حقيقة الأمر ، فلما استوثق من براءة ابن طاهر — وكأن الصلة بالعلويين أصبحت فى نظر المأمون تهمة خطيرة — استبشر وقال عنه : ذلك غرس يدى وإلف أدبى وترب تلقيحى(٢) .

وعلى الرغم من انشغال المأمون بحرب بابك إلا أنه اضطر لقتال جماعة أخرى من الخارجين على دولته يطلقون عليهم اسم الزط . قال عنهم ابن خلدون « وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثو وأفسدوا البلاد » ، والزط هم النور ، أصلهم من آسيا ، كانوا يسكنون شواطىء الخليج الفارسى ، وقد تجمعوا واستولوا على طريق البصرة فى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون . وظلوا يشغبون على الدولة فترة طويلة دون أن تستطيع القضاء عليهم . وكما ظل بابك شوكة فى جسم

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٧ .

الدولة طوال حياة المأمون كذلك كان الزط ، فلم يقض عليهم إلا المعتصم ، والسبب فى ذلك كما يقول الخضرى أنهم كانوا إذا أخرجهم الجند تفرقوا فى الفيافى فيصعب اصطيادهم[1] .

ولكن استياء المأمون من فشل قواده فى حرب بابك والزط قابله استبشاره بالقضاء على ثورة نصر بن شبث بعد أن تجبر نصر ورفض الطاعة للمأمون إلا على شروط قاسية، أولها ألا يطأ له بساطاً . فكان رد المأمون على ذلك قوله : لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصى حتى يطأ بساطى[2] . وأجاب نصر على تحدى المأمون بصيحة الحرب قائلا : ويلى عليه ، هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه – يعنى الزط – يقوى على حلبة العرب[3] . وتولى قيادة جيش المأمون عبد الله ابن طاهر فكان له الظفر على نصر ، وأتى به إلى المأمون فى بغداد ، ولم يلبث أن سقط فى يد المأمون إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن عائشة ، ومحمد بن إبراهيم الإفريقى ، ومالك بن شاهى ، وفرج البغوارى ، وهم رؤوس الفتنة التى ثارت ضد المأمون وانتهت بخلعه وتعيين عمه إبراهيم بن المهدى خليفة فى بغداد . ثم وقع إبراهيم بن المهدى

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية : ١٩٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٧ .

(٣) لم يكن الزط أربعمائة ولكن نصرا يقلل من شأنهم . وقد بلغ تعداد الزط حين اضطروا للتسليم أيام المعتصم سبعة وعشرين ألفا بين رجل وامرأة وصبى وكان عدد المقاتلين فيهم اثنا عشر ألف مقاتل

نفسه أسيراً . أخذ وهو متنقب فى زى امرأة ، وبذلك تمت للمأمون الغلبة على الذين كانوا ينازعونه الحكم، ولم يعد أمامه خصم قوى يجاذبه الخلافة ، حتى بين قواده الأقوياء بعد أن مات طاهر بن الحسين فى ظروف غامضة عقب غضب المأمون عليه وإقصائه إلى خراسان . ويبدو أن طاهراً كان يزمع الثورة على المأمون . وكان أحمد بن أبى خالد وزيراً للمأمون قد تكفل بمراقبته فدس إليه من قضى على حياته فى ليل اليوم نفسه الذى قطع فيه اسم المأمون من خطبة الجمعة[1] . ولم يلبث أن توفى فى سنة ثمان ومائتين الفضل بن الربيع وزير الأمين الذى كان يناصب المأمون العداء . ومع ذلك فقد عفا عنه بعد قدومه إلى بغداد. كما توفى فى السنة ذاتها موسى بن محمد الأمين الذى خاض أبوه الحرب ضد أخيه المأمون من أجل توليته الخلافة من بعـــده . ولو اطلع على الغيب وأدرك قصر عمر ابنه ما سل سيفاً . ولا انتهى إلى المصير المحزن الذى آل إليه .

ومن أخطر الثورات التى نشبت فى عصر المأمون ثورة عبيد الله ابن السرى بن الحكم فى مصر ، وقد انتدب لها المأمون عبد الله بن طاهر فحاصر السرى ، فأراد صرفه عن حصاره ، فبعث إليه ليلا بألف وصيف ووصيفة ، مع كل منهم ألف دينار فى كيس حرير . فرد ذلك عبد الله بن طاهر وكتب إليه : لو قبلت هديتك نهاراً تقبلتها ليلا . بل أنتم بهديتكم تفرحون، وعندئذ لم يجد ابن السرى بدأ من طلب

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٥ .

الأمان ، وكان جماعة من أهل الأندلس انتهزوا فرصة ثورة ابن السرى فنزلوا الإسكندرية وتغلبوا عليها . فأنذرهم عبد الله بن طاهر بالحرب وأجلاهم عن المدينة .

ونشبت فتن أخرى فى خلال العهد البغدادى من حياة المأمون استطاع القضاء عليها جميعاً كفتنة بلال الضبابى وهو من الخوارج ، وفتنة أهــل قم بسبب تظلمهم من الخراج ، وفتنة عبد السلام وابن جليس فى مصر .

وظلت مصر مركزاً للثورات فى الحقبة الأخيرة من عهد المأمون إذ لم يلبث أن ثار أهل الوجه البحرى ومعهم الأقباط على عيسى بن منصور عامل المأمون لسوء سيرته فيهم وضعف سياسته وتدبيره . وقد حاول عيسى إخماد الفتنة بكل ما لديه من وسائل ، ولكنه فشل، فأرسل المأمون القائد التركى المعروف بالأفشين فقاتل الأهالى وأصاب منهم عدداً كبيراً ،فخمدت الفتنة ولكن إلى حين ، ولم يجد المأمون بداً من القدوم إلى مصر عام ٢١٧ هـ. ليتعرف بنفسه على أسباب الثورة ، ومكث فيها نحو أربعين يوماً لمقاتلة الثوار وإزالة أسباب الشكوى التى قامت على أساسها الثورة . واستطاع أن يظفر بعبدوس الفهرى قائد الثورة فقتـــله .

ولم يشغل المأمون نفسه بأمر السياسة الداخلية فحسب — وما أكثر تقلباتها وفتنها ومذاهبها — بل شغل أيضاً بالسياسة الخارجية . وإن كان

اهتمامه بها كان أقل بكثير من اهتمام أبيه الرشيد، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى طغيان السياسة الداخلية التى لم تجعل للمأمون فرصة للاهتمام بعلاقاته مع الأمم الأجنبية المجاورة وخاصة الروم أعداء العرب التقليديين . أما علاقة المأمون بأهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان الدولة العباسية كالترك والديلم فكانت قائمة على محاولة التوسع فى غزو هذه المناطق ، وقد استطاع عبد الله بن خرداذبة والى طبرستان من قبل المأمون أن يفتتح اللارز والشيرز من بلاد الديلم، وافتتح جبال طبرستان ، وأسقط حكم شهريار بن شروين عنها . وفى ذلك يقول سلم الخاسر :

إنا لنأمل فتح الروم والصين
بمن أذل لنا من ملك شروين

فاشدد يديك لعبد الله إن له
مع الأمانة رأى غير موهون(١)

وأما علاقة المأمون بالروم فقد ظلت هادئة أكثر من عشر سنوات ، والسبب فى ذلك كما يقول فيور يرجع إلى أن بطريق أنطاكية ببلاد سورية كان قد توج توماس امبراطوراً . ولو نجح فى تأميره وسلطانه كفى العرب مؤونة القتال . ولكان توماس هذا تابعاً للخليفة المأمون(٢). ولكن الخلاف الذى نشب بين توماس وميخائيل انتهى لمصلحة ميخائيل .

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٤٤ .

(٢) انظر ما نقله أحمد رفاعى عن فيور (عصر المأمون ١ : ٢٩٠) .

ولولا انتظار العرب لنتيجة هذا الصراع لكان فى إمكانهم غزو الروم واستباحتهم فى غمرة الخلاف على عرش القسطنطينية . وقد بدأ المأمون حربه ضد الروم عام ٢١٥هـ. ففتح كثيراً من الحصون القريبة من حدود دولته كحصن قرة وماجدة وسندس وسنان ، ثم عاد إلى الشام . وما لبث أن جاءته الأنباء بقتل ملك الروم قـــوماً من أهل طرسوس يبلغ تعدادهم ألفاً وستمائة . فعاد مرة أخرى إلى غزو الروم بعد شهور من غزوته الأولى . ومكث فى تلك الغزوة نحو أربعة أشهر أغار فيها على أذنة وأنطيغوا وهرقلة ووجه أخاه المعتصم ففتح ثلاثين حصناً .

وفى السنة التالية دخل المأمون أرض الروم للمرة الثالثة . وهناك طلب إليه تيوفيل ملك الروم الصلح وعرض الفدية . ولم يعد المأمون من غزوته تلك إلى الشام أو إلى مصر أو إلى عاصمة ملكه بغداد . بل قضى نحبــــه فى البدندون Padandos القريبة من طرسوس .

ومما يتصل بالمسائل السياسية فى الفترة البغدادية من حياة المأمون اتصالا وثيقاً المناقشات التى كانت تدور حول الإمامة . وهى فى الحقيقة من أقدم المسائل السياسية التى اشتجرت حولها الأهواء والعقول فى البيئات الإسلامية المختلفة[١] . وقد أشرنا من قبل إلى الجو السياسى فى مرو الذى يصطرع بالخصومة بين الفرس والعرب . وعلاقة ذلك بمسائل الإمامة ، وكان من نتيجة ذلك الصراع تعيين على بن موسى الرضا

(١) انظر : الجاحظ حياته وآثاره : ١٨١ .

ولياً لعهد الخلافة العباسية . وبعد أن انتقل المأمون إلى بغداد ظل مهتماً بمسائل الإمامة اهتماماً كبيراً يتبدى لنا فيما ذكره الطبرى من نقاش حاد فى مجلس المأمون بين بشربن غياث المريسى ، وثمامـــة ، ومحمد بن أبى العباس ، وعلى بن الهيثم ، وكانوا يتناظرون فى التشيع ، فنصر محمد بن أبى العباس الإمامية ، ونصر على بن الهيثم الزيدية (١) .

ويربط الدكتور طه الحاجرى بين كتاب إمامة معاوية الذى ألفه الجاحظ — وأشار فيه إلى تيارين متضادين يذهب أحدهما إلى لعن معاوية ويذهب الآخر إلى تهجين هذا الرأى—وبين ما ذكره الطبرى فى حوادث سنة ٢١١ هـ. إذ يقول «وفيها أمر المأمون منادياً فنادى برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٢)، ويرى الباحث أن هذه الكلمة المقتضبة تحمل فى أطوائها تاريخاً طويلا من النزاع بين منزعين : منزع المعتزلة ومنزع أهل الحديث ، وكانا يتمثلان معاً فى دار الخـــلافة، ويتنازعان توجيه سياسة الدولة الدينية . وكان يمثل المنزع الأول ثمامة ابن أشرس، ويمثل المنزع الأخير يحيى بن أكثم . وقد كان الحكم

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٦ حوادث سنة ٢٠٥ .
(٢) المصدر نفسه ١٠ : ٢٧٨ .

على معاوية من مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل الحديث[١] .

وإذا تركنا ما يمس الحياة السياسية من مسائل الإمامة فلا بد أن نقف قليلا عند الوزراء الذين عملوا مع المأمون واشتركوا معه فى توجيه سياسة الدولة خلال فترة حكمه فى بغداد التى استمرت نحو أربعة عشر عاماً .

يقول المسعودى إنه بعد أن أظهر الحسن بن سهل العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ، ولزم منزله عدل المأمون إلى استكتاب كتاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم . وأنه ليس فى عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم ، فاستوزر واحداً بعد واحد . أولهم أحمد بن أبى خالد الأحول ، وكان ينوب عن الحسن بن سهل لما تخلف فى منزله . فلما دعاه المأمون إلى أن يستوزره ، قال : يا أمير المؤمنين . اجعل بينى وبين الناس منزلة يرجونى لها صديقى ويخافنى بها عدوى . فما بعد الغايات إلا الآفات[٢] .

ويقول المسعودى أيضاً إن المأمون لم يملك بعد الفضل بن سهل كتابه

(١) الجاحظ حيـــاته وآثاره : ١٨٨ ويقول الذهبى فى أحداث سنة ٢١١ هـ ان المأمون أمر أن يقال : خير الخلق بعد النبى صلى الله عليه وسلم على وأمر بالنداء أن برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير ، ولهذا يقول ان المأمون أظهر التشيع فى هذه الســـنة • والواقع ان المسألتين منفصلتان بالنسبة لتاريخ المأمون (انظر : دول الاسلام حوادث سنة ٢١١ هـ) •

(٢) التنبيه والاشراف : ٣٥٢ •

أمره لقيامه بالملك واضطلاعه به ، ولم ير أحداً أنه مفتقر إلى وزير يشركه في تدبيره .ولم يكن يسمى بين يديه أحداً من كتابه وزيراً ، ولا يكاتب بذلك . فلأجل ذلك ترك كثير من الناس أن يعد كتابه من الوزراء .

وفي كلام المسعودي بعض التناقض، فهو يقول إن أحمد بن أبي خالد هو الذي أبى أن يتسمى بالوزارة ، ثم يعود فيقول إن المأمون كره ذلك بعد ما كان من استبداد الفضل بن سهل . وتلك حقيقة يكاد يشير إليها كثير من المؤرخين، فأحمد بن أبي خالد وأحمد بن يوسف وأبو عباد ثابت بن يحيي وعمرو بن مسعدة بن صول . ومحمد بن يزداد ابن سويد كانوا مجرد مستشارين وكتاب للمأمون . ولم يتولوا شئون الوزارة بمسئولياتها الضخمة كما تولاها البرامكة من قبل . أو كما تولاها الفضل بن سهل .

وقد قام أحمدبن أبي خالد بدور كبير إلى جانب المأمون منذ دخوله إلى بغداد . وهو من أصل شامي . كان مولى لبني عامر بن لؤي . وكان أبوه كاتب سر ابن عبد الله كاتب المهدي ووزيره ، وكان ابن أبي خالد ذا كفاية عظيمة ، وهو الذي كفى المأمون شر طاهر ابن الحسين حين انتوى الغدر — كما سبق أن بينا — ولكن شرهه إلى الطعام كان من أعظم نقائصه حتى إنه ولى رجلا كورة عظيمة القدر مقابل فالوذج أهداه إليه . إلا أن قدرة المأمون وبراعته في استخدام الرجال جعلته يستطيع أن يستر هذا النقص في وزيره دون الإضرار

بمصالح الدولة أو الأفراد ، وقد هجا دعبل ابن أبى خالد لشراهته ، وذكر عمرو بن مسعدة ، فقال :

لولا تكون لكاتب لك ربعه
يقضى الحوائج مستطيل الراس

لم تغد بالملبون عند فطامه
يوماً ولا بمطجن القلقاس

أو كان مسعدة الكريم نجاره
بيت الكتابة فى بنى العباس

يغدو على أضيافه مستطعماً
كالكلب يأكل فى بيوت الناس(١)

ولما توفى ابن أبى خالد عام ٢١١ هـ. استعان المأمون بأحمد بن يوسف ابن القاسم بن صبيح الكاتب ، وهو من أهل الكوفة من موالى بنى عجل ، وكان يتولى ديوان الرسائل للمأمون منذ كان فى مرو ، وأعجب بكتابته إعجاباً شديداً ، وخاصة برسالته التى يعتذر فيها عن إقدام المأمون على قتل أخيه . واستطاعت الوشايات أن تفسد ما بينه وبين المأمون فقضى عليه بالبخور(٢) .

وتولى بعده أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى ، ويقول

---

(١) كتاب بغداد : ١٢٤ .
(٢) انظر القصة فى كتاب بغداد : ١٣١ .

عنه ابن الطقطقى إنه كان أهوج محمقاً . أما عمرو بن مسعدة بن سعد ابن صول فهو من أصل تركى . كان من عمال الدولة فظهرت كفايته وبلاغته . واستطاع أن يتصل بالخليفة ، بل كان هو وأبو عباد ثابت ابن يحيى يكتبان بين يدى المأمون ويتصلان بكل شئونه ،وكان المأمون من أشد المعجبين ببلاغة عمرو وفصاحته، وقد عمل كاتباً منذ أيام الرشيد. وكان البرامكة يثنون عليه ، وهو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولى الشاعر المعروف ، وقد توفى عمرو سنة سبع عشرة ومائتين وآخر من تولى شئون الحكم فى عهد المأمون عبد الله محمد بن يزداد بن سويد ، وهو من مجوس خراسان الذين أسلموا ، وقد توفى المأمون وهو ما يزال فى خدمته .

ويلاحظ أن كل الوزراء كانوا من الموالى . وهذا راجع إلى كونهم من كتاب الدواوين وغالبيتهم العظمى – إن لم يكونوا كلهم – من الموالى . ويضيف بعض الباحثين إلى قائمة وزراء المأمون يحيى بن أكثم التميمى ويجعلون وزارته بعد أحمد بن يوسف ،ولكن أغلب المؤرخين لا يثبتونه ضمن وزراء المأمون (١) .

ومما تقدم يتضح لنا أن المأمون لم ينعم بمقامه فى بغداد ، بل ظل كما كان فى مرو يخوض بحار السياسة ويبذل من نفسه لإصلاح شأن

(١) ممن جعله من الوزراء ابن طيفور ، وممن أسقطه ابن طباطبا والمسعودى .

دولته ، ويحاول أن يستميل الثائرين عليه باللين والموادعة . فإن أبوا خاض إليهم غمرات الحرب ، وكان يبذل فى ذلك جهداً ومالا حتى أتت عليه فترات كان لا يجد فى خزائنه مالا ينفق منه على نفسه أو على الجند[1] .

وكان لا يعتمد على وزرائه أو مستشاريه أو قضاته فى إنصاف الناس والنظر فى حاجاتهم وشكاواهم، بل كان كثيراً ماينهض بهذا العبء بنفسه ، لإحساسه العظيم بمسئوليته ، وما كان أعظمها فى تاريخ هذا الخليفة الذى عاش طوال حياته السياسية مناضلا ومات وهو يحمل سيفه فى يده .

---

(١) انظر : كتاب بغداد : ١٤٧ .

فى تيار الثقافة

منذ خرج العرب من جزيرتهم التقوا بثقافات أجنبية كثيرة ، أثرت فى تفكيرهم واتجاهاتهم العقلية تأثيراً واضحاً ، وكان لقاؤهم مع الأجناس المختلفة المغلوبة على أمرها لقاء اتحاد جنسى وفكرى وإن ظل للعرب ولغتهم السيادة والنفوذ ، ولكن كان العنصر الفارسى من القوة والانتشار بحيث جعل للغته مكاناً فى المجتمع الإسلامى منذ القرن الأول ، فتأثرت بها العربية بعض التأثر ،وظهر ذلك فى الشعر ، حتى إن شعراء البدو لم يعتصموا من تأثير الألفاظ الفارسية ، فكانوا يدخلونها فى شعرهم للتملح كما يقول الجاحظ[1] .

وقد يتساءل المرء : لماذا لم تتأثر العربية بغير الفارسية من اللغات المحلية فى أثناء مصارعتها إياها فى بيئاتها الطبيعية ، فنحن لا نكاد نجد مثل هذا التأثير الفارسى القوى بالنسبة للألفاظ السريانية أو القبطية

(١) البيان والتبيين ١ : ٧٩

مثلا. والسبب فى هذا يرجع إلى طغيان الحضارة الفارسية على غيرها من الحضارات، كما يرجع إلى تأثير الفرس القوى فى البصرة والكوفة بالذات، وهما مركزان إسلاميان خطيران فى الحياة الثقافية والعقلية العربية، وخاصة إبان تكونها وتشكلها منذ القرن الأول .

وقام الموالى والرقيق أيضاً بدور خطير فى تأثر العربية بالفارسية. وقد أدى ذلك إلى ظهور أسلوب عربى مولد له خصائص ومميزات يفترق بها عن أسلوب اللغة العربية الأصيلة التى جاء بها العرب المهاجرون إلى البلاد المفتوحة. وقد تكون هذا الأسلوب المولد من العوائد اللغوية الراجعة إلى اللهجة الدارجة فى مناطق العربية القديمة كما يقول « يوهان فك» ، إلا أنه تصور وجود لغة مولدة لا الأسلوب الذى أشرت إليه (١) .

ومما ساعد على وجود هذا الأسلوب المولد ظهور شعراء من غير العرب منذ النصف الثانى للقرن الأول الهجرى مثل زياد الأعجم وأبى عطاء السندى، ولا يعنى هذا أن الأسلوب العربى الفصيح قد انتهى أمره وغلبه هذا الأسلوب المولد، ولكن كان لكل منهما تيار يسير فيه، كان الأسلوب العربى الأصيل فى بيئات العلماء من أصحاب اللغة والقرآن والحديث والشعر ، وكان الأسلوب المولد يسرى خارج بيئات هؤلاء العلماء بين طبقات الشعب المختلفة .

---

(١) العربية : ٢٦ .

ولقد أدرك الأمويون بفطرتهم السليمة منذ القرن الأول خطر نمو هذا الأسلوب المولد على حياة العربية الفصحى فتحمسوا أشد التحمس لمبدأ تنقيتها من اللحن والألفاظ الدخيلة عليها .

وكان الخلفاء يبعثون بأبنائهم إلى البادية لينشأوا على تعلم اللغة الفصيحة فى القبائل العربية الأصيلة. ولكن هذه الحركة لم تصادف نجاحاً كبيراً أمام طغيان الأسلوب المولد ، وانتصار العناصر المعينة على قوته وانتشار نفوذه ، وخاصة بعد ظهور الموالى والأعاجم فى حزب قوى مسيطر ، كان له أكبر الأثر فى نجاح الدعوة العباسية . ولكن ليس معنى ذلك أن سقوط الأمويين كان له أثر خطير على حياة اللغة الفصيحة ، فبقاؤها كانت تؤكده عدة عوامل هامة ، منها أن هذه اللغة هى لغة القرآن فبقاؤها مرتبط ببقائه متلوا ومحفوظاً بين الناس . وكذلك كانت القبائل العربية المقيمة فى بواديها محافظة على هذه اللغة كل المحافظة لا ترضى بها بديلا ، ولا تخضع لتيار التطور اللغوى الجديد الذى يفرضه طغيان الأعاجم .

وقد ساعدت الحركة العلمية أيضاً على بقاء الأسلوب الفصيح ، ومدته بأسباب الحياة ، إذ بدأ العلماء يهتمون اهتماماً كبيراً بجمع شوارد اللغة العربية ومعرفة دقائقها وتسجيل شواهدها . وهناك عامل هام أيضاً فى بقاء الأسلوب الفصيح إلى جانب المولد . وهو عامل عجيب حقاً ، ولكنه كان من أقوى العوامل تأثيراً فى حياة العربية الفصيحة ،

ذلك العامل . هم الموالى الذين دخلوا فى الإسلام فأقبلوا على تعلم العربية وإتقانها ليصلوا عن طريقها إلى المناصب الكبرى فى الدولة ، وليشقوا طريقهم فى الحياة فى هذه الإمبراطورية الجديدة التى يحكمها سادة عرب . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كثير من حملة العلم فى مختلف الفروع القديمة والناشئة من أولئك الموالى . نجدهم يبرزون فى علوم الفقه والقرآن والحديث ، ويتولون مناصب الفقهاء والقضاة فى أنحاء الدولة الإسلامية . فعمر بن عبد العزيز مثلا جعل الفتيا بمصر لثلاثة منهم موليان ، فلما أنكر العرب ذلك قال عمر : ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون (١) . ونجد الموالى يبرزون فى علم اللغة العربية نفسه ، فلا يكاد يمضى قرن حتى نشهد سيبويه أستاذاً لعلماء النحو من العرب أنفسهم .

وبفعل هذه العوامل المختلفة عاش الأسلوب العربى الأصيل جنباً إلى جنب مع الأسلوب المولد ، ولم يضعف شأنه بسقوط الأمويين كما يظن أولئك الذين يتوهمون أن العروبة ماتت بانقضاء الدولة الأموية ، بل على العكس من ذلك نجد أن الأسلوب العربى الفصيح قد قوى شأنه فى منتصف القرن الثانى بعد قيام الدولة العباسية وتقدم الحركة العلمية فى شتى فروع التأليف . وكان عصر الرشيد نفسه من أزهى العصور بالنسبة لحياة اللغة العربية والتأليف فيها ، ويكفى أن نذكر من علماء

---

(١) خطط المقريزى ٢ : ٣٣٣ .

هذه الفترة الكسائى والأصمعى والفراء وأبا عبيدة وأبا زيد الأنصارى لنتبين صدق ما ذهبت إليه .

واهتم الخلفاء العباسيون اهتماماً كبيراً بتعليم أولادهم أصول العربية ، وقد رأينا ما فعله الرشيد فى تعليم ابنيه الأمين والمأمون . ويقول الرواة إن المأمون غضب حين سمع لحناً لبعض ولده ، فقال لهم : ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ، ويزين بهامشهده ، ويفل حجج خصمه ، بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، ليس لأحدكم أن يكون لسانه كاسان عبده أو أمته ، فلا يزال الدهـــر أسير كلمته [1] .

وإذا تركنا التطور اللغوى الذى كان أساساً للثقافة فى القرن الثانى وما تلاه ، ونظرنا فى نواحى التطور الفكرى فى هذا العصر وجدنا أن أثر الثقافة الفارسية فى المجتمع الإسلامى لم يكن لفظياً أو لغوياً فحسب ، بل تعدى ذلك إلى نواح أخفى وأدق بحيث لا تظهر لأول وهلة كهذه الأسماء الفارسية التى أطلقت على مظاهر الحضارة المختلفة من أنواع الأطعمة والملابس والأزهار والرياض وغير ذلك ، أو كطرق الغناء وفنون الإيقاع والآلات الموسيقية بأنواعها المختلفة ، بل نراه فى المذاهب والمعتقدات المختلفة التى شاعت فى القرن الثانى ، وتأثر بها كثير من العرب المثقفين .

فالمـــذاهب التى ترجـــع أصـــلا إلى الفرس . الثنـــوية وهم

(١) زهر الآداب ٣ : ١٤٤ .

أربع فرق : المانوية الذين يقولون إن للعالم أصلين : نور وظلمة وهما قديمان ، والديصانية وهم يقولون بالنور والظلمة أيضاً ولكن الفرق بينهم وبين المانوية أن المانوية ينسبون الحياة إلى النور والظلمة ، أما الديصانية فيقولون إن النور حي والظلمة ميتة . والفرقة الثالثة المرقونية الذين يثبتون متوسطاً بين النور والظلمة ويسمون ذلك المتوسط المعدل . والفرقة الرابعة المزدكية أتباع مزدك الذى أظهر دين الإباحة (١) . والذى كان بابك الخرمى واحداً من أتباعه . وغير فرق الثنوية هذه كان للفرس تأثير كبير فى بعض المذاهب الأخرى وخاصة فى فرق الغلاة من الشيعة الذين نادوا بفكرة المهدى المنتظر ، وهى فكرة فارسية أصلا وإن كان « ألفرد جيوم » يرى أن هذه الفكرة ولدت بتأثير اليهود والمسيحيين ، وأنها تكاد تكون فكرة عالمية إذ آمن بها بعض الهنود وغيرهم (٢) .

وأهم الثقافات التى التقى بها العرب وتأثروا بها — بعد الثقافة الفارسية — الثقافة اليونانية ، فقد أحس المسلمون حاجتهم إليها بعد امتداد حركة الفتوح إذ صادفوا مللا وديانات مختلفة ، كانت تقف عقبة فى سبيل انتشار الإسلام وتقدمه فى البلاد المفتوحة . وكان أصحاب هذه الديانات من السريان والنصارى والفرس الزراد شتيين والحرانيين الصابئة وغيرهم قد هضموا التراث اليونانى وتمثلوه

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٨٨ .
(٢) الاسلام : ١١٨ .

أحسن تمثيل ، كما مرنوا على أساليب الجدل والمحاجاة لإحاطتهم بوسائل المنطق اليونانى ، عندئذ أحس المسلمون حاجتهم إلى وسائل هذا المنطق ، وإلى التدرب على أساليب الجدل للدفاع عن الإسلام ضد خصومه ، وإقناع المنكرين له من أصحاب الديانات الأخرى ، ولهذا لم ير المتكلمون المسلمون مندوحة لهم عن التلمذة فى مدرسة المنطق الهلينى ، وبهذا وضع الأساس لبناء علم كلام إسلامى يعمل بأدوات هيلنية (١) .

ونشطت عندئذ ترجمة كتب أرسطو والمنطق اليونانى لمواجهة هذه الحاجة العملية التى استشعرها علماء الكلام المسلمون . أما الأدب اليونانى بجوانبه المختلفة فلم يصادف من العرب عناية تذكر . ويعلل كارل بكر ذلك بقوله : إن العوامل التاريخية والجغرافية والجنسية فى الشرق هى التى جعلته لا يعنيه من كتب اليونانيين إلا ما كان معترفاً به من الجميع ، وما كان فى الآن نفسه يلائم عقليته ، ونعنى به أولا وقبل كل شىء النزعة العقلية المنطقية ، فكل شىء كان نصيب الروح اليونانية فى صدوره أكثر من نصيب العقل اليونانى مثل الشعر الغنائى اليونانى والأدب الروائى كله ، وكل ما كان يونانياً بحتاً كآلهة هو ميروس وكبار المؤرخين اليونانيين ، كل هذه الأشياء ظلت أبوابها موصدة أمام الشرق (٢) .

---

(١) روح الحضارة العربية : ١١١ .

(٢) التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية : ٢٧ .

ولو قارنا هذا بإقبال العرب على ترجمة حشد كبير من مؤلفات الفرس فى التاريخ والسير أدركنا الفرق بين تأثير الثقافة الفارسية وتأثير الثقافة اليونانية . فالأول كان عاماً شاملا ، وكان ملائماً لتفكير العرب ومنحى عقليتهم بصورة عامه ، والآخر كان خاصاً بهذه الناحية المنطقية البحتة التى احتيج إليها فى نشأة علم الكلام عند المسلمين. أما ما رواه القفطى من أن حنين بن إسحق المترجم المشهور فى العصر العباسى ، كان يمشى فى شوارع بغداد وينشد شعراً باليونانية لهوميروس ، فلا يعدو أن يكون نزعة فردية لا يقاس عليها ولا تترتب عليها نتيجةما. اللهم إلا شيوع الثقافات الأجنبية فى ذلك العصر .

وكان من نتيجة دخول المنطق اليونانى والفلسفة اليونانية محيط الثقافة العربية عن طريق متكلمى النصارى وغيرهم ظهور فرق إسلامية متأثرة فى منهجها وبرامجها بهذا المنطق وبهذه الفلسفة كالمعتزلة والأشاعرة وغيرهم ، ويرى فون كريمر أن تطور الطوائف الدينية — منذ أواخر القرن الأول — والمبادىء المذهبية التى صدرت عنها قد حدث تحت تأثير الآراء المسيحية بوجه خاص ، لأن التراث اليونانى الذى نقل للعرب وصل إليهم فى ثوب هلينى متأخر ، أى فى صورة المسيحية الشرقية ، ثم فى صورة المانوية والزرادشتية المشبعة بالروح اليونانية . وكانت المسيحية أول نظام اتصل بالإسلام اتصالا وثيقاً فى دمشق أيام الحكم الأموى ، ولا بد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين ، والمسيحيين كانت متشعبة ، والمنافسات الدينية كانت مستمرة ، ومن

المحتمل أن تكون قد نشأت عنها الطوائف الإسلامية الأولى كالمرجئة والقدرية [1] ، ولما كان فون كريمر يرى أن مذهب المعتزلة كان امتداداً لمذهب القدرية الذى نشأ فى القرن الأول بحكم أن نقطة ابتدائهم كانت مذهب الاختيار وحرية الإرادة . لهذا يقرر وجود أثر مسيحى فى حركة الاعتزال[2] . ولكن نلينو يرفض فكرة الربط بين المعتزلة والقدرية أساساً ، وإن كانت القدرية فى رأيي[3] قد هيأت الأذهان لنشوء حركة الاعتزال فى البصرة . إذ كانت منتشرة فيها بصورة واسعة . حتى إن الخطيب البغدادى يقول : لو فتشت أهل البصرة وجدت ثلثهم قدرية [4] ، ولعله يقصد بالقدرية هنا المعتزلة بحكم هذا الارتباط الذى نشير إليه . والحقيقة إن حركة الاعتزال سواء أكانت امتداداً للمرجئة أم القدرية نشأت بتأثير الفلسفة اليونانية . وكان لها تأثير عميق فى الحياة السياسية والفكرية فى القرن الثانى . وخاصة فى عهد المأمون الذى كان على صلة وثيقة بها وبرجالها ، بل أراد فرضها على أهل السنة كما سنرى فى حديثنا عن موقف المأمون من العقيدة .

وفيما عدا التأثير الثقافى الفارسى واليونانى والثقافات الدينية المسيحية

---

(١) الحضارة الاسلامية : ٦٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه : ٧٢ .

(٣) التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية : ١٩٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١١ : ٢٠٠ .

وغيرها التى نقلت عن طريق السريان والحرانيين نجد أن الثقافة الهندية كان لها تأثير أيضاً فى الحياة العقلية فى القرن الثانى إذ شملت حركة الترجمة فى القرنين الأول والثانى كتباً هندية فى الأدب والرياضيات والإلهيات . وللجاحظ نص يؤكد ذلك يقول فيه : وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان وحولت آداب الفرس[1] . ويوقفنا الجاحظ على موضوعات الكتب المنقولة إلى العربية فيقول : « وحسبك ما فى أيدى الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات » . وما عده الجاحظ من هذه الموضوعات إنما يمثل فى الحقيقة ضروب المعرفة وأركان الثقافة التى كانت تسود القرن الثانى : إنها تبين أن العرب قد أقبلوا على ترجمة كل أنواع العلوم والفنون ليبنوا بها حياتهم الفكرية ، خاصة أن دور الترجمة فى كل أمة ناهضة هو الأساس لما يأتى بعد ذلك من طور الابتكار والإبداع .

والواقع أن الثقافة الهندية كانت من بين الثقافات التى تسربت إلى الفكر العربى عن طريق البصرة ، إذ كان أهم مركز مأهول فيها منذ القديم هو الأيلة التى كانت الميناء العراقى الرئيسى للتجارة مع الهند. حتى لقد عرفت هذه المنطقة عند العرب باسم أرض الهند أو ثغر الهند ، ثم كان فتح العرب للسند بعد ذلك عام ٩١هـ. منفذاً جديداً لتسرب

(١) الحيوان ١ : ٧٥ .

الثقافة الهندية إلى الفكر العربى إذ أصبح الجيل السندى عنصراً من العناصر التى يتكون منها المجتمع الإسلامى. وبدأ الموالى والرقيق من السند الذين انتشروا فى أنحاء المملكة الإسلامية ينقلون ثقافة وطنهم الأصلى بالصورة التى عرفناها من قبل ، فانضاف ذلك كله إلى ما قامت به الترجمة من تعريف العرب بالثقافة الهندية وتأثرهم بها ، بل إقبالهم عليها ، إذ كانت تتضمن فيما تضمنته من علوم وفنون قصصاً أسطورية كقصة السندباد وغيرها ، وهى التى كانت أساساً فيما يقال لألف ليلة وليلة ، وما يماثلها من قصص انتشر فى آفاق العالم الإسلامى وعرف به .

ونجد التأثير الهندى واضحاً فى المذاهب والمعتقدات التى كانت تسود القرن الثانى ، ففكرة التناسخ التى ظهرت فى معتقدات بعض الفرق إنما هى فكرة هندية حتى إن البيرونى يطلق عليها اسم «علم النحلة الهندية»(١) . ويقول البغدادى إن القائلين بالتناسخ كانوا موجودين قبل ظهور الدولة الإسلامية وهم يتمثلون فى صنفين : صنف من الفلاسفة ، وصنف من السمنية وأصحاب التناسخ من السمنية قالوا بقدم العالم وإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس ، وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت ، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح فى الصور المختلفة . وقد أثر هذا المذهب الخطير فى الفرق الإسلامية التى نشأت بعد ذلك وأهمها فرق

(١) تحقيق ما للهند من مقولة : ٢٤ .

الروافض الحلولية وهى البنانية والجناحية والخطابية والراوندية ، كما أثرت أيضاً فى فرق القدرية (١) .

ومن ذلك كله يتبين لنا أن القرن الثانى شهد حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة ، أولها الثقافة العربية الأصيلة التى تتمثل فى الشعر والقرآن والحديث وفقههما وعلوم اللغة العربية . وقد أحرزت هذه الفروع جميعها تقدماً كبيراً فى هذا القرن . بل إن بعضها خلق فيه خلقاً جديداً كالنحو والعروض مثلا ، كما جمع التراث الشعرى القديم لأول مرة ودون فى ذلك العصر . وهذه الثقافة العربية قد أخذت تهضم – منذ انتهاء حركة الفتوح – ثقافات الأمم الأجنبية التى استولى العرب على بلادها لتصبح غير محدودة بزمان أو مكان أو جنس ، ولكنها صارت ثقافة عالمية بكل ما فى هذا التعبير من معان . وقد آثرنا أن ننقل صورة التطور الثقافى فى هذا العصر لنبين أن المأمون الخليفة العالم كان وليد هذه الثقافات المصطرعة فى عصره ، وكان خير معبر عنها فى أقواله ومواقفه الفكرية ، وإن كان عصره غنياً بالعلماء الأفذاذ فى كل فروع المعرفة ، ففيه الشافعى وابن حنبل وسفيان بن عيينة ، وفيه الواقدى صاحب السير والمغازى ، وفيه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية وأبو عمرو الشيبانى اللغوى والفراء إمام العربية وقطرب النحوى والنضر بن شميل واليزيدى ويعقوب

---

(١) الفرق بين الفرق : ١٦٢ ، ١٦٣ .

الحضرمى . وأبو زيد الأنصارى وكثيرون غيرهم من علماء الفقه والحديث والشعر واللغة والسير والرواية ، إلى جانب الفلاسفة وأصحاب المذاهب الكلامية .

ولقد بينا من قبل نوع الدراسات التى أقبل عليها المأمون وكيف أنه برز فيها جميعاً منذ صباه الباكر ، ولكننا ينبغى أن نرى أثر ذلك فى حياته وسلوكه التفكيرى . لقد كانت ثقافة المأمون العربية عميقة شاملة . فى الأنساب واللغات وتاريخ العرب وأشعارهم ، وكان اهتمامه بالأدب كبيراً فقد كان عالماً بالشعر بصيراً به ، وكان هو نفسه شاعراً منذ كان شاباً صغيراً السن ، ويروى فى ذلك أن الرشيد كان قد أراد سفراً فأمر الناس أن يتأهبوا لذلك . وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع . فمضى الأسبوع ولم يخرج . فاجتمعوا إلى المأمون فسألوه أن يستعلم ذلك ، ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر . فكتب إليه المأمون :

يا خير من دبت المطى به
ومن تقدى بسرجه فرس
هل غاية فى المسير نعرفها
أم أمرنا فى المسير ملتبس
ما علم هذا إلا إلى ملك
من نوره فى الظلام نقتبس

إن سرت سار الرشاد متبعاً

وإن تقف فالرشاد محتبس

فقرأها الرشيد فسر بها (١) .

وقد ذكرنا من قبل أبياته التى كتبها فى جارية أبيه التى أحبها ووهبه الرشيد إياها :

ظبى كتبت بطرفى

من الضمير إليه

قبلته من بعيد

فاعتل من شفتيه

ورد أخبث رد

بالكسر من حاجبيه

فما برحت مكانى

حتى قدرت عليه (٢)

وهى أبيات تتميز بالرقة المفرطة التى عرف بها تغزل المولدين فى هذا العصر ، رقة فى الألفاظ وفى البحر الموسيقى القصير ، وفى القافية الواهنة ، وهذه الرقة نلمحها فى كل أشعار المأمون التى تغزل فيها — على قلة تلك الأشعار — فقد اشتهرت أبياته التى يقول فيها :

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢١٠ .

(٢) أمالى القالى ١ : ٢٢٥

بعثتـــك مرتاداً ففــزت بنـــظرة

وأغفـــلتنى حتّى أســـأت بك الظنا

فناجيت من أهــوى وكنت مباعداً

فياليت شعـــرى عن دنوك ما أغنْ

ورددت طـرفاً فى محاسن وجهها

ومتعت باستسمـــاع نغمتهـــا أذنا

أرى أثراً منـــه بعينيـــك بينـــا

لقد أخـــذت عينـــاك من عينه حسناً (١)

ويشير بعض الرواة إلى أن المأمون قد عول فى هذا المعنى على قول العباس بن الأحنف :

إن تشق عينى بهـــا فقـــد سعدت

عـــين رسولى وفـــزت بالخـــبر

وكلمـــا جـــاءنى الرســـــول لها

رددت عمـــــداً فى طرفـــه نظرى

يظهـــر فى وجهه محـــــاسنها

قـــد أثـــرت فيـــه أحسن الأثـــر

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٠٠ والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٢٩ وكتاب بغداد : ١٥٦ وقد وضع فيه « مشتاقا » بدلا من « مرتادا » عيون الأخبار ٤ : ١٠٥ والبيت الثالث زيادة فيه عن المصادر السابقة مع بعض تغيير فى الألفاظ .

خـذ مقـلتى يا رسـول عـارية

فـانظر بهـا واحتـكم على بصرى(١)

وليس بعيداً أن يكون المأمون قد اطلع على قول العباس وتأثر به ، فمن المعروف أنه كان معجباً بشعره إلى حد بعيد ، وكان يحفظ بعضه وربما أكثره . وبلغ من إعجاب المأمون بالعباس أنه تقدم للصلاة على جثمانه قبل الكسائى وإبراهيم الموصلى ، وقد ماتوا جميعاً فى يوم واحد — وذلك تكريماً للعباس فى قوله :

يا بعيـد الدار عـن وطنـه

هـائماً يبـكى على شجنـه

كلمـا جـد البـكاء بـه

زادت الأسـقـام فى بـدنه (٢)

ومع ذلك فإننا نرى أن أبيات المأمون أجود من ناحية صياغتها وروعة أدائها .

ومن شعر المأمون الرقيق فى التغزل أيضاً قوله :

لسـانى كتـوم لأسـراركم

ودمعى نمـوم لسـرى مـذيع

---

(١) انظر : كتات بغداد : ١٥٧ .

(٢) العقد الفريد ٥ : ٣٧٧ .

فلولا دموعى كتمت الهوى
ولولا الهوى لم يكن لى دموع (١)

ويذكر الرواة أبياتاً أخرى فى التغزل قالها المأمون وبلغ فيها من لطف الكناية ما حدا بالجرجانى الى إثباتها فى كتابه « الكنايات » ، ذلك أن المأمون لما طلب الدخول على بوران دافعوه لعذر بها فلم يندفع ، فلما زفت إليه وجدها حائضاً فتركها . فلما قعد للناس من الغد دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب وقال : يا أمير المؤمنين هناك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة وشدة الحركة والظفر بالمعركة ، فأنشده المأمون :

فارس ماض بحربته
صادق بالطعن فى الظلم

رام أن يدمى فريسته
فاتقته من دم بدم (٢)

وكان الشعر عند المأمون طرفة يلجأ إليها فى أوقات الصفو . فهو يصف الشطرنج لعبته المفضلة التى كان يخلو إليها حين لا تشغله أمور الدولة فيقول :

(١) تاريخ الخلفاء : ٢١٨ .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢٦٠ .

أرض مربعـــة حمـــراء من أدم

ما بـــين إلفـــين معـــروفين بالكرم

تذاكـــرا الحـــرب فاحتالا لها فطنا

بغـــير أن يأثمـــا فيهـــا بسفك دم

هذا يغير على هـــذا وذاك عـــلى

هذا يغـــير وعين الحـــزم لم تنم

فانظر إلى فطـــن حالت بمعـــرفة

فى عســـكرين بلا طبل ولا علم(١)

وحين أخمد عبد الله بن طاهر فتنة عبيد الله بن السرى فى مصر التى استشرت واستمرت وقتاً طويلا كتب المأمون لعبد الله بن طاهر يعبر عن صفو وده له ، ويعابثه بطريقة إخوانية لطيفة ، **قال** :

أخى أنـــت ومـــولاى

ومـــن أشـــكر نعمـــاه

فمـــا أحببت من أمـــر

فـــإنى الـــدهـــر أهـــواه

وما تـــكره من شـــىء

فـــإنى لســـت أرضـــاه

(١) كتاب بغداد : ١٥٨ .

لك الله على ذاك

لك الله لك الله [1].

وكان المأمون يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، **فهو يصف الصديق الحق بقوله :**

ان أخاك الحق من يسعى معك

ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا صرف الزمان صدعك

بدد شمل نفسه ليجمعك [2]

وبعث إليه عنبسة بن إسحق عامله على الرقة يصف خروج الأعراب بناحية سنجار وعبثهم بها، فرد عليه المأمون ببيتين يفخر فيهما بقوته على إخماد الثورات ، **قال :**

أسمعت غير كهام السمع والبصر

لا يقطع السيف إلا فى يد الحذر

سيصبح القوم من سيفى وضاربه

مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر [3]

وجلس المأمون يوماً لينظر فى المظالم، فتقدمت إليه امرأة بشكواها وقد صاغتها شعراً ، **قالت :**

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٦ وكتاب بغداد : ٨٣

(٢) زهر الآداب ٢ : ٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه ٤ : ٢٣١ .

يا خير منتصف يهدى له الرشد
ويا إماماً به قد أشرق البلد

تشكو إليك عميد القوم أرملة
عدى عليها فلم يترك لها سبد

وابتز منى ضياعى بعد منعتها
ظلماً وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد
عنى وأقرح منى القلب والكبد

هذا آذان صلاة العصر فانصرفى
وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد

فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا
ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

ولا شك أن هذه الأبيات على بساطتها تعبر عن ميل فطرى فى المأمون إلى قول الشعر .

وشبيه بهذه الحادثة ما وقع بين المأمون وإبراهيم بن المهدى فقد أراد المأمون أن يعابثه بعد أن عفا عنه ، فقال له : أنت الخليفة الأسود ؟

فقال : يا أمير المؤمنين أنت مننت على بالعفو وقد قال عبد بنى الحسحاس :

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن لـــه
عند الفخـــار مقام الأصـــل والورق
إن كنت عبداً فنفســـى حـــرة كرماً
أو أسود الجـــلد إنى أبيض الخـــلق

فقال المأمون : يا عم خرجك الهزل إلى الجد ، ثم أنشأ يقول :

ليس يـــزرى الســـواد بالرجـــــل
الشـــهم ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يـــكن للســـواد منـــك نصيب
فبيـــاض الأخـــلاق منـــك نصيبى (١)

ويبدو أن المأمون كان مغرماً بالعبث بعمه الذى شق عليه عصا الطاعة ، فقد روى أن إبراهيم بن المهدى ـ وكان ذا جثة عظيمة ـ دخل يوماً على المأمون فتأمل جثته ، وقال : يا إبراهيم عشقت قط؟ قال : يا أمير المؤمنين أجلك عن الجواب فى هذا ، قال : بحياتى اصدقنى . قال : وحياتك ما خلوت من عشق قط . قال له : كذبت وحياتك يا أبا إسحق :

وجـــه الـــذى يعشـــق معـــروف
لأنـــــه أصفـــــر منحـــــوف

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٧٣ .

ليس كمن تلقاه ذا جثة
كأنه للذبح معلوف ! (١)

ومما يدل على سرعة بديهة المأمون أيضاً ما روى عنه حين أهدى إليه عبد الله بن طاهر قينة وأمرها أن تنشد المأمون شعراً صنعه عبد الله يمدح به نفسه، فلما جلست فى مجلس المأمون أنشأت تقول كما أمرها عبد الله :

أغمدى سيفى وقولى
جم يا سيف طويلا
قد فتحن الشرق
والغرب وآمنت السبيلا

فلما فرغت ، قال لها المأمون، لا تقطعى صوتك وقولى ما أقول لك :

فبنا نلت الذى قلت
فدع عنك الفضولا
أنت لولا نحن فى
الشبكة لم تسو فتيلا

ثم قال : ارجعى إليه فأنشديه هذا فإن شاء بعد فليردك (٢) .

---

(١) كتاب بغداد : ١١١ .
(٢) المصدر نفسه : ٩٠ .

وكان المأمون مشغوفاً بالحكمة يصوغها شعراً ونثراً . وهو يحاول أن تتضمن فكرة جديدة ، فمن ذلك قوله :

فلو كان يستغنى عن الشكر ما جد
اكثرة مال أو علو مكان

لما ندب الله العباد لشكره
فقال اشكروا لى أيها الثقلان (١)

ولم يكن المأمون يعالج الشعر ترفاً وتزجية للوقت ، بل كان يعبر به عن نفسه – كما رأينا – وعن أحاسيسه ، ويحاول الرد على الذين يجابهونه بأشعارهم : يضاف إلى ذلك شدة بصره بالشعر الجيد والردىء ، وصدق حكمه عليه . وفهمه لصناعته . أنشده عمارة بن عقيل قصيدة يمدحه بها كانت فى مائة بيت ، فكان عمارة يبتدىء بصدر البيت فيبادره المأمون إلى قافيته ، فقال عمارة : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط ، قال المأمون : هكذا ينبغى أن يكون ، ثم أقبل على عمارة فقال : أما بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قصيدته التى يقول فيها :

(تشط غداً دار جيراننا) ، فقال ابن العباس : (وللدار بعد غد أبعد) حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن العباس ، ثم قال : أنا ابن ذاك (٢) .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ١٤٧ .
(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٠٠ .

ثم قابل الشاعر عبد الله بن أبى السمط عمارة بن عقيل فقال له : إن المأمون لا يبصر الشعر ، قال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ، فوالله إناك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره ، قال عبد الله : إنى أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له ، قال عمارة : وما الذى أنشدته ؟ قال : أنشدته :

أضحى إمـــام الهـــدى المـــأمون مشـــتغلا
بالـــدين والنـــاس بالدنيـــا مشـــاغيل

قال عمارة : إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها ، فى يدها سبحتها ، فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ، **هـــلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز ابن الوليد :**

فـــلا هو فى الدنيـــا مضـــيع نصيبه
ولا عرض الدنيـــا عن الديـــن شـــاغله(١)

وكان عمارة بن عقيل عند المأمون يوماً فقال له : ما أخبثك يا أعرابى ، **كيف قلت :**

قالت مغداة لما أن رأت أرقى
والهم يعتـــادنى من طيفه لـــمم

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٠٢ وفى تاريخ بغـــداد ١٠ : ١٨٩ مروان بن أبى حفصة بدلا من عبد الله بن أبى السمط .

نبيت مــالك فى الأدنــين آصرة

وفى الأباعــد حــتى حفــك العدم

فاطلب إليهــم ترى ما كنت من حسن

تسدى إليهم فقــد باتت لهــم صرم

فقلت عــذلك قــد أكثرت لائمتى

ولم يمت حــاتم هــزلا ولا هــرم

أين رميت بنفسك إلى هرم بن سنان سيد العرب وحاتم الطائى؟ رأقبل ينثال على عمارة بفضلهما (١) .

وحين تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل مدحه محمد بن حازم الباهلى بقوله :

بــارك الله للحســن

ولبــوران فى الختن

يا ابن هــارون قــد

ظفــرت ولكن ببنت من؟!

فلما نمى هذا الشعر للمأمون لم تغب عنه سخرية الشاعر فقال : والله ما ندرى خيراً أراد أم شراً (٢) .

---

(١) كتاب بغداد : ١٧١ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢٥٩ .

ومما يدل على إحاطة المأمون الواسعة بإنتاج الشعراء فى عصره سؤاله الدائم عن هذا الشاعر أو ذاك واستجادته لقصائد شعراء مختلفين. فهو يثنى على شعر للعباس بن الأحنف ، ولأبى نواس ولمسلم بن الوليد وللحسين بن الضحاك ، ولعلى بن جبلة ولأبى الشيص ، وقد أفرط فى استحسان قصيدة لأبى الشيص — كما يقول ابن المعتز — تدل على ذوقه الأدبى الرفيع . وهى القصيدة التى يقول فيها :

جـــلا الصبح لـــذات الكرى عن جفونه
وفى صدره مثـــل الســـهام القـــواصد

تمكن من غـــراته الحب فانتـــحى
عليـــه بـــأيـــد أيـــدات حـــواشد

إذا خـــطرات الشـــوق قـــلبن قـــلبـــه
شـــددن بأنفـــاس شـــداد المصاعد

يـــذكـــره خفـــض الهـــوى ونعيمه
ســـوالف أيـــام وليس بعـــائد (١)

وكان المأمون كلما ولى رجلا سأله : أتروى شيئاً من الشعر ؟ وكلما سمع شعراً عذباً استجاده ، دعا بدواة فكتبه(٢) .

---

(١) طبقات الشعراء : ٨٦ .
(٢) انظر : كتاب بغداد : ١٦٤ .

وأخبار المأمون تدل جميعاً على أنه كان يعقد مجالس تنشد فيها الأشعار ، ويتناقش الناس حولها ، مما يشير إلى اهتمامه العظيم بالشعر وروايته ، وفى أحد هذه المجالس كان عند المأمون جماعة من قريش فسألهم : أيكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبعرى التى يعتذر فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مصعب بن عبد الله الزبيرى : أنا يا أمير المؤمنين وأنشده القصيدة التى مطلعها :

منع الرقـــاد بـــلابل وهمـــوم
والليـــل معتـــلج الـــرواق بهيم

فأمر له بثلاثين ألف درهم وقال : ليكن القرشى مثلك[1] .

وهكذا كان المأمون مع الشعراء أجود من السحاب الحافل والريح العاصف كما وصفه أحد عماله . ومما يروى فى ذلك أن شاعراً بصرياً من تميم كان معروفاً بالظرف فأغراه والى البصرة بأن يتوجه إلى مدح المأمون ، وكان وقتها فى الشام يتهيأ لغزو الروم — وفى الطريق قابل الشاعر فارساً كهلا على بغل فاره فسلم عليه وسأله عن نسبه وقصده . فقال الرجل : قصدت هذا الملك الذى ما سمعت بمثله أندى راحة قال فما الذى قصدته به ؟ قال : شعر طيب يلذ على الأفواه ، قال الفارس : فأنشدنيه ، فغضب الشاعر وقال : ياركيك أخبرتك أنى قصدت الخليفة

(١) المصدر نفسه : ٥٣ .

بشعر قلته ومديح حبرته ، تقول أنشدنيه . قال : وما الذى تأمل فيه ؟ فقال الشاعر : إن كان على ما ذكر لى عنه فألف دينار ، قال الفارس : فأنا أعطك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً ، فأنشده قوله :

مــأمون ياذا المـــنن الشـــريفة

وصـــاحب المـــرتبـــة المنيفـــة

وقـــائـــد الكتيبـــة الكثيفـــة

هـــل لك فى أرجـــوزة ظريفة

أظرف من فقـــه أبى حنيفة . . إلخ

وما إن انتهى الشـــاعر من أرجوزته حتى رأى زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فارتاع الرجل ، فقال له المأمون : لابأس عليك أى أخى ، فقال الشاعر : يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ، أتعرف لغات العرب ؟ قال : أى لعمر الله . قال : فمن جعل الكاف منهم مكان القاف ؟ قال : هذه حمير . قال : لعنها الله ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم . فضحك المأمون وعلم ما أراد ، والتفت إلى خادم إلى جانبه وقال : أعطه ما معك فأخرج له كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار فأخذها الشاعر ومضى(١) .

وقال المأمون يوماً لمحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المديح

(١) المصدر نفسه : ١٥٠ ويقصد الشاعر أنه آراد بكلمة (ركيك) التى وصف بها المأمون لفظ (رقيق) ولكنه نطقها بلغة حمير .

والهجاء والمراثى ، ولك بكل بيت كورة ! [1] ، وقد تكون فى هذه الرواية مبالغة ، ولكنها تدل على أى حال على اهتمام المأمون العظيم بالشعر واستعداده للإثابة الجزيلة عليه .

وعلى الرغم من تقبل المأمون لمديح كثير من الشعراء الأكابر والأصاغر فى عصره ، منذ كان طفلا فى عهد أبيه الرشيد حتى صار حاكماً على خراسان ثم خليفة يقيم فى مرو ثم فى بغداد ، إلا أن صلته ببعض الشعراء الكبار فى عصره كانت تحكمها ظروف نفسية أو تاريخية معينة .

مثال ذلك دعبل الخزاعى شاعر الشيعة فقد كانت صلته بالمأمون تحكمها علاقة المأمون بالشيعة ، فحينما صافاهم مدحه دعبل كما رأينا ، فلما عاد إلى العباسيين ، هجاه دعبل هجاء مراً كما فى قوله :

إنى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد[2]

بل كان دعبل يهجو العباسيين جميعاً — كما رأينا فى أبياته التى رثى بها على بن موسى الرضا ، وكما فى أبياته التى يهجو فيها إبراهيم بن

---

(١) المصدر نفسه : ١٧١ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٣ وهو يفتخر بقتل طاهر بن الحسين الأمين وطاهر مولى لخزاعة قبيلة دعبل .

المهدى عم المأمون لما تولى الخلافة العباسية فترة من الزمان فى أثناء الاضطراب الذى حدث ببغداد ، فهو يقول فيه :

نفر ابن شكلة بالعراق وأهله
فهفا إليه كل أطيش مائق
إن كان إبراهيم مضطلعاً بها
فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل
ولتصلحن وراثة للمارق
أنى يكون وليس ذاك بكائن
يرث الخلافة فاسق عن فاسق (١)

وعلى الرغم من هجاء دعبل للمأمون ، إلا أن المأمون كان معجباً بشعره كل الإعجاب ، حتى بهجائه لعمه وله وللعباسيين جميعاً ، فقد كان ينظر إلى الشعر نظرة موضوعية فلا يملك إلا الإعجاب بحس الشاعر المرهف والعالم البصير ، وقد أبدى هذا الرأى فى أكثر من مناسبة . ولما دخل المأمون بغداد أحضر دعبلا بعد أن أعطاه الأمان ، فعاتبه على هجائه له وطلب إليه أن ينشده قصيدته التائية فاستعفاه ، فقال : لا بأس عليك وقد رويتها ، وإنما أحببت أن أسمعها منك ، فأنشدها دعبل . فلما انتهى إلى قوله :

(١) المصدر نفسه ومخارق وزلزل معروفان بالموسيقى .

ألم تر أنى مذ ثلاثين حجة
أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم فى غيرهم متقسماً
وأيديهم من فيئهم صفرات

إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم
أكفا عن الأوتار منقبضات

وآل رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد غلظ القصرات

بنات زياد فى القصور مصونة
وبنت رسول الله فى الفلوات

بكى المأمون وجدد له الأمان وأحسن له الصلة(١) .

أما علاقة الحسين بن الضحاك بالمأمون فمرد سوئها أن الحسين كان نديم الأمين فكان يتورط فى مديحه إلى حد هجاء المأمون . ولما قدم المأمون إلى بغداد طلب أن يسمى له قوم من أهل الأدب يجالسونه ، فذكر له جماعة منهم الحسين بن الضحاك فلما بلغ اسمه قال : **أليس الذى يقول فى المخلوع :**

هلا بقيت لسد فاقتنا
فينا وكان لغيرك التلف

(١) زهر الآداب ١ : ٨٦ والقصرات أصول الأعناق وهى كناية عن الرفاهية والنعمة .

فلقـد خلفت خـلائفا سلفوا

ولسـوف يعوز بعـدك الخلف

لا حاجة لى به لا يرانى والله إلا فى الطريق (١) .

وإذا صحت هذه الرواية فإن المأمون لم يذكر إلا أخف شعر الحسين ابن الضحاك الذى يعرض به فيه ، ذلك أن مقتل الأمين كان صدمة عنيفةعلى الحسين فبالغ فى رثائه والبكاء عليه . حتى إن أبا الفرج الأصفهانى يقول: «وبلغ من جزعه عليه أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه . ويدفعه ويقول إنه مستتر » . **ومما قاله فى رثاء الأمين وهجاء المأمون:**

أطل حـزناً وابك الإمام محمداً

بحزن وإن خفت الحسـام المهندا

فـلا تمت الأشـياء بعـد محمد

ولا زال شمـل الملك فيها مبـددا

ولا فرح المأمون بالمـلك بعـده

ولا زال فى الدنيـا طريداً مشرداً

وقال أيضاً :

ومما شجـا قـلبى ويسـكب عـبرتى

محـارم من آل الرسـول استحـلت

---

(١) كتاب بغداد : ٣٧

ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها
كعاب كقرن الشمس حين تبدت

وسرب ظباء من ذؤابة هاشم
هتفن بدعوى خير حى وميت

أرد يدا منى إذا ما ذكرته
على كبد حرى وقلب مفتت

فلا بات ليل الشامتين بغبطة
ولا بلغت آمالهم ما تمنت (١)

ويذكر ابن الأثير أن المأمون قد آلمته هذه الأبيات فأحضر الحسين وقال له : هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت ؟ قال : لا . قال : فما قولك الأبيات .. فقال : يا أمير المؤمنين لوعة غلبتنى وروعة فاجأتنى . ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى . وسيد فقدته فأقلقنى ، فإن عاقبت فبحقك ، وإن غفرت فبفضلك . فدمعت عين المأمون وقال: قد عفوت عنك ، وأمرت بإدرار أرزاقك عليك . وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى عن استخدامك ، ولكن الحسين بن الضحاك لم يسلم بهذه النتيجة فيما يبدو ، فحاول أن يسترضى المأمون بشتى الطرق . ووسط فى ذلك عمرو بن مسعدة ، كما يتضح لنا من قصيدته التى كتبها إليه وقال فيها :

---

(١) الديوان : ٣٢ .

أنت طودى من بين هـذى الهضاب

وشهابى من دون كل شهاب

أنت يا عمرو قوتى وحياتى

ولسانى وأنت ظفرى ونابى

أتـرانى أنسى أياديك البيض

إذا اسود نائل الأصحاب

أين عطف الكرام فى مأقط

الحاجة يحمون حوزة الآداب

أين أخلاقك الرضية حالت

فى أم أين رقة الكتاب

إن عطف الأديب فى بلد

الغربة جود على ذوى الألباب

أنا فى ذمة السحاب وأظما

إن هذا لوصمة فى السحاب

قم إلى سيد البرية عنى

قومة تستجو حسن خطاب

وكتب إلى المأمون نفسه قصيدته التى مطلعها :

أجــرنى فــإنى قــد ظمئت إلى الوعــد
متى تنجــز الوعــد المؤكـــد بالعهد[1]

ويبدو أن الحسين انقطع عن قول الشعر فيما يجيده من الخمر والغزل والملاهى طوال عهد المأمون خشية أن يأخذه بذلك وهو غاضب عليه [2] . والدليل على هذا إشارته التى يقول فيها عن شعره فى إحدى القصائد (بضاعة أكسدها المأمون) [3] . ويبدو أن المأمون رضى أخيراً عن الحسين فأراد استقدامه -- وإن كان قد ظل يصله وهو مقيم بعيداً عنه فى البصرة -- فقد ذكر ابن المعتز أن أحد البصريين قدم على المأمون فقال له : كيف ظريف شعرائكم وواحد مصركم ؟ فلما أنكر البصرى معرفته به قال المأمون : **ذاك الحسين بن الضحاك ، أليس هو الذى يقول :**

رأى الله عبــد الله خــير عباده
فمــلكه والله أعـــلم بالعبـــد

ما قال فى أحد من شعراء زماننا أبلغ من بيته هذا ، فاكتب إليه فاستقدمه ، فلما أعلمه البصرى مرضه ، كتب المأمون إلى عامل الخراج على البصرة ليعطى الحسين ثلاثين ألف درهم[4] .

(1) الديوان : ٤٦

(2) انظر : مقدمة الديوان : ١٧ .

(3) الديوان : ١١٠ .

(4) طبقات الشعراء : ٢٦٩ .

وشاعر ثالث من أكبر شعراء ذلك العصر ، لم تكن صلته بالمأمون قوية ، على الرغم من أنه نال شهرة واسعة فى عهد المعتصم ، وما نظن أنه كان مجهول القدر فى أيام المأمون ، ونقصد به أبا تمام . لقد ولد أبو تمام عام ۱۷۲ هـ. على أصح الأقوال فهو قريب إذن من عمر المأمون. أى أنه صار شاعراً ناضجاً معروفاً حين أصبح المأمون خليفة ، أو على الأقل حين استقر له الأمر فى بغداد عام ٢٠٤ هـ. ، يقول عمر فروخ فى دراسته عن أبى تمام(١) . إن أبا تمام قد سعى ليتصل بالمأمون وهو يومذاك فى الشام ــ وكان ذلك نحو عام ٢١٥ هـ. كما نعلم من مصاحبتنا لحكم المأمون فى بغداد ــ فلما دخل عليه مدحه ، ولكنه لم يظفر منه بما يؤمل ولا بأدنى مما يؤمل ، بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد. فإن المأمون كان قد انقلب على آل على فأوغر صدره أن يرى أبا تمام يمدحهم ويعرض ببنى العباس فى قصيدته التى مدحه فيها وهى التى مطلعها :

دمن ألم بهـــا فقـــال ســـــلام

كم حل عقـــدة صبره الإلمـــام

ولكن الدكتور البهبيتى يرى أن أبا تمام مدح المأمون بقصيدتين أخريين الأولى :

---

(١) أبو تمام : ١٦ .

كشف الغطاء فأوقدى أو أخمدى
لم تكمدى فظننت أن لم تكمدى

والأخرى :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
وغدا الثرى في حليه يتكسر [1]

ومع ذلك لا نرى المأمون قد قرب إليه أبا تمام أو أدخله فى بطانته من الشعراء ، مع أن ذكر أبى تمام يتردد مع شعراء أقل منه شأناً كانوا يترددون كثيراً على المأمون مثل عمارة بن عقيل ودعبل الخزاعى [2] . ويبدو لى أن السبب الذى ذكره عمر فروخ ليس مقنعاً تماماً ، أو على الأقل ليس كل ما يقال فى هذه القطيعة بين المأمون وأبى تمام . بل يجب أن نضيف إليه أن وجود أبى تمام فى بطانة أبى دلف العجلى وتردده عليه — كما تشير الروايات المختلفة — كان من الأسباب التى جعلت المأمون يجفوه . ودليلنا على ذلك موقف المأمون من على بن جبلة ، فقد رفض مدحه له لاختصاصه بأبى دلف ومدحه الرائع له [3] .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا أخبار المأمون مع شعراء عصره ، أو آرائه فى الشعراء السابقين الذين كانوا موضع نقاش دائم بينه وبين مجالسيه من أهل الأدب . وغاية ما يقال فى ذلك أن وجود المأمون فى

(١) أبو تمام للبهبيتى : ١١٠ .
(٢) انظر كتاب بغداد : ١٣٤ ، ١٣٦ .
(٣) المصدر نفسه : ١٥٩ .

الخلافة كان دفعة قوية للشعر فى أيامه لبدءره واهتمامه به ، وإثابته للشعراء. ونستطيع أن نجد أخباراً كثيرة للمأمون — فيما عدا من ذكرنا من الشعراء — مع أبى العتاهية وأبى نزار الضرير وأبى العميثل وجحشويه وخالد القناص والعتابى وإبراهيم بن المهدى الذى كتب فى المأمون مدائح رائعة — ومن إليهم . أما أبو نواس فقد مات قبل تولى المأمون الخلافة ، **وكان قد يئس من الأمين فقال فى سجنه :**

أما الأمين فلست أرجو دفعه
عنى فمن لى اليوم بالمأمون

ويقال إن المأمون لما بلغه ذلك قال : والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمله ، ولا عجب فى ذلك فقد كان المأمون يعجب بشعر أبى نواس إعجاباً شديداً حتى ليفضله على كثير من الشعراء فى القديم والحديث كما يخبرنا ابن طيفور[1] .

وكان المأمون يعجب بالبلاغة أينما كانت سواء فى شعر أم نثر : روى أحمد بن يوسف قال: دخلت على المأمون وفى يده كتاب وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعد فيه بصره ويصوبه، فالتفت إلى وقد لحظنى فى أثناء قراءته للكتاب، فقال : أراكمنكراً منى ما تراه ، قلت: نعم وقى الله أمير المؤمنين المخاوف . قال: لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأت كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة ، فإنى

(١) انظر كتاب بغداد فى مواضع مختلفة .

سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه : كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من الأجناد فى الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أعطياتهم واختلت أحوالهم « ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه فى الأجناد وإعفائه سلطانه من الإكثار » (١).

لهذا لم يكن غريباً أن يحف بالمأمون أعظم الكتاب فى ذلك العصر ، الذين كان لهم مكان فى تاريخ النثر العربى مثل أحمد بن يوسف وعمرو ابن مسعدة والفضل والحسن ابنى سهل ، بل إننا نعد طاهر بن الحسين من أعظم الكتاب فى ذلك العصر ، ويكفى أنه صاحب الرسالة المشهورة التى كتبها لابنه عبد الله عند خروجه لحرب نصر بن شعث(٢) والتى وصفها المأمون بقوله : ما بقى أبو الطيب (طاهر بن الحسين) شيئاً من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقديم الخلافة ، إلا وقد أحكمه وأوصى به ،ولهذا أمر المأمون أن يكتب نص الرسالة ويوزع

---

(١) زهر الآداب ٣ : ٢٦٤ .

(٢) انظر نص الرسالة فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٨ حوادث سنة ٢٠٩ وانظر رسالة طاهر الى المأمون بعد مقتل الأمين حوادث سنة ١٩٨ ، وخطبته فى الناس بعد دخول بغداد ١٠ : ٢٠٦ .

على جميع العمال فى مملكته[1] .ولم يكن الأدب وحده نصيب المأمون من ثقافة عصره الواسعة، بل كان ضليعاً فى الفقه أيضاً ، بصيراً بالسنن وفرائض الدين، بل كانت له مشاركة فى فروع المعرفة كلها التى كانت سائدة فى عصره، يقول عنه أبو حنيفة الدينورى إنه نجم ولد العباس فى العلم والحكمة ، وإنه أخذ من جميع العلوم بقسط ،وضرب فيها بسهم[2] ، ويقول عنه ابن الطقطقى إنه من أفاضل الخلفاء والعلماء والحكماء[3] ، ويصفه جمال الدين القاسمى بقوله: « عرف الخليفة المأمون بمحبته للعلم والعلماء ، وشغفه بالحكمة والحكماء ، بل لم ير فى أولاد الملوك من يعشق العلوم الحكمية على حداثة سنه ، وأقام بين العلماء لمناظرتهم فى جميع أنواع العلوم مثله، فما دخل عليه مرة إلا وألفى فى مجلس من العلماء والأدباء ، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد ، فقد كان العلماء والأدباء لا يفارقونه فى حضر ولا سفر . . وإنما قرب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب والحرص على إحراز العلوم . . وكان من الفضل بحيث إن مآدبه لم تخل قط من عالم أو أديب أو شاعر . وبلغ به التواضع لهم أن معاوية المحدث الضرير كان إذا جلس إلى طعامه قام الرشيد من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء »[4] .

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٤ .

(٢) الأخبار الطوال : ٣٧٨ .

(٣) الفخرى : ٢٩٧ .

(٤) تاريخ الجهمية والمعتزلة : ٤٧ .

ويقول « ول ديورانت » إن تشجيع المأمون للفنون والعلوم والآداب والفلسفة كان ذا أثر أعظم مما كان فى عهد أبيه، فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية والأسكندرية وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية، وأنشأ مجمعاً علمياً فى بغداد ومرصدين فيها وفى تدمر، وكان الأطباء والفقراء والموسيقيون والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون بعطاياه[1] .

هذه بعض أقوال الباحثين من قدامى ومحدثين عن علم المأمون وأثره فى تشجيع العلوم والآداب فى عصره، فما حقيقة ذلك؟ يذكر القفطى أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض مشرباً بحمرة، واسع الجبين، مقرون الحاجبين، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل جالس على سرير . قال المأمون : وكأنى بين يديه وقد ملئت له هيبة، فقلت له . من أنت ؟ فقال : أنا أرسطوطاليس، فسررت به وقلت : أيها الحكيم أسألك قال : سل، قلت : ما الحسن ؟ قال : ما حسن فى العقل، قلت : ثم ماذا ؟، قال : ما حسن فى الشرع . . . فلما استيقظ المأمون من منامه حدثته نفسه، وحثته همته على تطلب كتب أرسطوطاليس فلم يجد شيئاً منها فى بلاد الإسلام .. وتمضى القصة إلى نهايتها لتؤكد أن المأمون بذل كل ما فى وسعه لاستحضار الكتب

---

(١) قصة الحضارة ١٣ : ١٦ .

اليونانية وترجمتها بسبب هذا الحلم[1] ، ويعلق « روزنتال » على ذلك بقوله : إن بعض حلقات المفكرين المسلمين كانت ترى أن الهنود هم واضعو العلوم جميعاً ، وقد نسبوا إلى المنصور أنه أوحى إليه فى حلم ما شدد من عزمه فى نقل العلوم الفلكية والرياضية ، والحصول على ترجمة لكتاب كليلة ودمنة من بلاد الهند ، كما أن بعض الحلقات الأخرى أرادت أن تبين فضل اليونان على الحضارة العربية فأوحت إلى المأمون هذا الحلم ، ويبدو أن نظرية العلماء المسلمين فى أصل العلوم ونشأتها لم تكن تميل إلى الأخذ بنظرية التطور التدريجى ، بل هى تخضعها للسعى والجهد العقلى عند الإنسان ، أو تجعلها نتيجة وحى سماوى » [2] .

والحقيقة إن المأمون قد اتصل بالفلسفة اتصالا وثيقاً منذ كان شاباً يافعاً ، فقد عشق بفطرته العلوم العقلية ومال إليها ، ويقول أبو حنيفة الدينورى إن أستاذه فى الأديان والمقالات أبو الهذيل العلاف [3] ، ثم اتصل بعلوم عصره ومعارفها المختلفة ، فشجع الحركة العلمية تشجيعاً قوياً بما أشرب قلبه من حب العلم ، وكان تشجيعه لكل العلوم على قدم المساواة ، ومن هنا جاء الازدهار العظيم فى حياة الترجمة فى عصره . على أننا ينبغى أن نقرر أن المأمون لم يبدأ الترجمة ولم يكن أول خليفة

---

(١) اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ٢٢ .

(٢) مناهج العلماء فى البحث العلمى : ١٩٩ .

(٣) الأخبار الطوال : ٣٧٨ .

أعان على نقل العلوم المختلفة وشجعها ، ولعلنا أشرنا إلى ذلك فى أول هذا الفصل ، فقد بدأت الترجمة منذ العصر الأموى ، ويشير بعض الباحثين إلى أهمية الدور الذى قام به خالد بن يزيد بن معاوية الذى لقب بالحكيم أو الفيلسوف ، وإن كان بعض الدارسين يقللون من أهمية هذا الدور ويكادون ينكرونه ، ويقول فى ذلك « ألدو ميبلى » : لم يكن هناك علم عربى حقيقى قبل عصر العباسيين ، بغض النظر عن بعض شواذ واستثناءات ، ففى القرن الأول من خلافة العباسيين كان المترجمون من الإغريقية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية هم الذين يحتلون المرتبة الأولى من النشاط العلمى ، ولا سيما أولئك المترجمون الذين كانوا من المسيحيين المنشقين ، مثل تيوفيل بن توما الرهاوى الذى كان فلكى الخليفة المهدى ، وقد ترجم من السريانية كتاباً لجالينوس ، ومثل جرجيس بن جبريل بن بختيشوع الذى عمل عند المنصور ، وهو أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الذائعى الشهرة ، ومنهم حفيده جبريل بن بختيشوع ، وأبو يحى البطريق وابنه أبو زكريا يحيى بن البطريق ، وقد عدد ميبلى الترجمات التى قام بها هؤلاء المترجمون جميعاً . وهناك علماء آخرون من الفرس قاموا بدور مهم فى الترجمة قبل عصر المأمون ، مثل يعقوب بن طارق ، ومحمد بن إبراهيم الفزارى الذى كان أبوه فلكياً مشهوراً ، وقد كتب منظومة فى الفلك[1] ، ويقال إنه أول من

---

(١) انظر : الوافى بالوفيات ١ :٣٣٦ .

صنع الأسطرلاب من المسلمين . وهذان العالمان بالذات كانت لهما علاقات علمية بالهند إذ كانا يعرفان قسماً من «السند هند» . وهو كتاب فلكي مشهور . ونستطيع أن نعد أيضاً من المترجمين الفضل بن نوبخت رئيس مكتبة هارون الرشيد ، ومن المترجمين من البهلوية إلى العربية عبد الله بن المقفع الذي ترجم بعض الكتب في المنطق والطب ، ولكنه اشتهر على الأخص بترجمة كتاب خداينامه أي سير ملوك العجم كما سماه ، وكذلك كتاب كليلة ودمنة ، وقام ابنه محمد بدور كبير في نقل الكتب الفلسفية اليونانية .

وهذا النشاط في حركة الترجمة ونقل العلوم المختلفة لم يساعد عليه الخلفاء العباسيون فحسب ، بل شدت من أزره كثيراً الأسر القوية التي كانت تتنافس بينها في هذا المضمار ، وأهم هذه الأسر البرامكة ، حتى إن بعض الباحثين يقولون إن الرشيد حاول أن يتشبه بهم في تشجيع العلوم وترجمتها .

فكأن المأمون إذن قد واصل جهود سابقيه حين دعا المترجمين إلى العمل وأظلهم برعايته وأجرى عليهم الأرزاق ، ولكنه أضاف إلى ذلك تأسيس بيت الحكمة في بغداد الذي زوده بمكتبة ومرصد فلكي ، كما أمر فلكيين بعمل الزيجات لحركات الكواكب ، وبقياس درجتين أرضيتين لإمكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذي قبل ، كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة . ومن الراجح جداً أن يكون محمد بن

موسى الخوارزمى العالم الذائع الصيت قد اشترك فى قياس الدرجتين المذكورتين ، كما شارك فى رسم خريطة العالم ، واشترك فى قياس المساحات الأرضية والفلكية خالد بن عبد الملك المروزى ، وسند ابن على ، وعلى بن عيسى الأسطر لابى ، ويحيى بن أبى منصور ـ الذى كان قائماً على المرصد الذى أسس بأمر المأمون ـ وغيرهم[١] . وقد قامت هذه الجماعة من العلماء بعملها فى الشماسية ببغداد ، وجبل قاسيون بدمشق ، وذلك فى سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة ومائتين .

ومن الذين قاموا بدور هام فى الترجمة أيام المأمون حنين بن إسحق العبادى الطبيب النسطورى الذى كان يتنقل بين بغداد وسورية وفلسطين والإسكندرية ليصيب كل ما وصل إليه العالم القديم من علم بالطب ، وليزداد علماً باليونانية ، ولحنين بالإضافة إلى جهده فيما نقله من المؤلفات الطبية الفضل فى ترجمة كتب المقولات والطبيعيات وعلم الأخلاق لأرسطو ، والجمهورية والقوانين ومحاورة طيماوس لأفلاطون ، وإن كانت هذه الكتب لم تترجم كاملة فى جميع الأحوال[٢] .

ومن الذين قاموا بجهد فى الترجمة أيضاً أيام المأمون يحيى بن ماسويه الذى كان يشرف على بيت الحكمة فى بغداد ، وكان يؤلف بالسريانية

---

(١) انظر : العلم عند العرب : ٩٩ ـ ١٣٠ .

(٢) انظر : تراث الاسلام : ٢٤٨ .

والعربية ، كما كان متمكناً من اليونانية ، ويقول « أوليرى » إن كتابه الطبى عن الحميات اشتهر زمناً طويلا، وترجم فيما بعد إلى اللاتينية والعــبرية » [1] .

ومن الشخصيات العلمية الأخرى فى عصر المأمون ميخائيل بن ماسويه، طبيبه الخاص ، وكان المأمون يكرمه غاية الإكرام — كما يقول القفطى — ويثق بعلمه فلا يشرب دواء إلامن تركيبه [2] . وعبد الله بن سهل بن نوبخت منجم المأمون ، وكان قديراً فى صناعته، وموضعاً لثقة المأمون .

وكما قام البرامكة بدور مهم فى تشجيع حركة الترجمة أيام الرشيد، كذلك فعل بنو شاكر المنجم أيام المأمون، فقد أنفذوا حنين بن إسحق وغيره إلى بلاد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات . ويقال إنهم كانوا يرزقون جماعة من المترجمين منهم حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة ، وغيرهم نحو خمسمائة دينار كل شهــر .

وقد جمع أحمد فريد رفاعى فى كتابه (عصر المأمون) أسماء العلماء والمترجمين فى ذلك العصر ، كما كتب جورجى زيدان فى كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) ثبتا بالكتب التى ترجمت عن اليونانية ،

---

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ : ١٢٦ .

(٢) اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ٢١٥ .

والفارسية والهندية والقبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية فى الفلسفة والأدب والطب والرياضيات والفلك والأخبار والسير ومختلف فروع المعرفة الإنسانية، فلا حاجةبنا إلى استقصاء ذلك مرة أخرى . غير أننا نتساءل عن طبيعة بيت الحكمة: هل كان مجرد مكتبة يحاول المأمون استحضار الكتب إليها من جهات متفرقة وخاصة من آسيا الصغرى، أو هو مركز علمى يفد إليه الباحثون وينقطعون فيه إلى دراساتهم، والمترجمون إلى ترجماتهم؟ أغلب الظن أنه كان كذلك بدليل ما يقوله القفطى عن محمد بن موسى الخوارزمى مثلا أنه كان منقطعاً إلى خزانة كتب الحكمة. وأغلب المصادر التى بين أيدينا تؤكد أن بيت الحكمة قد أنشىء أيام المأمون، ولكننا نرى أنه أسس فى أيام الرشيد بدليل ما يقوله القفطى عن الفضل بن نوبخت أن الرشيد ولاه القيام بخزانة كتب الحكمة ، وكان ينقل من الفارسى إلى العربى ما يجده من كتب الحكمة الفارسية (١) . وكان « دى بور » الباحث الوحيد الذى أيد وجود بيت الحكمة فى عصر الرشيد(٢) ، ويبدو لى أن بيت الحكمة كان فى عصر الرشيد مجرد خزانة كتب فأضاف إليه المأمون صفته الأخرى كمركز علمى ينقطع إليه الباحثون .

لقد ازدهرت إذن الحركة العلمية ترجمة وتأليفاً أيام المأمون ،

---

(١) اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ١٦٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : ٦ .

وفى عهده استهل أبو يوسف يعقوب الكندى فيلسوف العرب نشاطه الفكرى ، ويقول « بروكلمن » عنه إنه لم يقتصر على تعريف مواطنيه بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة والاقتباس فحسب ، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات فى التاريخ الطبيعى وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة(١) .

ولم يكن نشاط المأمون العلمى مقتصراً على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة ، بل كان يسعى إلى إحضار العلماء الأجانب للاستفادة بعلمهم وخبرتهم . ولعل أصدق ما يدل على ذلك إلحاح المأمون فى طلب العالم الهندسى ليون الذى كان قد دفن نفسه فى أحياء القسطنطينية الفقيرة ، وأخذ يعيش عيشاً رقيقاً بتعليم الناس ، فاتفق أن كان أحد تلامذته من بين أسرى العرب ، فأظهر فى إحدى المناسبات معرفته بالاستدلال الهندسى ، فلما سئل عن معلمه دل عليه ، فأرسل إليه المأمون كتاباً يدعوه للحضور إلى بغداد . فعرض ليون الرسالة على الجهات الرسمية فى بلاده ، وعلم الإمبراطور بها فمنعه من السفر ، وكانت رسالة المأمون سبباً فى شهرة هذا العالم وتنبه بلاده إلى عبقريته ، وظل المأمون يراسله ليسأله عن أمور هندسية وفلكية(٢) .

ولم يكن المأمون بعيداً عن الإحاطة ببعض المسائل الهندسية ، فقد كان

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية : ٤٠ .

(٢) حضارة الاسلام : ٧٨ .

يقول : لا يعرف الهندسة من لم يقرأ كتاب إقليدس، وهو من الهندسة بمنزلة حروف أ ب ت ث الكلام والكتابة [1] ، ولا يقول مثل هذا الكلام إلا من قرأ كتاب إقليدس و عرف مكانته .

وإلى جانب ثقافة المأمون العامة فى العلوم المختلفة ، كان بارزاً فى المسائل الفقهية بروزاً واضحاً . وقد أجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم الكلام، كما أنه تلقى دروساً كثيرة فى الحديث وعلوم القرآن . ويبدو أنه كان مهتما بالدراسة الفقهية ليشبع نهمه فى الجدل والمناظرة ، ولكى يشبع ميوله العقلية جمع إلى بلاطه من مختلف أنحاء مملكته الفلاسفة والمفكرين والفقهاء، وكان يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء — كما يقول قاضيه يحيى بن أكثم — الذى أعطانا صورة واضحة لمجالس المأمون ، قال : إذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها . فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن نزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون [2] .

(١) اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ٢٨٨ .
(٢) مروج الذهب ٢ : ٣٢٧ .

ومن أعجب ما يروى عن فقه المأمون أن قاضى بغداد بشر بن الوليد الكندى ضرب رجلا اتهم بأنه شتم أبا بكر وعمر وأطافه على جمل ، فلما قدم المأمون أحضر الفقهاء ، فقال : إنى قد نظرت فى قضيتك يا بشر فوجدتك قد أخطأت بهذا خمس عشرة خطيئة ، ثم أقبل على الفقهاء فقال : أفيكم من وقف على هذا ؟ قالوا : وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال : يا بشر ، أقمت الحد على هذا الرجل ؟ قال : بشتم أبى بكر وعمر ، قال : حضرك خصومه ؟ قال : لا ، قال : فوكلوك؟ قال: لا ، قال : فللحاكم أن يقيم الحد بغير حضور خصم ؟ قال : لا ، قال : كنت تأمن أن يهب بعض القوم حصته فيبطل الحد ؟ قال : لا : قال : فأمهما كافرتان أو مسلمتان ؟ قال : بل كافرتان ، قال : فيقام فى الكافرة حد المسلمة ؟ قال : لا ، قال: فهبك فعلت هذا بما يجب لأبى بكر وعمر من الحق ؟ أفيشهد عندك شاهدا عدل ؟ قال: تزكى أحدهما ، قال : فيقام الحد بغير شاهدين عدلين! قال : لا ، قال : ثم أقمت الحد فى رمضان ، فالحدود تقام فى شهر رمضان ؟ قال : لا ، قال : ثم جلدته وهو قائم ، فالمحدود قيام؟ قال: لا ، قال ، ثم شبحته [1] من العقابين ، فالمحدود يشبح ؟ قال : لا ، قال : ثم جلدته وهو عريان فالمحدود يعرى ؟ قال: لا ، قال : ثم حملته على جمل فأطفته فالمحدود يطاف به ! قال : لا، قال ثم حبسته بعد أن أقمت عليه الحد ، فالمحدود يحبس

---

(١) أى فرق بين يديه ورجليه ومده كالمصلوب .

بعد الحد ؟ قال : لا ، قال : لا يرانى الله أبوء بإثمك وأشاركك فى جرمك ، خذوا عنه ثيابه وأحضروا المحدود ليأخذ بحقه منه . فقال له من حضر من الفقهاء : الحمد لله الذى جعلك عاملا بحقوقه ، عارفاً بأحكامه . تقول الحق وتعمل به ، وتأمر بالعدل ، وتؤدب من رغب عنه . إن هذا يا أمير المؤمنين حاكم أجد برأيه فأخطأ ، فلا تفضح به الحكام وتهتك به القضاة ، فأمر به فحبس فى داره حتى مات(١).

ومما يشير إلى تفقه المأمون أيضاً أنه كان جالساً للناس فجاءت امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات أخى وخلف ستمائة دينار . أعطونى ديناراً وقالوا هذا نصيبك فحسب المأمون ، ثم كسر الفريضة ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء الذين كانوا فى مجلسه : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الرجل خلف ابنتين . قالت : نعم ، قال : فلهما الثلثان أربعمائة ، وخلف والدة ، فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ، وبالله ألك إثنا عشر أخاً ؟ قالت نعم . قال : أصابهم ديناران ديناران وأصابك دينار !(٢) .

أما رواية المأمون للحديث فكانت واسعة وموثوقاً بها ، فقد حدث عن هيثم بن بشر عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٩٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء : ٢١٠ .

كان فيه سداد من عوز) . ومن رواياته أيضاً عن هشيم بن بشر عن ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم قدمه ؛ ومن ذبح بعد أن يصلي فقد أصاب السنة) . وقد عني السيوطي بجمع بعض الأحاديث التي رواها المأمون في ترجمته لسيرته[1] .

وكان المأمون يثيب رجال الحديث إذا سمع منهم حديثاً لأول مرة . من ذلك ما روى عن هدبة بن خالد أنه قال : حدثني حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أكل ما تحت مائدة أمن من الفقر) فأمر له المأمون بألف دينـــار [2] .

وقد عرف الناس عن المأمون حبه للحديث وإثابته لحفاظه فتعرضوا له . ويروى أن رجلا تقدم إليه فقال : يا أمير المؤمنين صاحب حديث منقطع . فلم يأخذ المأمون عنه حتى امتحنه في أبواب الحديث فلم يجده يحفظ شيئاً . فنظر إلى أصحابه وقال : يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول : أنا من أصحاب الحديث . أعطوه ثلاثة دراهم! [3] .

وكان المأمون في سعيه لتثقيف نفسه — كما رأينا — لا يفرق بين علم وآخر . وكانت غايته من كل علم ليست الوقوف على نهايته فهذا

---

(١) انظر : تاريخ الخلفاء : ٢١٩ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه : ٢١٤ .
(٣) المصدر نفسه : ٢٢٥ .

شيء لا يدرك . وإنما التماس ما لا يسع جهله . وهذا ما أقربه المأمون نفسه حين تناظر مع سهل بن هارون في معنى العلم وما ينبغي تحصيله وما لا ينبغي، قال سهل بن هارون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال ، فقال المأمون : قد يسمى بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم . فإن كان هذا أردت فوجهه الذى ذكرت ، ولو قلت أيضاً : إن العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره . ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصوله ، ولا تنضبط أجزاؤه صدقت ، فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم الأهم ، والأوكد الأوكد . وبالفرض قبل النفل ، يكن ذلك عدلا قصداً . ومذهباً جميلا . وقد قال بعض الحكماء : لست أطلب العلم طمعاً فى غايته ، والوقوف على نهايته . ولكن التماس ما لا يسع جهله . فهذا وجه لما ذكرت . وقال آخرون : علم الملوك النسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسير ، وعلم التجار الكتاب والحساب . فأما أن يسمى الشيء علماً وينهى عنه من غير أن يسأل مما هو أنفع منه فلا(١) .

ولهذا خاض المأمون فى كل هذه العلوم والمعارف ولم يقتصر على شيء منها بعينه ، حتى الطب كانت له معرفة به ، فقد روى أحد الفقهاء الذين يحضرون مجلسه أنه تغدى عنده يوماً فوضع على المائدة أكثر من

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٠٧ .

ثلاثمائة لون من الطعام ، فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافع لكذا . فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليتجنب هذا ، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا . ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا ، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا . ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، فوالله ما زالت تلك حاله في كل لون يقدم حتى رفعت الموائد . فقال له يحي بن أكثم : يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته . أو في النجوم كنت هرمس في حسابه . أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه ، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم في جوده ، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في صدق لهجته . أو الكرم كنت كعب بن مامة في إيثاره على نفسه ، فرد المأمون قائلا : يا أبا محمد إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه . ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم[1] .

وبسبب حب المأمون للعلم والثقافة التي خاض بحورها ومسالكها . كان يكره الجهل وينفر من الجهلاء ، قال يوماً لأبي علي المعروف بأبي يعلى المنقري : بلغني أنك أمي ، وأنك لا تقيم الشعر ، وأنك تلحن في كلامك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه ، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم

(١) كتاب بغداد : ٣٦ .

أمياً وكان لا ينشد الشعر . قال المأمون : سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني عيباً رابعاً وهو الجهل . يا جاهل : إن ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم فضيلة ، وفي أمثالك نقيصة . وإنما منع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لنفي الظنة عنه لا لعيب في الشعر والكتاب ، وقد قال تبارك وتعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

وهكذا فسر المأمون معنى أمية الرسول تفسيراً بديعاً يكشف عن تمثله الدقيق لما يقرأ ، وإجالته الفكر في كل ما يعرض له من أمور ، ولكل ذلك استحق أن يدعى الخليفة العالم[1] .

(١) يقول أبو معشر المنجم في ذلك : كان المأمون أمارا بالعدل ، فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء (تاريخ الخلفاء : ٢٠٤) .



فى سبيل العقيدة

يظن بعض المستشرقين أن المأمون لم يكن متديناً . وأنه كان ضعيف العقيدة فاسدها ، ومن هؤلاء المستشرقين فون كريمر [1] ، ولاميريكو كاسترو [2] ، وأوليرو [3] . ويذهب كريمر إلى هذه الفكرة لأن المأمون فى رأيه لم يقتف أثر أبيه فى اتخاذ الأساليب العدائية ضد المانوية بدليل ما رواه صاحب الأغانى من إرسال المأمون لرئيس المانوية فى الرى واسمه يزدان بخت يدعوه للحضور لمناظرة العلماء المسلمين ، فغلب يزدان بخت فى المناظرة فدعاه المأمون للدخول فى الإسلام فأبى . ومع ذلك شمله المأمون برعايته التامة . ومثل هذه الحادثة لا تعنى قط مروق المأمون عن الدين الصحيح ، وإنما ينبغى أن تفسر تفسيراً وحيداً ، وهو

(١) الحضارة الاسلامية : ١٠٧ .
(٢) دراسات اسلامية : ١٦٠ .
(٣) مسالك الثقافة : ٢٤٤ .

أن المأمون كان مؤمناً بحرية العقيدة إلى أقصى حد ، إلا للمرتد ، فقد كان يأخذه بأقصى الشدة وأقسى أنواع العقوبة . ثم يلمح كريمر بعد ذلك إلى علاقة المأمون بالفرس ، ويدعى أنه لم يكن متعصباً للإسلام، بل إن التيار في عهده كان في غير مصلحة الإسلام بسبب هذه العلاقة . وهذا افتراض غريب لا يصح حدوثه . فإذا كان هناك صراع بين العرب والفرس في عهد المأمون – وهو ما أشرنا إليه من قبل – فليس معناه قط أن العرب يعنى المسلمين ، فميل المأمون إلى الفرس يكون معناه وقوفه ضد مصلحة الإسلام .

أما كاسترو فيدعى أن المأمون لم يكن يسير على المنهج الإسلامى القديم ويقصد به السنة ، وقد نتجاوز عن ذلك التعبير ، على الرغم من خطورته ، ولكننا لا نستطيع أن نتجاوز عن قوله إنه كان يظهر جنوحاً نحو تعاليم أصحاب البدع . فالمأمون لم يكن مبتدعاً حتى فى موضوع خلق القرآن كما سوف نرى .

وأما أوليرى فهو يقول إن المأمون كان يتذوق نقاش المسائل الدينية بحرية عظيمة ، مما يوحى بأنه يريد القول أن المأمون كان لا يتحرج كثيراً فى المسائل الدينية .

والذى دعا مثل هؤلاء الباحثين إلى التشكك فى عقيدة المأمون فهمهم الخاطىء للتسمية التى أطلقها أحد أفراد حاشية المأمون عليه – وهو يحيى بن عامر بن إسماعيل– إذ قال له : يا أمير الكافرين ، فأمر به

المأمون فقتل بين يديه . ولم يكن يحى بن عامر يقصد اتهام المأمون بالكفر ، وإنما كان يعنى انقياده لأعداء العرب من الفرس المجوس أو ذوى الأصل المجوسى . ذلك فى أثناء وجوده بمرو . وقد سبق أن وجه إليه هذه التهمة نفسها نعيم بن حازم حين قال له : قدمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك .

أما عقيدة المأمون فلا ينبغى أن تكون موضع شك بسبب ميله إلى حرية التفكير والعقيدة ، فقد كان إيمانه لا يتزعزع ، وكان قائماً بجميع الفرائض الدينية على أتم وجه ، وكان شديداً فى معاملة الفساق ، أو ممن يشتم منهم خروجاً على الدين . **ولعلنا نؤكد ذلك بما رواه الطبرى عن غناء علوية أمام المأمون حين كان بدمشق بهذين البيتين (١) :**

برئت من الإسلام إن كان ذا الذى
أتاك به الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سريعة
إلى تواصوا بالنميمة واحتالوا

فقال المأمون : يا علويه لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضى ، قال : أى قاض ويحك ؟ قال : قاضى دمشق ، فقال : يا أبا إسحق اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فليحضر الساعة ، قال : فأحضر شيخ مخضوب قصير ، فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى ،

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٩ . كتاب بغداد : ١٥٢ .

قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله، فقال: يا علويه أنشده الشعر فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل ما يملك فى سبيل الله إن كان قال الشعر من ثلاثين سنة، إلا فى زهد أو معاتبة صديق، فقال : يا أبا إسحق اعزله، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ فى هزله بالبراءة من الإسلام، ثم قال : اسقوه ، فأتى بقدح فيه شراب، فأخذه وهو يرتعد فقال: يا أمير المؤمنين ما ذقته قط، قال : فلعلك تريد غيره ، قال : لم أذق منه شيئاً قط ، قال : فحرام هو ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين. قال : أولى لك بها، نجوت فاخرج . ثم قال : يا علويه لا تقل برئت من الإسلام ، ولـــكن قل :

(حرمت مناى منـــك إن كان ذا الـــذى)

ومثل هذه الغيرة على الدين لا يمكن أن تصدر عن فاسد العقيدة أو منحرف ، بل نرى المأمون بالرغم من شربه النبيذ الذى اختلف فى شربه الفقهاء — لا الخمر — والذى أجازه أبو حنيفة[١] يحرمه على قاضيه وصفيه يحيى بن أكثم، فكان يحيى إذا دخل عليه وهو يشرب فلا يسقيه ، ويقول : لا أترك القاضى يشرب النبيذ[٢] .

وكان المأمون حريصاً على قيامه بدور الإمام لا الخليفة فحسب ،

---

(١) انظر : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى : ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) كتاب بغداد : ١٤٠ .

وتلك حقيقة غابت عن أذهان كثير من الباحثين ، فنجد « أوليرى » يقول إن الإسلام لم يقم الخليفة معلماً دينياً[1] ، ويقول أحمد أمين: إن المأمون خلط بين منصب الخليفة ومنصب المعلم فأراد أن يكون خليفة ومعلماً معاً[2] .

وهذا الخلط بين طبيعة المعلم ومنصب الخلافة لم يكن قاصراً على المأمون وحده — وإن كان قد بدا فى عهده بصورة صارخة بسبب محاولته فرض نظرية اهتدى إليها المعتزلة — ولكنه كان موجوداً فى الخلفاء العباسيين جميعاً ، وقد تنبه إلى حقيقة هذا التغير الذى طرأ على منصب الخليفة بعد سقوط الأمويين « جولدزيهر » إذ قال إن العباسيين لم يقبلوا أن يكونوا ملوكاً فقط ، بل أرادوا أولا أن يحسبوا أنهم أئمة ، وأن تفهم حكومتهم على أنها حكومة دينية[3] .

ويرى « جولدزيهر » أن ذلك التحول كان نتيجة للتأثر بالأفكار الفارسية ، لأن المثل الأعلى للحكومة الفارسية كان تآخى الدين والدولة . وقد سبق أن لاحظنا أن مديح الخلفاء العباسيين كان يؤكد حقيقة إمامتهم الدينية [4] . ولهذا نرى المأمون يحرص على أداء واجب الإمام ، فكان يؤم الناس فى أيام الجمع وفى الأعياد ، كما نستقى من سيرته ، وقد روى

(١) مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب : ٢٤٤ .

(٢) ضحى الاسلام ٣ : ٢٠٢ .

(٣) العقيدة والشريعة : ٤٨ .

(٤) انظر : اتجاهات الشعر العربى : ٣٧٩ .

النا بن قتيبة بعض نصوص خطبه الدينية، فمن ذلك خطبته فى يوم جمعة، التى ينبىء كل حرف فيها عن صدق إيمانه وعظيم يقينه، يقول فيها : « الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك لـــه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جـــد بكم ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به »[1] .

وفى خطبة يوم الأضحى بعد التكبير الأول يقول المأمون : « إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظم حرمته ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح نبيه، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتقدم الأيام المعدودات من النفر »[2]، يوم حرام من أيام عظام فى شهر حرام، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله

(١) انظر نص الخطبة فى عيون الأخبار ٢ : ٢٥٣ .
(٢) النفر : أى تفرق الحاج من منى .

إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز (وأذن فى الناس بالحج) الآيات ، فتقربوا إلى الله فى هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائر الله واجعلوها من طيب أموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) (١) .

ومن خطب المأمون الدينية التى حفظها لنا ابن قتيبة أيضاً خطبته يوم الفطر بعد التكبير الأول التى يقول فيها : « إن يومكم هذا يوم عيد وسنة . وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج ، وجعله معقباً لمفروض صيامكم ، وتنفل قيامكم ، أحل فيه الطعام لكم، وحرم فيه الصيام عليكم ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم . واستغفروه لتفريطكم ، فإنه يقال لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار . . ثم قال : ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإنه كل ما لا ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله ونهى الله عنها فإنه يقول (فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) ، وقال (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) الآية فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ، واعلموا أن قوماً من من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها ، وآثروا طاعة الله فيها فأدركوا الجنة بما تركوا منها » (٢) .

---

(١) انظر : عيون الأخبار ٢ : ٢٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢ : ٢٥٥ .

وواضح من هذه الخطب الدينية جميعاً روح الإيمان التى تشع من قلب المأمون ، وتعففه عن الدنيا ، وامتثاله لفرض الدين وتجنبه لنواهيه، ومعرفته الدقيقة بآيات الله وأحاديث الرسول ، حتى لقد قيل : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون(١). أما علمه بالحديث فقد أجمع عليه الرواة ولم يختلفوا فيه، وقد قدمنا صورة لهذا العلم فى الفصل السابق .

وبهذا الإيمان القوى ، وفى سبيل العقيدة أقبل المأمون على علم الكلام ، ويقول فى ذلك « ولتر باتون » : وقد هيأت له (للمأمون) همته فى التحصيل لما كان طالباً مكانة ممتازة بين المتفقهين بعلوم الدين، ولكن ذهناً متقداً كذهنه ، قوى الميل إلى قدر من العلم أوسع مدى مما تهيؤه له حدود السنة الإسلامية سرعان ما أبدى شغفه بالفلسفة التى كان الناس قد بدأوا العناية بها فى عهد العباسيين ،.. ومع ذلك فإننا لا ننظر إلى المأمون على أنه رجل ليس الورع والتقوى من طبيعته ، أو أنه اشتد ولعه بالمسائل الدينية ليشبع نهمه فى الجدل والمناظرة، فقد قيل عنه إنه ختم فى رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة ، كما أنه كان ينفح شيوخ الحديث بالمال سداً لحاجتهم »(٢) .

وقد استخدم المأمون دراسته لعلم الكلام فى الدفاع عن الدين ، فكان يعقد المجالس الدينية المختلفة ويستقدم إليها أصحاب البدع والأهواء

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ١٩٠ .

(٢) أحمد بن حنبل والمحنة : ٩٤ .

ليحاول إقناعهم بالحجة والبرهان ، وكان يحاول أيضاً التوفيق بين المذاهب الإسلامية المختلفة فى عصره . وقد روى فى ذلك يحيى بن أكثم قال : أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل القلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم ، فطائفة عابوا علينا ما نقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف ، والله ما أستحل أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وإن الرجل ليأتين بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه فيقول : إن هذا كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه، أو شرب فيه ، أو مسه، وما هو عندى بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر . ثم أضعه على وجهى و عينى وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ، فأستشفى به عند المرض يصيبنى او يصيب من أهتم به ، فأصونه كصيانتى لنفسى ،وإنما هو عود لم يفعل شيئاً ، ولا فضيلة له تستوجب به المحبة إلا ما ذكرمن مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له، فكيف لا أرعى حق أصحابه ، وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه،وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسـرة [1] .

(١) كتاب بغداد : ٤٥ .

وهذا النص يطلعنا على مسائل فى غاية الأهمية . منها عقد المأمون للمجالس الدينية منذ قدومه إلى بغداد، وجمعه الفقهاء لمناقشهم فى أمور الدين، ثم هذه النفحة الجميلة من الإيمان التى تدعوه إلى التبرك بما مسه الرسول والتداوى به على الرغم من حسن استدلاله العقلى وعدم ثقته بمن دله على هذا الأثر النبوى، ثم هو يحدد علاقته بالعلويين على أساس محبته لعلى ، لصحبته للرسول ودفاعه عن الدين . وأن موقفه إزاء الصحابة يماثل هذا الموقف ، بل إن خلقه يأبى عليه التنقص من أحد ولو كان الحجاج بن يوسف بكل بطشه وجبروته وطغيانه ، ويظهر أن المأمون لم يكن حتى ذلك الوقت الذى يتحدث فيه يحيى بن أكثم قد تأثر بتعاليم المعتزلة تأثراً خطيراً، بدليل تنكبه فيما بعد عن المبدأ الذى وضعه لنفسه ، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر كما سبق أن أشرنا.

وبسبب رغبة المأمون فى الدفاع عن الدين باستخدام أساليب علم الكلام نراه يجادل المرتدين عن الإسلام جدلا عقلياً قبل أن ينفذ فيهم حكم الشرع ، فقد حمل إليه رجل مرتد فقال له: لأن أستحييك بحق واجب أحب إلى من أن أقتلك بحق ، ولأن أدفع عنك بالتهمة وقد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً، وكنت فى الإسلام أفيح مكاناً وأطول أياماً فاستوحشت مما كنت به آنساً، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافراً ، فخبرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار آنس لك من ذلك القديم وأنسك الأول ، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، إذ كان المريض يحتاج إلى مشاورة الأطباء ، فإن أخطأك الشفاء،

ونبا عن دائك الدواء، وكنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة، فإن قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك إلى الاستبعاد والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم. فقال المرتد: أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم . قال المأمون:فإن لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى وأقام فرادى لم يؤثم من أذن مثنى وأقام مثنى ، لا يتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد عليه بياناً.

والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيله، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل، ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا. فقال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده

لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله،وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقاً . فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجداً . ثم أقبل على أصحابه فقال : وفروا عليه عرضه . ولا تبروه فى يومه ريثما يعتقد إسلامه، كى لا يقول عدوه إنه يسلم رغبة ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه (١) .

وهذه المناقشة تطلعنا على قوة الحجاج عند المأمون وقدرته الكلامية، وفهمه لدقائق الدين فرائضه وسننه . واتساع صدره للمناقشة أصلا إنما كان فى سبيل الله،فقد كسب مؤمناً عن عقيدة بدلا من أن يخسر مرتداً جاهلا . وهذه المناقشة إنما تقع على عاتق المعلم فى شخصية المأمون أو الإمام ولا تقع على عاتق الخليفة ، وهذا يؤكدما سبق أن ذكرناه وهو أن المأمون كان يقوم بالواجبين معاً ، تأدية لمفهوم الخلافة العباسية أصلا .

ومن مناظرات المأمون مع الثنوية ما ذكرهالرواة أن المأمون قال : لثنوى يناظر عنده : أسألك عن حرفين خبرنى: هل ندم مسيء قط على إساءته ؟ قال : بلى ، قال : فالندم على الإساءة إساءة أو إحسان قال : بل إحسان، قال : فالذى ندم هو الذى أساء أو غيره ؟ قال: بل هو الذى أساء،قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ، وقد بطل قولكم إن الذى ينظر نظر الوعيد هو الذى ينظر نظر الرحمة، قال:

---

(١) كتاب بغداد : ٣٧٠ وعيون الأخبار . ٢ : ١٥٤ .

فإنى أزعم أن الذى أساء غير الذى ندم ، قال: فندم على شىء كان من غيره أو على شىء كان منه ، فأسكته (١) .

وكما أفحم المأمون هذا الثنوى كذلك أفحم رجلا من الخوارج أدخل عليه فقال له : ما حملك على خلافنا؟ قال: آية فى كتاب الله تعالى ، قال : وما هى؟قال : قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فقال له المأمون : ألك علم بأنها منزلة ؟ قال : نعم، قال : وما دليلك ؟ قال : إجماع الأمة، قال : فكما رضيت بإجماعهم فى التنزيل ، فارض بإجماعهم فى التأويل . قال : صدقت (٢) .

وهكذا كان المأمون فى كل مناقشاته قوى الحجة ساطع البرهان ، قادراً على إقناع خصمه ، وكان يقارع الرأى بالرأى ولا يستغل سلطانه كخليفة فى الظهور على من يناظره، بل لقد وضع المأمون أساساً للمناقشة وآدابها ، فقد ذكر بشر المريسى أنه حضر مجلساً كان فيه المأمون وثمامة ومحمد بن أبى العباس وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الإمامية ونصر على بن الهيثم الزيدية ، وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلى : يا نبطى ما أنت والكلام ! قال : فقال المأمون وكان متكئاً فجلس : الشتم عى ، والبذاء لؤم ، إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب ، فاجعلا بينكما أصولا فإن

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٥٢ .
(٢) تاريخ بغداد ١٠ : ١٨٦ .

الكلام فروع ، فإذا افترعتم شيئاً رجعتم إلى الأصول (١) .

ولم يكن المأمون أول خليفة عباسي يقبل على علم الكلام ، فقد أمر المهدى الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ، ولكن الرشيد منع الجدل فى الدين ، وكان شديداً على أهل علم الكلام حتى إنه اتهم ثمامة بن أشرس بالزندقة وألقى به فى السجن.

وقد اختلف الباحثون حول حقيقة اتصال المأمون بمذهب المعتزلة وكيفية بداية هذا الاتصال كما اختلفوا حول أهمية الدور الذى قام به ثمامة بن أشرس وأحمد بن أبى دواد لحمل المأمون على متابعة آراء المعتزلة الدينية . والذى لا شك فيه أن شخصية المأمون — كما أوضحنا معالمها — كان لها أكبر الأثر فى اتصاله القوى بمذهب المعتزلة، إذ كان بطبيعته رحب العقل واسع الصدر حر الفكر مقبلا على العلوم والثقافة بأنواعها المختلفة ، راغباً فى الدراسات الفقهية والدينية بصفة عامة . فلما قرب إليه علماء الكلام والفقهاء وأهل الحديث ومن إليهم لمناظرتهم ، اصطدم بالتفكير السلفى الجامد الذى لا يعرف المرونة فى التفكير ، والذى كان منعزلا عن التيارات المذهبية والفلسفية والكلامية المحيطة به — كما يقول « أوليرى » بحق (٢) .

ووجد المأمون نفسه ميالا بطبعه إلى المتكلمين من أصحاب النظر

---

(١) كتاب بغداد : ٢٢ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٦ .
(٢) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ : ٢١٨ .

الحر الذين لا يهمهم قول السلف بقدر ما يهمهم قبول العقل لما ينظرون فيه . وهكذا انجذب المأمون إلى المعتزلة ، واتخذ بطانته وصحابته من أتباع ذلك المذهب .

ويقول الدكتور طه الحاجرى إن هناك سبباً آخر لاتصال المأمون بالمعتزلة وهو أن هذا المذهب أخذ يشق طريقه منذ نشأته فى هدوء واطراد ، ثم استطاع أن ينفذ إلى البيئات المترفة عن طريق ذلك الترف العقلى الذى كانت تصطنعه والذى كان يحملها على الإحاطة أو الإلمام بالآثار العقلية ، كالذى نراه عند جعفر بن يحى البرمكى من إقباله على آثار أرسطو ، وكالذى نراه عند أخيه الفضل بن يحيى من إيثاره بعض المعتزلة كأبى سهل بشر بن المعتمر ، وذلك بالرغم مما نعرف عن البرامكة من نزعة شيعية . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أيضاً سبباً آخر هو نقمة المأمون على السياسيين من أمثال الفضل بن سهل ، وإحساسه بمكاره السياسة وبلائها ، ولهذا أقبل على أصدقائه العقليين إقبالا خاصاً ، فاتخذ منهم بطانته وأهل مشورته ، وأقبل على هذه الحياة العقلية (فأباح الكلام وأظهر المقالات) ، كما يقول الطبرى وشجع على المناظرة ، وجعل مجالسه مجالس بحث ونظر وحوار بين المذاهب المختلفة ، وأقبل على هذه المتعة العقلية يحيط بها نفسه ويملأ بها حسه، ولم يكن هنا لك من يستطيع أن يعمر هذا المكان خيراً من المعتزلة ، ولذلك اصطفاهم وأدناهم (١) .

---

(١) الجاحظ : ٢١٣ .

ويبدو أن ثمامة بن أشرس قد وثق صلته بالمأمون منذ كان فى مرو ، وأنس المأمون إليه ووثق بعلمه ، بل يقول البغدادى إن المأمون تلقّى على يدى ثمامة مبادىء الاعتزال(١) ، فكأنه كان يقف منه موقف التاميذ من أستاذه . ولم يكن المأمون أول خليفة يقرب إليه معتزلياً ، فقد كان عمرو بن عبيد صديقاً لأبى جعفر المنصور ، وكان أبو جعفر يدنيه إليه ويطلب موعظته . ولكن مكانة ثمامة من المأمون كانت أوثق من ذلك بكثير ، فقد كان ينزل منه فوق منزلة الوزراء . وقد روى المؤرخون أن المأمون عرض الوزارة على ثمامة بعد موت الفضل بن سهل فأباها ، ولكنه أشار على المأمون بتعيين أحمد بن أبى خالد الأحول ، ثم رشح بعده يحيى بن أكثم ، وهو الذى أغرى المأمون بإعلان البراءة من معاوية وممن ذكره بخير . وكانت هذه خطوة لتحول المأمون نهائياً إلى مذهب المعـــتزلة .

ولم يكن ثمامة يتورع — فى سبيل حمل المأمون على الدخول فى الاعتزال — عن اتهامه بالعامية(٢) ، ليثبت أن الاعتزال هو مذهب المثقفين . ولم يكن قرار المأمون بإعلان البراءة من معاوية سهلا على نفسه، فهو يخالف مبادىء المأمون التى أشرنا إليها من قبل ، والتى تدعو إلى عدم النيل من أحد حتى ولو كان الحجاج ، ولكن جمهور المعتزلة يعلنون البراءة من معاوية من قديم ، وقد تعرض المأمون لضغط شديد من ثمامة

(١) الفرق بين الفرق : ١٥٧ .
(٢) كتاب بغداد : ٤٠

وضغط معاكس من يحيى بن أكثم الذى كان يمثل المحدثين فى بلاط الخليفة . وقد رأى المحدثون فى هذه المسألة مادة يقاومون بها نفوذ المعتزلة . ويحاولون إثارة سخط العامة عليهم . وقد وضح ذلك فى محاولة يحيى بن أكثم منع المأمون من إعلان قراره بلعن معاوية بتخويفه من ثورة العامة . ولكن المأمون استجاب أخيراً لرأى ثمامة بن أشرس ممثل المعتزلة الذى ما لبث أن اندفع فى خصومته للمحدثين ومن ورائهم العامة . فدفع المأمون — فى السنة التالية لإعلانه البراءة من معاوية — إلى القول بخلق القرآن .

وواضح مما يقوله المؤرخون أن فكرة خلق القرآن كانت تراود ذهن المأمون منذ وقت بعيد . وأنه كان يناقشها فى مجالسه الخاصة . ثم أعلن رأيه للناس بتفضيلها فى عام ٢١٢ هـ ، ولكنه لم يضطرهم إلى القول بها ، بسبب تعاظم نفوذ المحدثين وخوفه منهم ، وظل على ذلك ست سنوات ، كانت الظروف خلالها قد تغيرت . وخاصة بعد عزل يحيى بن أكثم — ممثل المحدثين فى بلاط الخليفة — عام ٢١٧ هـ . وتولى أحمد بن أبى دواد مكانه ، وهو من أقطاب المعتزلة الذين اتصلوا بالمأمون منذ قدومه إلى بغداد ، وعند ذلك اضطر المأمون الناس إلى القول بخلق القرآن .

وعلاقة أحمد بن أبى دواد بالمأمون ترجع فى أصلها إلى يحيى بن أكثم . فقد كان ابن أبى دواد يحضر مع الفقهاء مجلس يحيى . وفى يوم جاءه رسول المأمون فقال له : يقول لك أمير المؤمنين انتقل إلينا وجميع من معك من أصحابك ، فلما حضروا مجلس المأمون أعجب بحديث

ابن أبى دواد وطلب إليه أن يحضر كل مجالسه ، وربما كان ابن أبى دواد بين أهل العلم الذين اختارهم يحيي بن أكثم للمأمون عند دخوله إلى بغداد سنة ٢٠٤ هـ .

وبلغ من إعجاب المأمون به أن أوصى أخاه المعتصم فقال : « وأبو عبد الله بن أبى دواد لا يفارقك ، أشركه فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع ذلك » .

وفكرة خلق القرآن ترجع إلى بداية القرن الثانى للهجرة حين نادى بها الجعد بن درهم مؤدب الخليفة الأموى مروان الثانى ، فلم يلبث أن قتله خالد بن عبد الله القسرى بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك ، وتوارت هذه الفكرة حتى أيام هارون الرشيد، إذ آمن المعتزلة بأن القرآن مخلوق ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك صراحة، وقد كان الرشيد غير مستعد لمجرد سماع هذه الفكرة بدليل قوله : بلغنى أن بشرا المريسى يقول: القرآن مخلوق، والله على إن أظفرنى الله به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحداً ،فلما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة.

وترتبط مشكلة خلق القرآن أساساً بأصل من أصول المعتزلة. وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله ، ونفى صفات المعانى عن الله تعالى ، ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدى إلى تعدد القدماء ، وذلك ينافى التوحيد. فكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم إن القرآن مخلوق لأنه أصوات وحروف ،ولكنها ليست قائمة بذاتها ، بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى .

ونفي الصفات عن الله يصطدم فى كل خطوة بآيات كثيرة فى القرآن تدور حول علم الله وقدرته إلى آخر صفاته ، ولهذا كان رأى أهل السنة الاعتراف بالصفات واعتبار نفيها إلحاداً .

وبناء على هـذا كيف يمكن أن نفهم أن الله له صفة الكلام، وكيف نفسر إظهار هذه الصفة بالوحى المادى فى الكتب المقدسة ؟ يقول أهل السنة : الكلام صفة أزلية وليس لها مثله بدء ولا نهاية مطلقاً، وليست أكثر من العلم والقدرة والصفات الأخرى لذاته اللانهائية ، ولهذا كانت عقيدة أهل السنة هى أن القرآن غير مخلوق .

ولكى يفسر المعتزلة كلام الله قالوا ليس من الممكن أن يكون صوت الله هو الذى يظهر ويسمعه النبى حينما يحس الوحى من الله ، بل هو صوت مخلوق ، فحينما يريد الله أن يظهر بالسمع يحول الكلام إلى حامل مادى كالشجرة مثلا فى حادث موسى عليه السلام، وهذا هو الكلام الذى يسمعه النبي ، الكلام المخلوق لله الذى يعبر عن إرادته (١) .

وللمعتزلة أدلة عقلية كثيرة يحاولون أن يثبتوا بها نظريتهم التى قدمنا بعضها ، ولهم كذلك أدلة نقلية يثبتون بها أن القرآن حادث أى مخلوق ، فهم يقولون إن الله يقول (وإذ قال ربك للملائكة) وإذ ظرف زمان ماض فيكون قوله الواقع فى هذا الظرف مختصاً بزمان معين ، والمختص بزمان محدث ، ويقول أيضاً (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) وهذا يدل على أن القرآن تركب من الآيات التى هى أجزاء متعاقبة فيكون

(١) انظر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٠٠ وما بعدها .

حادثاً ، ويقول تعالى (حتى يسمع كلام الله) والمسموع حادث لأنه لا يكون إلا حرفاً وصوتاً ، كذلك نص القرآن على نسخ بعض الآيات ، ولايتصور النسخ إلا فى الحادث لأن القديم ليس عرضة لذلك . فالقرآن فى رأيهم نوع من الكلام الذى يخلقه الله ، وإنما سمى كلام الله لأنه خلق الله من غير واسطة ، وهذا هو الفرق بينه وبين كلامنا، فكلامنا وألفاظنا تنسب إلينا ، وأما القرآن فخلق الله مباشرة، والحروف التى نكتبها فى المصحف أو ننطق بها من صنعنا، وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على المخلوق لله . وإذن معنى كون الله متكلماً أنهخالق الكلام وفاعله ، فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذى فى نفسه ، فالله بهذا المعنى متكلم، أى فاعل ما يدل به المخاطب على ما يريد ، والمفعول والمجعول مخلوق [1] .

والسبب الذى جعل المحدثين والسلف بصفة عامة يرفضون رأى المعتزلة هو أنهم كانوا يرون الوقوف عند النصوص ولا يسمحون لأنفسهم بتأويلها ، فهم يقرون بما جاء كما جاء ، فنحن نرى أحمد ابن حنبل حين يسأله عامل الخليفة عن معنى قوله تعالى (سميع بصير) يقول : هو كما وصف نفسه ، قال فما معناه ؟ قال: لا أدرى هو كما وصف نفســه » [2] .

فكأن الخلاف بين الفريقين هو خلاف حول سلطة العقل وحدودها .

---

(١) أنظر : ضحى الاسلام ٣ : ٣٤ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩ .

ولكن تغالى بعض الحنابلة فى الإيمان بقدم القرآن حتى قال بعضهم جهلا : الجلد والغلاف قديمان فضلا عن المصحف (١) .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن تحديد وجوه الخلاف وحصر نقاط النزاع لم يكن بيناً فى أكثر عقول الناس، بل كانت هناك معان غامضة زاد غموضها هياج الناس وتبلبل الأفكار ، فقد رأوا أن هناك قضيتين : الأولى أن كلام الله صفة له ، وكل ما هو صفة فهو قديم ، فكلام الله قديم . والثانية : أن القرآن كلام الله وهو مركب من حروف مرتبة متعاقبة فى الوجود ، وكل ما هو كذلك فهو حادث ، فالقرآن حادث ومخلوق . فهاتان القضيتان شتتا أفكار الناس وأدخلتاهم فى منازعات جدلية شديدة (٢).

ومما أثار الناس أيضاً ما كان لكلمة مخلوق من دلالة خاصة إبان القرنين الثانى والثالث الهجريين ، ومما يؤيد ذلك ما أورده الراغب الأصفهانى عرضاً فى محاضراته أن الخليل بن أحمد كان يمنع وصف الكلام بالمخلوق ، ويقول إن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب ، ولذا يقال كلام خلقه فلان أى تقوله . ولهذا نرى بعض الفقهاء الذين سئلوا فى القرآن إبان المحنة قالوا نصفه بأنه محدث ولا نقول إنه مخلوق لقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) (٣) .

---

(١) ضحى الاسلام ٣ : ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ٤٣ .

(٣) أحمد بن حنبل والمحنة : ١٧٠ .

وقد اختلف الباحثون فى أصل مسألة خلق القرآن ، فقيل إن الجعد بن درهم أخذها عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن أعصم اليهودى ، فهى إذن من أصل يهودى . وقد أخذ جهم بن صفوان عن الجعد هذه الفكرة ، وانتقلت إلى المعتزلة، فكان أول من قال بها أيام الرشيد بشر المريسى ، وهو من أصل يهودى أيضاً ، كان أبوه يهودياً صباغاً بالكوفة . ويروى ابن الأثير أن أول من نشر هذه الفكرة بين المسلمين لبيد بن الأعصم الذى كان يقول بخلق التوراة ثم أخذها عنه ابن أخيه طالوت . ويقول ابن قتيبة فى عيون الأخبار إن أول من قال بها المغيرة ابن سعيد العجلى، وهو من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى . وكأن هذه الروايات تجمع على أصل الفكرة اليهودى ،ولكننا نجد باحثاً مثل « دى بور » يقول: إن القول بقدم القرآن متابعة لمذهب المسيحيين فى : الـكلمة Logos [1] .

وأياً كان الأمر فقد اعتقد المأمون بصحة هذه الفكرة ، وذهب بعيداً فى الانتصار لها ، لأنها فى رأيه متصلة بالتوحيد ، فإنكارها إنكار له ، بل هو يقول فى أول رسالة له « لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » . ونراه يبعث إلى عامله على بغداد إسحق بن إبراهيم الخزاعى – وهو ابن عم طاهر بن الحسين – كتاباً يطالبه فيه بامتحان القضاة والمحدثين فى موضوع خلق القرآن ، إذ يرى من واجبه تصحيح عقائد

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية : ٥٦ .

الناس الفاسدة الذين يرون بأن القرآن قديم ، ويرى المأمون أن يعـــدل
الناس عن هذا الرأى وخاصة القضاة ، بل إن القاضى لا يوثق بقضائه ،
والشاهد لا يوثق بشهادته إلا إذا اعتقدا بخلق القرآن . يقول فى هذا
الكتاب : « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد
الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ممن لا نظرله ولا روية ولا استضاءة
بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ،
وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا
بينه وبين خلقه ، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل
من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال تعالى
(إنا جعلناه قرآناً عربياً) فكل ما جعله الله فقد خلقه، كما قال الله تعالى
(وجعل الظلمات والنور) ، وقال (نقص عليك من أنباء ما قد سبق)
فأخبر أنه قص لأمور أحدثه بعدها ، وقال (أحكمت آياته ثم فصلت)
والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه »[١] .

وقد كتب المأمون هذا الكتاب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ
قبل أن يخرج للمرة الأخيرة لغزو الروم وقبل وفاته بنحو أربعة شهور ؛
وقد أرسلت صورة من هذا الكتاب إلى جميع الولايات فى الدولة .
ثم كتب المأمون كتاباً ثانياً إلى إسحق يأمره فيه بأن يشخص إليه سبعة
من وجوه المحدثين ببغداد حتى يتولى امتحانهم بنفسه . ويقول « باتون »
إن هذه الحركة من جانبه تدل على حذقه وبراعته إذا نظرنا إليها من وجهة

(١) انظر نص الرسالة فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٤ .

الهدف الذى كان يسعى إليه ، إذ يدخل فى روعهم وهم أمام أعوانه ورجال بلاطه وجلاديه ما قد يجره غضبه من نقمة وأهوال ، وإذا ظفر الخليفة بانقياد هؤلاء الزعماء ومتابعتهم لرأيه ، لم يكن هناك ما يخشاه ممن كان من المحدثين والفقهاء أقل شأناً وأدنى منزلة (١) .

أما هؤلاء الفقهاء السبعة الذين امتحنوا فى خلق القرآن فهم : محمد ابن سعد كاتب الواقدى ، أبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، يحيى بن معين ، زهير بن حرب ، أبو خيثمة ، إسماعيل بن داود ، إسماعيل بن أبى مسعود ، أحمد بن إبراهيم الدورقى . ويقال إن اسم أحمد بن حنبل كان مدرجاً بين أسماء هؤلاء السبعة ، ولكن أحمد بن أبى دواد أمر بمحوه ، ولعله أدرك أنه سوف يفسد إجابة الآخرين بتشدده . وقد أجاب هؤلاء السبعة المأمون إلى ما طلبه من الإقرار بخلق القرآن ، بفضل ما استخدمه معهم من وسائل الضغط ، إذ يقول أحدهم وهو يحيى بن معين : أجبنا خوفاً من السيف (٢) . ثم أرسلهم المأمون إلى عامله ببغداد ليشهر أمرهم ، وليجيبوا بما أجابوا به الخليفة فى حضرة الفقهاء وأهل الحديث .

وقد أساء موقف هؤلاء السبعة إلى أهل السنة جميعاً ، وكان ابن حنبل يرى أنهم لو ثبتوا وتوقفوا عن إجابة المأمون لانقطع أمر المحنة ، ولما سمع بها أحد فى بغداد ، ولكف المأمون عن مخاشنتهم ، ولهاب

---

(١) أحمد بن حنبل والمحنة : ١٠٨ .

(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٠٦ .

إيذاءهم ، لأنهم أقطاب المدينة وأعلامها ، ولكنهم لما ضعفوا لم يتردد الخليفة فى امتحان غيرهم ، فأحضر وجوه الفقهاء والمحدثين ، وقد عد لنا منهم الطبرى ستة وعشرين ، وقرأ عليهم إسحق بن إبراهيم كتاب الخليفة مرتين حتى يفهموه ، ثم بدأ امتحانهم واحداً بعد واحد ، وكتب مقالة كل منهم وبعث بها إلى المأمون ، وواضح من كلام الطبرى أن بعض هؤلاء الفقهاء قد أقروا بخلق القرآن[١] .

ولم يلبث أن جاءه كتاب الخليفة الرابع بعد تسعة أيام فقط ، وفيه يفضح العلماء الذين امتنعوا عن إجابته إلى ما طلب ، ويأمر إسحق بن إبراهيم بضرب عنق كل مخالف ، لأنه فى رأيه يرتكب (الكفر الصراح والشرك المحض) ، فهو يصف الذيال بن الهيثم بأنه كان يسرق الطعام فى الأنبار ، وأحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام بأنه صبى فى عقله ولا يحسن الجواب فى القرآن ، والفضل بن غانم بأنه يستغل نفوذه فى الإثراء غير المشروع ، وهكذا يصف كل عالم فيصمه وصمة خطيرة ، ولكنه لم يجد شيئاً يقوله عن أحمد بن حنبل إلا بأنه استدل بإنكاره على جهـــله[٢] .

وأحدث هذا التشهير غايته حين قرىء كتاب المأمون على العلماء ، فأقروا جميعاً بخلق القرآن ما عدا أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح المضروب . ولهذا قيدهم إسحق بالأغلال ووضعهم فى

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩ .
(٢) انظر نص الرسالة فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩ — ٢٩١ .

السجن ، ثم أحضرهم أمامه فى اليوم التالى فأجاب سجادة فأطلق سراحه، وأحضروا مرة أخرى أمام إسحق ليعاود امتحانهم فأجاب القواريرى ، ولم يثبت على اعتقاده إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، فحملا بأمر الخليفة من بغداد ليصيرا إليه ، فلما وصلا إلى أذنة وافاهما نعى المأمون .

ذلك هو موقف المأمون من مشكلة خلق القرآن ، كما يتضح لنا من كتبه التى أرسلها فى آخر حياته إلى عامله على بغداد ، وهى تعتبر وثيقة تشرح آراء المعتزلة فى هذه القضية مؤيدة بالآيات والشواهد والأدلة العقلية والنقلية . ويرى أحد الباحثين أن هذه الكتب من إنشاء أحمد ابن أبى دواد ، ويرجح ذلك على أساس أن المأمون كان مريضاً، وأنه يتسامى عما يحتويه الكتاب الرابع الذى يطعن فى الفقهاء والمحدثين ويذكر معايبهم رجلا رجلا (١) . ونحن لا نستبعد ذلك ، بل نميل إلى تأييده ، ولكن ليس معنى هذا أن المأمون لم يطلع على هذه الكتب ويقرها ، بل نرى أنها جاءت موافقة لهواه . فقد كان مؤمناً بفكرته إلى أقصى حد ، حتى إن العماد الحنبلى يقول فى كتابه « شذرات الذهب » إن المأمون قام هذه البدعة قيام متعبد بها، وكان يرى أنه بحمل الناس على الإيمان بهذه الفكرة إنما يتقرب إلى الله . وظل على إيمانه إلى آخر حياته فأوصى أخاه بمواصلة جهوده فى حمل الفقهاء والعلماء على الإقرار بخلق القرآن . ولهذا يلتمس العذر للمأمون لتشدده فى فرض رأى المعتزلة على الناس

---

(١) انظر : أحمد بن حنبل والمحنة : ٢٢ .

أجمعين ، إذ وقر فى نفسه بتأثير المعتزلة الذين أحاطوا به أن عدم الإقرار بخلق القرآن معناه رفض التوحيد ، مما يستوجب أقصى العقوبة . وبهذا شاب حكمه الذى امتاز بحرية الفكر والعقيدة سنوات طويلة بتهمة التعصب المقيت التى رماها به كثير من الباحثين من عرب ومستشرقين . وفى ذلك يقول « ول ديورانت » : لقد أساء المأمون إلى نفسه فى السنين الأخيرة من حياته لاضطهاده أصحاب السنة (١) . ويقول : « ألدو ميبلى » : لقد أقام المأمون تفتيشاً حقيقياً لمطاردة أهل السنة، وذلك باسم التفكير الحر (٢) . ويقول جمال الدين القاسمى : موضع الغرابة من كتاب المأمون هو حمل الناس على غير ما يعتقدون . وإكراههم على على أمر لم يمض به سنة ولم يجدوا فيه برهاناً من أنفسهم، مع أن الإكراه على أصل الأصول وما به العصمة والنجاة وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه فى غير ما موضع من التنزيل الكريم كآية « لا إكراه فى الدين » و « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » و « قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٣) .

وحقيقة الخلاف حول قضية خلق القرآن يجملها الأستاذ أحمد أمين فيقول إن المعتزلة والمأمون كان رأيهم العلمى حقاً وصحيحاً ، ولكن خصومهم كانوا على حق فى ألإتثار هذه المسألة أمام العامة . وقد أخطأ

---

(١) قصة الحضارة ١٣ : ٩٦ .
(٢) العلم عند العرب : ٩٥ .
(٣) تاريخ الجهمية والمعتزلة : ٥١ .

مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ

المعتزلة والحكومة خطأين : الأول إرادتهم إشراك العامة فى هذه المسائل ، والعامة أبعد الناس عن ذلك . وكيف يفهمون علم الكلام وهو علم دقيق تاهت فيه عقول الخاصة . والثانى حملهم الحكومة أن تتدخل بسلطانها فى هذه المسألة فكأنهم أرادوا أن يجعلوا مجالسهم للجدل والمناظرة مجمعاً كمجامع القساوسة يقررون فيه ما يشاءون ، ثم يرغمون الناس على القول بما يقررون . وقد غلوا غلواً شنيعاً فى أنهم عدوا السكوت عن القول بخلق القرآن إشراكاً . وأشد ما يدعو إلى الغرابة أن يكون المعتزلة مصدر هذا التعذيب وهم الداعون إلى حرية الفكر والقائلون بسلطان العقل(١) .

وكان انتصار المعتزلة من ناحية الجدل والاستدلال فى مناظرة أهل السنة واضحاً كل الوضوح لاعتمادهم على طريقة البحث الاستدلالية الجدلية ، أما أهل السنة فلم يكونوا يعارضونهم إلا بأقوال فقهائهم الذين كانوا يحاولون إبعاد الدين عن الجدل الفلسفى ، وكانوا يجيبون فى كل مسألة تثار بالرجوع إلى أصل من الحديث عن صحابة الرسول .

وواضح من المناقشات التى دارت بين إسحق بن إبراهيم وبين علماء السنة ضعفهم فى المجادلة والاستدلال وعدم الدخول فى جوهر المشكلة ، والتهرب من إيجاد براهين عقلية . وحين وقف أحمد بن حنبل يجيب عما وجه إليه من أسئلة كان يقتصر على الاقتباس من القرآن والحديث

---

(١) ضحى الاسلام ٣ : ١٩٢ .

دون أن يستنتج من هذه الاقتباسات أى نتائج ، وكان يسكت حين يسأله المحققون عما إذا كان موافقاً على أى نتيجة يفهمونها هم من اقتباساته .

وربما يرجع هذا إلى طبيعة فقه ابن حنبل الذى يعتمد على الكتاب والسنة الثابتة ، وكان اهتمام ابن حنبل بالحديث ورواته وتدوينه أشد من اهتمامه بالفقه والفتاوى ، حتى عده بعض العلماء من المحدثين ولم يعده من الفقهاء[1] .

ويقول الأستاذ محمد كرد على فى موقف ابن حنبل . ابن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعاً عقلياً ولا نقلياً عن رأيهم ، ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : إن القرآن مجعول لقوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) فإذا سئل : هل المجعول مخلوق ، أجاب : نعم ، فإذا قيل له : فالقرآن إذن مخلوق ، رفض أن يجيب بالإيجاب[2] .

وقد جاء مذهب الأشعرى فيما بعد ليسد النقص فى أسلحة أهل السنة بإزاء فرق المتكلمين حتى يمكننا عد الأشعرى مؤسس علم الكلام السنى فى الإسلام ، أو صاحب مذهب التوفيق بين أهل السنة والمعتزلة .

لقد قضى المأمون حياته مدافعاً عن العقيدة ، وفى سبيلها وفى سبيل حرية الرأى التى كان يتعشقها انزلق إلى محنة خلق القرآن التى بدأها فاستمرت بعد وفاته ست عشرة سنة ، إذ أمر المتوكل سنة ٢٣٤ هـ. بترك

---

(١) انظر : أسباب اختلاف الفقهاء : ٢٨٠ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ٢ : ١٣٤ .

النظر والجدال في هذه القضية وترك ما عليه الناس بالتسليم ، وأمر المحدثين بإظهار السنة .

وهكذا اجتهد المأمون في إقامة دين الله فلم يهتد إلى الطريق الصحيح في فترة من حياته لم يجد بعدها فرصة لإصلاح خطئه، إذ عاجلته المنون وهو يجاهد الروم بالسلاح ، ويجاهد أهل السنة لا بالعقل وحده – كما كان ينتظر منه – ولكن بسيف السلطان أيضاً ، بينما كان يحس في قرارة نفسه أنه إنما يفعل ذلك كله في سبيل العقيدة وفي سبيل الله .

الفصل السابع

صورة الحاكم والانسان

« كان معاوية بعمره ، وعبد الملك بحجاجه ، وأنا بنفسى »
جملة قالها المأمون وكان يعنى كل حرف فيها ، وهو يذكر معاوية بن
أبى سفيان وعبد الملك بن مروان بوصفهما أعظم خلفاء بنى أمية من
ناحية استقرار الخلافة وازدهارها ، فإذا كان معاوية قد استعان فى
تأسيس دولة بنى أمية بدهاء عمرو بن العاص وبراعته السياسية ، وإذا
كان عبد الملك قد استعان بالحجاج بن يوسف الثقفى فى قمع الفتن وردع
العصاة بالعنف الدموى ، فالمأمون لم يكن بجانبه الشخص القوى الداهية
الذى يستعين به فى أمور الدولة لكف العصاة وإخماد الفتن والنفاذ من
مسالك السياسة ودروبها الضيقة . وأغلب الظن أن المأمون قال هذه
العبارة بعد انقضاء أمر الفضل بن سهل ، وتوجهه إلى بغداد وحيداً
بجابه المشكلات دون أن يقف إلى جانبه من يشد أزره ويخفف عنه عبء
المسئوليات والمصاعب التى تقابله . وقد رأينا كيف كانت سياسة

المأمون بالنسبة للوزراء بعد مقتل الفضل بن سهل ، فهو لم يشأ أن يجعلهم وزراء يتحملون مسئوليات الدولة السياسية والإدارية ، وإنما كانوا بالنسبة إليه مجرد كتاب يملى عليهم أوامره فينفذون مشيئته . وواضح من سيرته معهم أنه لم يكن يدعهم يبرمون أمراً إلا بإذنه . حتى مظالم الناس وشكاياتهم كان يسمعها بنفسه ويمضى فيها برأيه .

وهكذا تغيرت صورة الوزير فى عهده تغيرا كبيرا عما عهدناه فى وزراء الخلفاء العباسيين السابقين الذين كانوا يتصرفون فى أمور الدولة تصرفاً واسعاً ، بلغ غايته بالنسبة للبرامكة فى عهد الرشيد ، حتى أصبح لا يعى من أمر الدولة إلا ما يخبره به وزيره، وكان المأمون كذلك بالنسبة للفضل بن سهل ، ولكنه أحس أنه كان مخطئاً فى حق نفسه ودولته ، حتى أوشك الأمر أن يخرج من يده بسبب تسلط الفضل عليه . واعتبر بما كان من البرامكة فى عهد أبيه الرشيد ، فقرر أن يصرف شئون حكمه بنفسه .

وليس عجيباً أن يكون الوزراء الذين عملوا مع المأمون كتاباً فى أول أمرهم ، فقد كان بحاجة إلى كتاب ، كما أن الكتابة ارتبطت بالوزراء منذ عهد بعيد . وليس عجيباً أيضاً أن يكون هؤلاء الوزراء الكتاب جميعاً من الموالى، فإننا نجد الموالى يمثلون ديوان الخراج منذ إنشائه وهو الكفيل بموارد الدولة ومصادرها ودخلها وخرجها ، فكان أجنبياً فى صورته ورجاله عند إنشائه ، كان فارسياً فى العراق وخراسان وما إليهما ، فكان يتولاه فى العراق مثل زادان فروخ منذ أيام معاوية ،

وكان يتولاه فى خراسان إسطفانوس ، أما فى الشام ومصر فكان ديوان الخراج رومياً ، فتولاه زمن معاوية إلى عهدعبد الملك بن مروان سرجون ابن منصور الرومى . وفى مصر كان إيناس بن خماية .

وكان لأصحاب هذه الدواوين سلطان كبير فى الدولة بسبب هذا المكان الذى يحتلونه منها ، والحاجة التى يستشعرونها من الدولة إلى خدماتهم . ولما اتجهت الدولة أيام عبد الملك بن مروان إلى تحويل الديوان إلى العربية تحول فى صورته فقط ، أما رجاله من الموالى فظلوا فى مكانهم ، فاللغة العربية لم تكن تنقصهم .

وأما ديوان الرسائل فقد نشأ عربى الصورة بطبيعة الحال لأنه يتولى أمر المكاتبات الرسمية الصادرة من الخلافة ، ولكن رجاله جميعاً كانوا من الموالى . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى قلة تجربة العرب فيما يتصل بتدبير الدولة وممارسة السياسة . ولكن هناك سببا آخر وهو أن العرب كانوا ينظرون إلى أمثال هذه الوظائف الكتابية نظرة غير كريمة باعتبارهم عنصرا فاتحاً يمتاز بالقوة والفروسية ، وله حق السيادة والامتياز . **ومما يشير إلى تحقير العرب لوظائف الكتابة وتفضيلهم السيف على القلم مايذكره الجهشيارى من قول جرير بن الصلت النمرى :**

أتحقـــرنى ولســـت لـــذاك أهـــلا
وتـــدنى الأصغـــرين من الحـــوان
جهـــابذة وكتـــابـــاً وليســـوا
بفـــرســـان الـــكريهـــة والطعان

ستعــرفنى وتــذكــرنى إذا ما
تــلاقى الحــلقتان من البطــــان (١)

وهكذا نرى أن الموالى انفردوا أو كادوا بديوان الخراج وديوان الرسائل جميعاً ، وبلغوا بذلك فى تدبير شئون الدولة منزلة فوق منزلة المشاركة ، ولا سيما منذ تعاظمت خطورة هذا الديوان ، فعلا تبعاً لذلك شأنهم فى الدولة ، كما تعاظمت منزلتهم الاجتماعية منذ أوائل القرن الثانى . واستطاع الكتاب بما لهم من ثقافة خاصة أن يفرضوا لأنفسهم مكاناً من الدولة ، فإذا بهم منذ أوائل الدولة العباسية يحتلون منزلة لا مطمع من ورائها ، وذلك حين أطلق على أحدهم وهو أبو سلمة الخلال لقب الوزير ، ثم إذا بأمور الدولة كلها موكولة إليهم ، فلم يقنعوا أن يكونوا كتاب رسائل فحسب ، وإنما مدوا أبصارهم إلى الآفاق البعيدة ليهيمنوا على سياسة الدولة ويفرضوا أنفسهم على الخلفاء . فليس بدعاً إذن أن يكون كتاب المأمون ووزراؤه جميعاً من الموالى ، ولكنهم جميعاً – أو معظمهم على الأقل – كانوا من الكتاب البازرين والبلغاء المشهود بكفايتهم ، وهذا الجانب هو الذى كان يحتاجه المأمون منهم .

ولا شك أن المأمون كان ذا مقدرة عظيمة فى اختيار الأشخاص الأكفاء الذين يعملون معه ، وكان بارعاً فى إخفاء معايبهم أو مداواتها فى سبيل الاستفادة من كفايتهم فى نواح كثيرة ، ولعل من أبرز الأمثلة

(١) انظر : الوزراء والكتاب : ٢١٥ .

على ذلك موقفه من أحمد بن أبي خالد الأحول ، فقد كان ذا كفاية إدارية عظيمة ، ولكن كانت به نقيصة الشره إلى الطعام ، وكان المأمون يعرف ذلك عنه ، وجه به يوماً إلى رجل يطالبه بمال وأرسل وراءه عيناً له لينظر ما يقوله للرجل وما يرد عليه ويعلمه ما يصنع عنده . فلما ذهب ابن أبي خالد إلى الرجل — وكان يعرف شرهه — أعد له غذاء فخماً فأتى على ما فيه من حار وبارد وحلو وحامض ، ومن ضمنه عشرون فروجاً لم يدع منها إلا عظماً عارياً ، وإزاء هذه الأكلة خفض مقدار ما يستحقه المأمون قبل هذا الرجل ألف ألف درهم [1] .

وكان المأمون يقول إن أحمد بن أبي خالد فيه جنسية من الكلاب ، فالكلب يحرس المنزل بالكسرة واللقمة ، وأحمد بن أبي خالد يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة ! ولهذا أجرى عليه ألف درهم فى كل يوم لمائدته لئلا يشره إلى طعام أحد .

وكانت رقابة المأمون له كفيلة بمنع شرهه بالإضافة إلى ما قدم له من بره . ومما يدل على استئثار المأمون بالنظر فى كل أمور الدولة ، ما يحكيه ابن طيفور عنه إذ قال لأحمد بن أبي خالد : اغد على باكرا لآخذ القصص التى عندك فإنها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها فقد طال صبرهم على انتظارها . فبكر وقعد له المأمون فجعل يعرضها عليه ويوقع

---

(١) انظر القصة فى كتاب بغداد : ١٢٣ .

عليها إلى أن مر بقصة رجل يقال له فلان اليزيدى فصحف وقال الثريدى ، فضحك المأمون وقال : يا غلام ثريدة ضخمة لأبى العباس فانه أصبح جائعاً ، فلما أكلها وغسل يده رجع إلى القصص فمرت به قصة فلان الحمصى فقال : فلان الخبيصى ، فضحك المأمون وقال : يا غلام جاما ضخماً فيه خبيص فإن غداء أبى العباس كان مبتورا ، فلما أكله عاد إلى القصص فما أسقط حرفاً حتى أتى على آخرها (١) .

ولا شك أن هذه القصة تطلعنا على تواضع المأمون الشديد وتلطفه فى معاملة كتابه ، لا مع ابن أبى خالد فحسب ، بل مع كل الذين عملوا معه . فقد روى إبراهيم بن الحسن بن سهل قال : كنا فى مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع . فجاءته عطسة فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون فقال : يا عمرو لا تفعل فإن رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعاً فى العنق ، فقال بعض ولد المهدى : ما أحسنها من مولى لعبده وإمام لرعيته ، فقال المأمون ، وما فى ذلك ، هذا هشام اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبى إلى إصلاحها ، فقال هشام : إنا لا نتخذ الإخوان خولا (٢) ، فالذى قال هشام أحسن مما قلته (٣) .

ولم يكن من عادة المأمون — بطبيعته السمحة التى نعرفها — أن ينكب وزراءه كما فعل أسلافه، وأقسى ما صدر منه فى حق واحد منهم، ما فعله

---

(١) المصدر نفسه : ١٢١ والخبيص طعام من التمر والسمن .
(٢) الخول : العبيد .
(٣) زهر الآداب ٣ : ٩١ .

بأحمد بن أبى يوسف بتأثير مؤامرة مدبرة من المعتصم ، إذ وضع تحته البخور فأضر به ، ويقول فى ذلك الأستاذ محمد كرد على : « كادت المصادرات والنكبات تبطل فى أيامه ، فلا ينكب إلا من حاول نقض بنيان الدولة » ، ولقد رفع إليه أن عمرو بن مسعدة خلف ثمانين ألف ألف درهم أو نحو ثمانية ملايين دينار فوقع على الرقعة « هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » (١) .

وإذا قارنا هذا بحالات الاستصفاء التى تمت قبل المأمون وبعده وجدنا الفارق كبيرا ، وأدركنا أن المأمون لم يكن يزعجه قط ثراء واحد من عماله ، لأن مراقبته الشديدة له كفيلة بأن تجعل ثراءه مشروعاً ، وليس على حساب أبناء الشعب .

ومن أجل هذا كان المأمون يوسع على عماله حتى لا يسرقوا أموال الرعايا ، وقد رأينا كيف خصص نفقة يومية ليكف شره أحمد بن أبى خالد ، كما رفع عمالة الفضل بن سهل فجعلها ثلاثة آلاف ألف درهم كل عام حين عقد له على الشرق كله ، وكان المأمون رفيقاً مع عماله والمخالفين له من الناس جميعاً ، على الرغم من أنه أنشأ جهازاً قوياً للمخابرات فى أنحاء مملكته يأتيه بأخبار عماله ورعيته حتى إن النويرى يذكر فى نهاية الأرب أنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بهن أحوال الناس ومن يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين ، وكان

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ٢ : ٢٣١ .

لا يجلس فى دار الخلافة حتى تأتيه مخابراته بحصيلة من الأنباء ، بل كان هو نفسه يدور ليلا ونهاراً مستتراً حتى يتعرف على آراء الناس فى كل ما يعرض لهم من شئون حياتهم . وبالإضافة إلى هذا كله كان أصحاب الأخبار منبثين فى كل مكان من ولايات الدولة ، ومهمتهم الرسمية الكتابة إلى المأمون بالأخبار المهمة التى تمس سياسة الدولة الخارجية والداخلية . وكان المأمون يلجأ أحياناً إلى أناس عاديين يحصل منهم على أخبار العامة ، وفى ذلك يقول ابن طيفور على سبيل المثال : كان المأمون يستطرف محمد بن الخليل ويدعوه أحياناً فيقول له : ما تقول العامة وما يتحدث به الناس ؟ فيخبره بذلك[1] .

ويروى لنا ابن طيفور أيضاً قصة واحد من رجال مخابرات المأمون أو هو رئيس هذا الجهاز واسمه إبراهيم بن السندى، وكان يتولى الخبر فى منطقة بغداد كلها ، لا يفعل ذلك بنفسه وإنما يبث أصحاب الأخبار فى كل جزء من المنطقة التى يشرف عليها .

رفع إلى إبراهيم هذا أن صاحب الحرس فى بغداد أخذ امرأة مع رجل نصرانى من تجار الكرخ فهجم عليهما ، فافتدى النصرانى نفسه بألف دينار ، فأبلغ المأمون بذلك الخبر فاستدعى عبد الله بن طاهر وواجهه بما وصل إليه فقال : يا أمير المؤمنين رفع إليك الباطل والزور ، وجعل يغريه بإبراهيم بن السندى ويحمله عليه ، فأثر ذلك فى قلبه ،

---

(١) كتاب بغداد : ١٣١ .

فقال لإبراهيم : ترفع إلى الكذب وتحملنى على عمالى ، فأجاب إبراهيم : لو كانت الأخبار لا تصح إلا بشاهدى عدل ما صح خبر ولا كتبت به ، ولكن مجيء الأخبار إن لم يحضرها أقوام على غير تواطؤ ولا تشاعر ، من كانوا ومن حيث كانوا ، وإنما يحضر الأخبار الطفل والمرأة والمحتال والذمر وابن السبيل . واقتنع المأمون بهذا الرد ، ولكنه قال : إنى آمر وأدارى عمالى وعمالهم مداراة الخائف ، والله ما أجد إلى حملهم على لمحجة البيضاء سبيلا ، فاعمل لى على حسب ما ترانى أعمل [1] .

وهكذا يتابع المأمون عماله فى أدق أمورهم ، ولكنه لا يقسو عليهم ولا يعتو ، وكل ما كان يتمناه أن يوجههم إلى الطريق الصحيح لخدمة الناس ومراقبة الله فى كل ما يعملون .

وكان يؤمن بأن ظلم العمال هو سبب كل فتنة تحدث فى ملكه فهو يقول : ما انفتق على فتق إلا وجدت سببه جور العمال [2] . ولهذا كان يحرص على تتبع أخبارهم ويحاول أن يمحو آثار سوء سيرتهم ، فحينما ثار أهل صعيد مصر عربها وقبطها وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة بسبب سوء سيرة العمال فيهم ، ذهب المأمون بنفسه إلى مصر – كما سبق أن أشرنا – وسخط على عامله عيسى بن منصور وقال له : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد .

---

(١) كتاب بغداد : ٤١ والذمر الشجاع المعوان .
(٢) تاريخ الخلفاء : ٢١٧ .

ومع اهتمام المأمون البالغ باستقصاء أخبار العمال ، لم يكن سريع التصديق لكل ما يصله من أخبار ، بل كان يدقق فيها ويرفض منها ما يشتبه عليه . ولهذا نرى أنه كف السعايات والوشايات فى عهده فلم يكن لها أدنى تأثير عليه . وقد ذكر البيهقى فى المحاسن والمساوىء أن صاحب بريد همذان كتب إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما ، فوقع المأمون : « إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية ، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شىء كمن قبله وأجازه ، فانف الساعى عنك ، فلئن كان فى سعايته صادقاً ، لقد كان فى صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه » . وهذا لا شك موقف عظيم لحاكم يعرف مسئوليات الحكم ويأنف أن يجور على أحد بسبب وشاية قد تكون كاذبة ، وهو يضاف إلى موقفه السابق من رفضه مصادرة ثروة عمرو بن مسعدة باعتبارها شيئاً طبيعياً وليست منهوبة من أموال الشعب ، ولهذا نجد عمال المأمون يتفانون فى خدمته ويربطهم به ولاء حقيقى ، ليس ولاء مداراة أو تخوف . يقول ابن طيفور فى ذلك : إن أحد إخوة المأمون أبلغه أن عبد الله بن طاهر يميل إلى العلويين فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ولكنه رأى أن يتحقق بنفسه من صدق هذا الخبر ، فدس رجلا قال له امض فى هيئة الغزاة أو النساك إلى مصر فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم ابن إبراهيم بن طباطبا ، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صر بعد ذلك

إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائته فادعه ورغبه فى استجابته له ، وابحث عن دقيق منبته بحثاً شافياً ، وائتنى بما تسمع منه ، ففعل الرجل ما أمره به المأمون حتى إذا دعا عبد الله بن طاهر إلى ابن طباطبا قال له : أتنصفنى؟ قال : نعم ، قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : نعم ، قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل ؟ قال : نعم ، قال : فتجىء إلى وأنا فى هذه الحال التى ترى لى : خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم ما ألتفت يمينى ولا شمالى ، وورائى وقدامى إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها على ، ومنة ختم بها رقبتى ، ويدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرماً ، فتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان وتقول : اغدر بمن كان أولا لهذا وآخراً . . » (١)

ويقول الأستاذ محمد كرد على فى ذلك الولاء الذى يربط المأمون بعماله ، بل يربطه بشعبه كله : كان فى المأمون شىء من الجاذبية الفطرية يستميل بها القلوب ، ويجمعها على حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها فى المفيد ، ولا لغو ولا لهو فى حياته ، فكان بإرادته مثال الجد فى الخوالف من بنى العباس ، يفكر فى أمر رعيته أكثر من تفكيره فى أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق فى التقدم إلى عماله فى حسن السيرة وتخفيف المئونة وكف الأذى ، وكان يعدل الخراج إذا شكا منه

(١) كتاب بغداد : ٨١ ، ٨٢ .

أهله . وأصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب والى الحرمين إلى المأمون يذكر له الحال ، فوجه إليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب إلى الوالى (أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فبكاهم بقلب رحمته ، وأنجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف إليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ، إن أذن الله فى تثبيت عزمه على صحة نيته) . وكان له فى كل بلد حوادث من من الإحسان قلما يتسامى إليها أحد من الخلفاء ، وكانت نفقته كل يوم ستة آلاف دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف[1] .

وقد اشتهر المأمون بكرمه الواسع الفياض ، وكأن سماحة يده وسماحة نفسه تنبعان من مصدر واحد ، وكان يقول : « سادة الناس فى الدنيا الأسخياء »[2] . وكل من اتصل به لهج بكرمه ، حتى قالوا عنه إنه أجود من السحاب الحافل والريح العاصف . ولا أدل على ذلك مما يروى عنه حين كان بالشام وقد ضاق به الحال لنقص الأموال فى يده ، فما لبث حتى جاءه مال كثير ، فأبى أن يغادر مكانه حتى فرق هذا المال كله . وروى أحد عمال المأمون أنه قدم عليه ومعه سبعة آلاف ألف درهم، فعرضها على المأمون وقال : هذا المال فضل معى عن النفقة ، فقال له المأمون : خذه فهو لك ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين لا أقبله ، فقال :

(١) الاسلام والحضارة العربية : ٢٣٣ ـ ٢٣٥ .
(٢) مروج الذهب ٢ : ٣١٦ .

خذ منه خمسة آلاف ألف ، فامتنع عن ذلك ، فأمره أن يأخذ أربعة آلاف ألف ، وقال : لاأشفعك فى امتناعك عن ذلك . فأخذها الرجل وفرق المال على ولد المأمون وأمهات أولاده وحشمه ، فارتجع المأمون المال وقال : إنما دفعناه إليك لتنتفع به ليس لتنفعنا به [1].

ومن أجل الرعية وفى سبيل الشعب كان المأمون حريصاً على قراءة كل الشكاوى والمظالم التى تصل إليه ، يحققها بنفسه ويشير فى كل منها بالرأى الذى ينصف المظلوم من الظالم ، ونراه ينصح يحى بن خالد ويقول يا يحي اغتنم قضاء حوائج الناس فإن الفلك أدور والدهر أجور من أن يترك لأحد حالا أو يبقى لأحد نعمة [2] .

وكان المأمون يعمل بهذه الحكمة طوال حياته . فكان يجلس للمظالم كل يوم أحد من الصباح حتى الظهر ، وذلك منذ قدم إلى بغداد [3] . ويذكر ابن طيفور — ولعله أصدق — أنه كان يجلس للمظالم مرتين فى كل جمعة لا يمتنع منه أحد ، وهو يصف لنا مجلس المأمون البسيط المتواضع فيقول إنه كان يقعد فى صدر نهاره على لبود فى الشتاء ، وعلى حصر فى الصيف ليس معهما شىء من سائر الفرش [4] ، ونحن لا نستغرب هذا من المأمون الذى كثيراً ما كان يقول : ما أقبح اللجاجة بالسلطان [5] .

(١) كتاب بغداد : ٣٩ .

(٢) تاريخ الخلفاء : ٢١٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٥ .

(٤) كتاب بغداد : ٣٦

(٥) تاريخ الخلفاء : ٢١٤ .

وكان لا يأذن فى تقبيل يده ، ويقول لرجل أراد ذلك: قبلة اليد من المسلم ذلة ومن الذمى خديعة ولا حاجة بك أن تذل ولا بنا أن نخــدع [١].
والذى يقول أيضاً : غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القدرة ، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها ، وغلبة الحجة لا يزيلها شيء[٢] .

وحين كان بجلس المأمون للمظالم تقدمت إليه امرأة تشــكو ابنه العباس ، فطلب إلى وزيره أحمد بن أبى خالد أن يأخذ بيد العباس ويجلسه مع المرأة مجلس الخصوم ، ثم جعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك ، فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم قضى لها بحقها وأمر لها بنفقــة[٣] .

ولم يكن المأمون ينصف المسلمين فحسب ، بل كان يحس مسئوليته تجاه الناس جميعاً ، أياً كان اعتقادهم . ومما يدل على ذلك ما روى عنه حين قعد للمظالم يوماً فقدم ســلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا فنظر فى مظالمهم ، وأمر فقضى حوائجهم ، وكان فيهم نصرانى من أهل كشــكر ، كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعــد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة ، فقال : ابطحوه، فضربه عشرين درة

(١) العقد الفريد ٢ : ١٢٨ .
(٢) تاريخ بغداد ١٠ : ١٨٦ .
(٣) العقد الفريد ١ : ٣٣ .

ثم قال لسلم : قل له تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصرانى قل له : أعود وأعود وأعود حتى ينظر فى حاجتى ، فأبلغه سلم ما قال . فقال المأمون : هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ، ثم قال لسلم : اقض حاجة هذا كائناً ما كانت الساعة[١] .

وفعل المأمون مثل ذلك مع رجل فارسى صاح به فى الطريق قائلا إن أحمد بن هشام – وهو من بطانة المأمون ظلمنى واعتدى على ، فعنف المأمون أحمد بن هشام وأمره بإنصاف الرجل وإعطائه ما أنفق فى طريقه إلى المأمون . وقال له : والله لوظلمت العباس ابنى كنت أقل نكيراً عليك من أن تظلم ضعيفاً لا يجدنى فى كل وقت[٢] .

ومن توقيعات المأمون التى توضح نواحى عظمته فى إقرار الحق والعدل فوق كل اعتبار قوله : « من علامات الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من دونه » ، وقوله : « لا أدنياك والك ببابى خصم » ، وقوله : « يا عمرو اعمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » . وقوله : « ليس بين الباطل والحق قرابة » ، وقوله : « لا تغتر بموضعك من إمامك فإنك وأخس عبيده فى الحق سيان »[٣] . ومن رفق المأمون برعيته أن أصحاب الأخبار وجدوا فى طرقات بغداد رقاعاً فيها شتم للسلطان وكلام قبيح ، فكتب رئيسهم إبراهيم بن السندى يقول للمأمون : « إنا أصبنا يا أمير

---

(١) كتاب بغداد : ٥٩ .
(٢) كتاب بغداد : ٥٩ .
(٣) العقد الفريد ٤ : ٢١٥ .

المؤمنين رقاعاً فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظة إلى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره » ، فكتب المأمون يقول : « هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خرقه ، فمر أصحاب أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها قبل أن ينظروا فيها ، فإنهم إذا فعلوا ذلك لم ير لها أثر ولا عين »(١) .

ومما ينم عن هذا الرفق بالرعية والتجاوز عن الأخطاء التي تصدر عن العامة بسبب عدم الاهتداء إلى وجه الحقيقة ، ما روى عن رجل من الزهاد مر في زورق ، فلما نظر إلى بناء المأمون وأبوابه صاح : واعمراه ! فسمعه المأمون فدعابه ، فقال : ما قلت ؟ قال : رأيت بناء الأكاسرة ،فقلت ما سمعت ، قال المأمون :أرأيت لو تحولت من هذه المدينة إلى إيوان كسرى بالمدائن ، هل كان لك أن تعيب نزولي هناك ؟ قال : لا ،قال: فأراك إنما عبت إسرافي في النفقة ؟ قال : نعم ، قال : فلو وهبت هذا البناء لرجل ، أكنت تعيب ذلك؟ ، قال : لا ، قال : فلو بنى هذا الرجل بما كنت أهب له بناء ، أكنت تصيح به كما صحت بي ؟ قال : لا، قال : فأراك إنما قصدتني بخاصة في نفسي ، لا لعلة هي في غيري ، ثم قال له : هذا البناء ضرب من مكايدنا نبنيه ونتخذ الجيوش ، ونعد السلاح والكراع ، وما بنا إلى أكثره حاجة ، فلا تعودن إلى فتمسك عقوبتي ، فإن الحفيظة ربما صرفت ذا الرأي إلى هواه(٢) .

---

(١) كتاب بغداد : ٤٢ .

(٢) عيون الأخبار ١ : ٣١٤ .

وهكذا ناقش المأمون هذا المنتقد له مناقشة عقلية سليمة ، وكشف له عن خطأ ما ذهب إليه وأبان وجه الحاجة فى اتخاذ قصور للخلفاء والحكام ، وكان المأمون يعنى ما يقول ، فهو يريد أن يظهر دائماً لأعدائه بمظهر البذخ والقوة ، أما فى نفسه فكان متواضعاً زاهداً ، وقد روى ابن أبى دواد أن ملك الروم أهدى إلى المأمون هدية فيها مائتا رطل مسك ، ومائتا جلد سمور ، فقال : أضعفوها له ليعلم عز الإسلام[1] .

وإذا كان المأمون لا يقدم على اعتداء ، أو يسبق إلى ظلم ، بناء على الأخبار التى كانت ترد إليه ، فقد كان يسعى فى إصلاح الولاة والعمال ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وإصلاح حال الناس إذا جاءه من الأخبار ما يستدعى ذلك ، وقد رفع إليه بعد قدومه إلى بغداد بقليل أن التجار فى شهر رمضان يعتدون على ضعفاء الناس فى الكيل ، فأمر بقفيز سعته ثمان مكاكيك ، وجعل فى وسطه عموداً وسمى الملجم . وأمر التجار أن يغيروا مكاكيكهم عليه، ففعلوا ذلك ورضى الناس[2] .

وما أصدق قول المسعودى فيه : « إنه كريم المقدرة ، ميمون النقيبة ، حسن التدبير ، جليل الصنائع ، لا تخدعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، علمه بما بعد عنه من ملكه كعلمه بما حضره »[3] .

ولا شك أن اهتمام المأمون بالأحوال الداخلية التى تمس شعبه بصورة

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢١٦ .

(٢) كتاب بغداد : ١٩ .

(٣) التنبيه والاشراف : ٣٤٩ .

مباشرة يدل على حسن سيرته ومقدار ما كان يبذل من نفسه فى خدمة عامة الشعب ، لا يرجو بذلك سلطاناً ولا جاهاً ، وإنما يتقرب إلى الله به . وكان هذا الاهتمام بالأمور الداخلية جزءاً يسيراً من السلطات والمسئوليات الجسيمة التى كان على المأمون أن يؤديها . كانت الفتن والثورات لا تنقطع — كما بينا فى حديثنا عن الأحوال السياسية فى عهده — وكان مضطراً إلى خوض حروب كثيرة فى الداخل والخارج . ولم يكن خوضه هذه الحروب بدافع الرغبة فى اكتساب المجد والفخار ، أو توسيع حدود سلطانه ونفوذه ، فقد كان المأمون بعيداً عن ذلك كله ، وكان يتمنى أن يوجه أموال الدولة كلها لخدمة الشعب ، لا أن ينفقها على الحروب ويبددها فى ساحات المعارك . ومن الحكم الدالة على اتجاهه هذا قوله : « أخر الحرب ما استطعت . فإن لم تجد منها بدأ فاجعلها فى آخر النهار »(١) .

ويبدو أنها من الحكم الفارسية المنقولة التى كان المأمون يحفظ منها ما يوافق آراءه ويصادف هوى فى نفسه . وقد نفذ المأمون هذه الحكمة تنفيذاً دقيقاً . فلم يكن يخوض غمار أى حرب مضطراً إلا بعد أن يبذل ما فى وسعه لتجنبها . وأبلغ دليل على ذلك مفاوضته الدائمة لنصر بن شبث لتجنب القتال ، فلما استكبر نصر حاربه المأمون وانتصر عليه . كذلك نرى المأمون لا يندفع فى قتال الروم إلا فى أخريات أيامه بسبب مساعدة الروم المستمرة لبابك الخرمى الذى كان المأمون يرى فى تجرده

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠٨ .

لقتاله تقرباً إلى الله وإعزازاً لدينه لفداحة ما يدعو إليه بابك من المروق عن الدين والاستهتار بكل القيم الإنسانية والخلقية .

وجملة ما يقال فى شخصية المأمون الحاكم أنها تتميز بالإنسانية والتعقل فى كل تصرفاته ، وتبرأ من روح الانتقام والحقد والشهوة إلى سفك الدماء . فكما سلم عهد المأمون من استصفاء أموال الناس ونكبة الوزراء والوجهاء . سلم كذلك من مشهد السيف والنطع الذى لم يكن يفارق كثيراً من الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ، إلا فى القليل النادر . ويقول « ول ديوارنت » إن المأمون لم ينج من الصفتين اللتين شانتا أخلاق هارون الرشيد ، فكان فى بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله . ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادىء الطباع [1]» .

وقد لا يبرأ المأمون من تهمة الغضب . بل لا نكاد نبرىء منها أى إنسان . أما القسوة فهى شىء آخر لا نظن أن من الحكمة اتهام المأمون بها ، أو مقارنته بأبيه الرشيد فى هذا الصدد . وإن كان الأستاذ أحمد فريد رفاعى يميل إلى الاعتراف بأن المأمون « كان يتصرف فى بعض الحوادث تصرف الجبابرة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ما سردوا به صحائف تاريخهم » . ويضرب على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون (وحشية غريبة) ويقصد بها قتل المأمون الشاعر

(١) قصة الحضارة ١٣ : ٩٥ .

الأعمى الذى مدح أبا دلف وغالى فى مدحه وإطرائه ، بينما كان أبو دلف من قواد الأمين الذين أبوا أن يدخلوا فى طاعة المأمون ، ثم لم يلبث أن عفا عنه المأمون وقربه إليه[1] . إلا أن حادثة كهذه لا يمكن أن تكون دليلا على قسوة المأمون لأنها حادثة مفردة لا تساوى شيئاً إلى جانب حوادث العفو الكثيرة التى كان فيها المأمون أكثر من نبيل .

أما موقف المأمون من على بن هشام الذى قتله شر قتلة ، وكان من بطانته المقربين منذ كان فى مرو ففيه دلالة على عظمة المأمون لا على قسوته ، عظمته كحاكــم يقدر مسئوليته ويحرص على رعيته ويجعل مصلحتها فوق كل عاطفة أو مصلحة .

وقد روى لنا الطبرى فى حوادث سنة سبع عشرة ومائتين خبر قتل على بن هشام ،وهويقول إن المأمون قتله بسبب سوء سيرته فى أهل عمله الذى كان المأمون ولاه — وكان ولاه كور الجبال —وقتله الرجال وأخذه الأموال ، وقد أمر المأمون أن يكتب بيان يعلق على رأسه ليقرأه الناس جاء فيه : « أما بعد فإن أمير المؤمنين كان دعا على بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيام المخلوع إلى معاونته والقيام بحقه وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة وعاون فأحسن المعاونة . فرعى أمير المؤمنين ذلك له واصطنعه وهو يظن به تقوى الله وطاعته. والانتهاء إلى أمر أمير المؤمنين فى عمل إن أسند إليه فى حســن الســيرة وعفاف الطعمة .

(١) انظر : عصر المأمون ١ : ٣٧٣ .

وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه فولاه الأعمال السنية ووصله بالصلات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها . فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم ، فمد يده إلى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة فباعده عنه وأقصاه ثم استقال أمير المؤمنين عثرته فأقاله إياها وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ومحاربة أعداء الله الخرمية على أن لايعود لما كان فيه ، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرمة ، فوجه أمير المؤمنين عجيف بن عنبسة مباشراً لأمره ، وداعياً إلى تلافي ماكان منه ، فوثب بعجيف يريد قتله ففدى الله عجيفاً بنيته الصادقة في طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه . . . فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في علي بن هشام ، رأى أن لا يؤاخذ من خلفه بذنبه ، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم مثل الذى كان جارياً لهم في حياته »(١) .

وهذا البيان الذى كتبه المأمون يعد بمثابة حيثيات حكم الإعدام الذى نفذه في علي بن هشام ، وكان المأمون صريحاً وواضحاً في سرد وقائع الاتهام وذكر حسنات الرجل ومساوئه التي طغت عليه ، وهو يكشف عن أخلاق رفيعة من حاكم يقدر ماضي رجل فيمنحه الفرصة بعد الفرصة ليصلح أخطاءه دون جدوى ، وكان أخطرما في الموضوع

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٢ .

— وقد أشار إليه المأمون من طرف خفى — هو أن على بن هشام أراد خلع طاعة المأمون ، وحاول اللحاق ببابك الخرمى والانضمام إليه ، ولهذا وثب بعجيف بن عنبسة كما قال المأمون . وعلى هذا استحق على ابن هشام حكم الإعدام بسبب خيانته العظمى للدين والدولة على السواء . ويرى المأمون — ومعه الحق كله — أنه لم ينفذ فى على بن هشام إلا حكم الله بينما أبى — نبلا منه وكرماً — أن يأخذ أبناء الرجل بجريرته ، فأجرى عليهم الأرزاق كما كانت جارية فى حياة أبيهم .

وأما الشخص الثالث الذى ضاق عنه عفو المأمون وأمر بقتله فهو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة وهو من كبار العباسيين . وقد تزعم حركة خلع المأمون من الخلافة والمبايعة لعمه إبراهيم بن المهدى . فلما ظفر به المأمون سنة عشر ومائتين ، أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس ثم ضربه بالسياط وحبسه فى المطبق . واعترف بعد القبض عليه بأسماء الذين اشتركوا فى مؤامرة خلع المأمون ، ولكن المأمون رفض أن يتعرض لأحد ممن ذكرهم إذ لم يأمن أن يكون قد قذف قوماً أبرياء . وكان من الممكن أن ينتهى عقاب المأمون لابن عائشة ومن معه عند هذا الحد ، ولكن تطور الأمر بعد قيامهم بحركة تمرد وعصيان فى سجنهم ، يقول فى ذلك الطبرى : (رفع أهل المطبق أنهم يريدون أن يشغبوا وينقبوا السجن ، وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدوا باب السجن من داخل فلم يدعوا أحداً يدخل عليهم ، فلما كان

الليل وسمعوا شغبهم بلغ المأمون خبرهم فركب إليهم من ساعته بنفسه ، فدعا بهؤلاء الأربعة[1] فضرب أعناقهم صبراً ، وأسمعه ابن عائشة شتماً قبيحاً)[2] . فهناك إذن أكثر من سبب يدعو إلى قتل ابن عائشة ومن معه من رؤوس الفتنة ، فبالإضافة إلى عدائه السابق للمأمون وخلعه إياه يريد أن يقوم بحركة تمرد وعصيان فى السجن، فكأنه لم يعلن توبته . ولايزال على عدائه للخليفة ، بدليل شتمه المأمون شتماً قبيحاً كما يقول الطبرى . ويتبين لنا اضطرار المأمون إلى قتله فى تمثله بهذا البيت :

إذا النـــار فى أحجـــارها مســـتكنة

مـــتى ما يهجهـــا قـــادح تتضرم[3]

وفيما عدا هؤلاء الثلاثة لا نكاد نعثر فى أخبار المأمون أنه قتل غيرهم ، إلا من كان ذا جريمة تدعو إلى القصاص . وحتى هؤلاء الثلاثة — كما رأينا — لا يخلون من جرائم فى حق الدولة أو الدين أو المأمون نفسه .

أما عن عفو المأمون وتسامحه فنستطيع أن نتحدث عنه الكثير مما يدل على أصالة العفو فى نفسه ، ورحابة صدره وغفرانه لمن يؤذيه أو يناله

---

(١) هم ابن عائشـــة ومحمد بن ابراهيم الافريقى ومالك بن شاهى اوفرج البغدادى .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٠ .

(٣) مروج الذهب ٢ : ٣٣٧ .

بالسوء . وغاية ما يقال فى هذا أن المأمون كان يتهاون فى حق نفسه، ولكنه لم يتهاون فى حق الدين أو الدولة ، كما يتضح لنا فى تشدده مع ابن عائشة وعلى بن هشام . ويتحدث المأمون عن مذهبه فى العفو فيقول : أنا والله ألذ العفو حتى أخاف أن لا أؤجر عليه ، ولو علم الناس مقدار محبتى للعفو لتقربوا إلى بالذنوب[١] ، ويقول أيضاً : لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيى فى العفو ليذهب عنهم الخوف ويخلص السرور إلى قلوبهم[٢] .

وقد يستبد الغضب بالمأمون فيخرج عن لينه ورفقه ، ولكنه لا يلبث أن يثوب إلى نفسه . ومما يروى فى هذا الصدد أن رجلا ارتكب جناية وقف بين يدى المأمون فثار غضب المأمون عليه وقال : والله لأقتلنك ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، تأن فإن الرفق نصف العفو ، قال المأمون: وكيف وقد حلفت لأقتلنك ، قال الرجل: لأن تلقى الله حانثاً خير من أن تلقاه قاتلا ، فخلى سبيله [٣] .

ولو أن العفو لم يكن صفة إنسانية نبيلة فى نفس المأمون لأخذ كل رؤوس الفتنة التى انتهت بخلعه وتعيين عمه إبراهيم بن المهدى خليفة بمنتهى القسوة والعنف ، ولكنه عفا عنهم جميعاً إلا ابن عائشة وثلاثة معه للسبب الذى ذكرناه . لقد عفا عن عيسى بن خالد ، وهو يصف لنا جرمه فيقول : طرد خليفتى من مدينتى ومدينة آبائى ، وذهب بخراجى

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢١٤ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٠٣ .
(٣) المصدر نفسه : ٢١٣ .

وفيئى ، وأخرب على ديارى ، وأقعد إبراهيم خليفة دونى ودعاه باسمى[1] ، بل عفا عن إبراهيم بن المهدى نفسه مما جعل لسانه ينطلق بمدحه والإشادة بعفوه ، يقول :

وعفوت عمن لم يكن فى مثله
عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما
ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا
وعويل عانسة كقوس النازع
قسماً وما أدلى إليك بحجة
إلا التضرع من مقر خاشع
ما إن عصيتك والغواة تمدنى
أسبابها إلا بنية طائع[2]

وعفا عن الفضل بن الربيع الذى كان سبب مأساة الحرب بينه وبين أخيه الأمين ، فحين دخل المأمون بغداد لجأ الفضل إلى طاهر بن الحسين فأدخله على المأمون حاسراً ، لا سيف عليه ولا طيلسان ولا قلنسوة ، فلما توسط الدار ، وثب المأمون عن عرشه فصلى ركعتين ثم التفت إليه قبل أن يسلم عليه بالخلافة فقال : أتدرى لم صليت يا فضل فقال :

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٧ حوادث سنة ٢٠٩ هـ :
(٢) أشعار أولاد الخلفاء : ١٨ .

لا يا أمير المؤمنين ، قال : شكراً لله إذ رزقني العفو عنك [١] . وحتى ابن رحيم المدني الذي كان يصعد المنبر ولا يدع من قول القبيح شيئاً إلا شتم به المأمون عفا عنه ولم يمسسه بسوء ! [٢] .

وتقترن بصفة العفو في شخص المأمون الإنسان صفة الحلم ، ومما يروى في ذلك أن بشر بن الوليد قال للمأمون يوماً : إن بشراً المريسي يشتمك ويعرض بك ويزرى عليك ، فقال . فما أصنع به ؟ ثم دس المأمون رجلا فحضر مجلسه ، وتسمع ما يقول ، فأتاه الرجل يوماً فقال : سمعته يقول حين أراد القيام وفرغ من الكلام بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم العن الظالمة وأبناء الظلمة من آل مروان ، ومن سخطت عليه ممن آثر هواه على كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، اللهم وصاحب البرذون الأشهب فالعنه . فقال المأمون : أنا صاحب البرذون الأشهب ، وسكت عليها . فلما دخل عليه بشر ، قال له : يا أبا عبد الرحمن متى عهدك بلعن صاحب البرذون الأشهب فطأطأ بشر رأسه ، ثم لم يعد بعد ذلك إلى ذكره والتعرض له [٣] .

وكانت أم جعفر عند المأمون فأمر خدمه بشيئين لم يعملا ، فاستنكرت ذلك فقال لها المأمون: لا معنى لعقوبة بعد قدرة ، الحلم عن الذنب أبلغ من الأخذ به [٤] .

---

(١) كتاب بغداد : ١٤ .
(٢) المصدر نفسه : ١٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٥٧
(٤) المصدر نفسه : ٥٦

وهذه الحكمة الصائبة لم يخرج عليها المأمون قط فيما وصلنا من أخباره ، فكان مع خدمه ليناً رفيقاً إلى حد إغرائهم بالتهجم عليه . ويروى ابن طيفور فى ذلك رواية أعتقد بصحتها برغم المبالغة فيها لأنها تمثل المبالغة فى حلم المأمون نفسه ، قال : كان للمأمون خادم يتولى وضوءه ، فكان يسرق طساسه فبلغ ذلك المأمون فعاتبه ، ثم قال له يوماً وهو يوضيه : ويحك لم تسرق هذه الطست ، لو كنت إذ سرقتها أتيتنى بها اشتريتها منك ، قال : فاشتر هذا الذى بين يديك ، قال :بكم ؟ قال : بدينارين ، قال المأمون : أعطوه دينارين ، قال : هذا الآن فى الأمان ؟ قال : نعم[1] .

وحدث جعفر ابن أخت العباس وقد ذكر حلم المأمون فقال : لحلمه والله أرجح من حلوم ألف كلهم حليم ، ليس فيهم ملك ولا خليفة ، ثم قال : (دخلت عليه أمس ، وإذا يده معلقة من شىء رطب أكله قد مسته النار ، وهو يصيح : يا غلام ! وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه ، فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً ، فإذا بعضهم يلعب بالكعاب ، وبعض يلعب بالشطرنج ، وبعض يهارش بين الديوك ، فقلت : يا بنى الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم ؟ فقال واحد : حتى أقيس هذا الكعب وأجىء ، وقال الآخر : قد بقيت لى على هذا ضربة ، وقال آخر : إذهب فإنى أتبعك ، فما علمت ما كنت أخاطب به من الغيظ والحنق عليهم ، قال : فإذا المأمون قد صوت بى وأنا أقذف أمهاتهم ،

(١) المصدر نفسه والطساس جمع طست .

فأتيته وهو يضحك ، فقال : أرفق بهم فإنهم بشر مثلك ، قلت . والعتق أنت بيدك ، فضحك وقال : هذا معاشرتك خدمك ، قلت : والله لو فعل بى ابنى هذا دون خدمى لقتلته ، قال : هذه أخلاق السوقة ، وأخلاقنا أخلاق الملوك ، قلت : لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبيـــاء أيضاً(1) .

ومثل هذه الروايات التى تصور حلم المأمون ورفقه بالضعفاء وخاصة خدمه نجد الكثير منها فى المصادر المختلفة . ومن بين هذه الروايات ما ذكره عبد الله بن طاهر ، قال : كنت عند المأمون فنادى بالخادم : يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانياً وصاح : يا غلام ؟ فدخل غلام تركى وهو يقول ،ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب ، كلما خرجنا من عندك تصيح: يا غلام يا غلام ، إلى كم يا غلام ؟فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه، ثم نظر إلى وقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ، ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ، وإنا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لتتحسن أخلاق خدمنا(2) .

وهذه الجرأة من خدم المأمون عليه لا يقابلها عسف ولا جور ، وإنما يذهب المأمون فى ذلك مذهب الحلم الجميل والعفو عنهم ، مؤكداً قوله : لا معنى لعقوبة بعد قدرة . وكثيراً ما كان المأمون يقوم بنفسه لأداء

(1) كتاب بغداد : 55 .
(2) المستطرف 1 : 96 .

الخدمة التى يريدها ، فقد روى أبو الصلت عبدالسلام بن صالح قال : بت عند المأمون ليلة ، فنام القيم الذى كان يصلح السراج، فقام المأمون وأصلحه ، وسمعته يقول : ربما أكون فى المتوضأ فيشتمنى الخدام ويفترون على ولا يدرون أنى أسمع فأعفو عنهم [١] .

ولا أعرف أحداً من العظماء وصل حلمه إلى هذا المدى ، حتى إن واحداً من بطانته كان يقول إن المأمون يحلم حتى يغيظه حلمه. وروى فى ذلك أنه كان على شاطىء دجلة فمر فلاح وهو يقول : أتظنون أن هذا المأمون ينبل فى عينى وقد قتل أخاه ؟ فما زاد المأمون على أن يبسم وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل فى عين هذا الرجل الجليل[٢] ! وشبيه بهذا أيضاً رواية المأمون مع أبى كامل طباخه ، فقد أمره المأمون أن يعد صنفاً بعينه لغذاء اليوم التالى ، ودعا ضيوفاً لمشاركته طعامه، فلما جاء الضيوف ودعا المأمون بما طلبه من الطعام قال له الطباخ إنه قد نسى ، فلم يزد على قوله أحب أن لا تنسى [٣] .

وهذا الحلم الواسع كما يقترن بروح السماحة والعفو فى شخصية المأمون يقترن بفضيلة التواضع أيضاً ، فهو يتواضع لكل من يعرفه تواضعاً جميلا ، ينسى سلطانه وخلافته ، ويذكر المرء بأنه إنسان نبيل فحسب يتصف بالبساطة والسمو والحساسية المفرطة التى لا تحب إيذاء

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١٣ .

(٣) كتاب بغداد : ٦١ .

شعور إنسان ما . بات عنده قاضيه يحيي بن أكثم فأخذه سعال ، فرآه يحيي وهو يسد فمه بكم قميصه حتى لا يتنبه [(١)] . وكان يحيي يماشيه يوماً في بستان فكان في الجانب الذى يستره من الشمس. فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع ، أراد يحيي أن يدور إلى الجانب الذى يستره من الشمس فقال : لا تفعل ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتنى[(٢)] . ونام يحيي بن خالد عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه و يحيي نائم حتى لا يوقظه ، وقام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء فأخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى ينام عليه يحيي فخطا خطوات خائف لئلا ينبهه حتى صار إلى فراشه . بل نرى المأمون يقوم لإحضار ماء ليحيي بن أكثم وكان ضيفاً عنده ، فلما استهول ذلك يحيي قال له المأمون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد القوم خادمهم [(٣)] .

ودخل أبو طالب صاحب الطعام على المأمون — وكان من أسخف الناس وأجهلهم — فقال للمأمون : كان أبوك يابا صديقنا، وأنت يابا لا تعرف حقنا ، ولا ترفع بنا رأساً ، ونحن يابا جيرانك . وهكذا والمأمون يطرق ما يرد عليه شيئاً ولا يزيده على التبسم [(٤)] .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٠٣ .

(٢) العقد الفريد ١ : ٢٠٩ .

(٣) تاريخ الخلفاء : ٢٢١ .

(٤) كتاب بغداد : ٦١ .

وليس معنى ذلك كله أن المأمون كان ضعيف الشخصية مع خدمه أو خاصته ، بل كان قوياً قادراً يستطيع أن يرد الرجل إلى مكانه فى أى وقت يشاء . دخل عليه مخارق المغنى وكان ينادم المأمون على الشراب ، فرأى المأمون يأكل ، فدعاه إلى الطعام ، فأقبل مخارق على مشاركة المأمون فى طعامه ، فحجبه عنه شهراً كاملا ، ثم أذن له فدخل عليه وهو يتغدى أيضاً ، فدعاه إلى الطعام ، فأبى مخارق وقال : لا والله لا أعود لمثلها أبداً ، فضحك المأمون ثم قال له : ويلك أظننت بى بخلا على الطعام؟ لا والله ولكنى أردت تأديبك لمن بعدى لأن الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدمها ، وأخاف أن تتعود هذا من غيرى فلا يحتملك عليه، فتعال الآن فكل فى أمان (١)

وفضيلة التواضع التى هى مركوزة فى نفس المأمون تجعله يأبى أن يتصف بخصلة ليست له ، ولو كانت من باب الإعظام أو المجاملة ، بات عنده يحيى بن أكثم ليلة فانتبه المأمون فقال: يا يحيى انظر إيش عند رجلى ! فنظر يحيى فلم ير شيئاً،فطلب المأمون شمعة فأتى بها الفراشون فقال : انظروا،فنظروا فإذا تحت فراشه حية بطوله ، فقتلوها ، فقال يحيى : قد انضاف إلى كمال أمير المؤمنين علم الغيب ، فقال المأمون : معاذ الله ، ولكن هتف بى هاتف الساعة وأنا نائم فقال :

---

(١) المصدر السابق : ١٧٣ .

يا راقـد الليـل انتبـه

إن الخـطوب لهـا سرى

ثقـة الفـتى بزمـانه

ثقـة محـللة العـرى

فانتبهت فعلمت أن قد حدث أمر إما قريب وإما بعيد ، فتأملت ما قرب فكان ما رأيت[1] » .

وبسبب تواضع المأمون أيضاً لا نراه يلج فى خطأ يعلم أنه خطأ ، أويضيق صدره بمن يرده فى شىء بل يتقبله ويفهم وجه الصواب فيه . روى مرة حديثاً عن رسول الله يقول فيه: « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » .فنطق لفظ سداد بالفتح ، وكان فى مجلسه النضر بن شميل فأعاد الحديث ناطقاً لفظ سداد بالكسر ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال : السداد لحن يا نضر؟ فقال نعم ، قال المأمون : ما الفرق بينهما ؟ قال النضر : السداد بالفتح القصد فى السبيل والسداد بالكسر كل ما سددت به شيئاً . وطلب المأمون شاهداً من أقوال العرب فتمثل النضر ببيت من الشعر ، فأطرق المأمون ملياً ثم قال : قبح الله من لا أدب له[2] ، يعنى نفســه يلومها على خطئه .

ومع ما يبدو من لين جانب المأمون إلا أننا نراه قوياً فى مجاهدة نفسه ، لا يضعف أمام لذة ، ولا يتهالك على الشهوات . وقد رأينا

(١) تاريخ الخلفاء : ٢١٠ .
(٢) المصدر نفسه : ٢١١ .

ذلك فى شخصيته منذ كان طفلا وشاباً، فهو لا تستهويه مغريات عصره على كثرتها ، ومع قدرته على التنعم بأعظمها فيها . بل نراه يحاسب نفسه على أبسط الأمور ، فقد أعجب إعجاباً شديداً بفص ياقوت ولكنه لم يسمح لنفسه بالخضوع لهواه ، فرد الفص لصاحبه ، وقال : والله لأضعن من قدر هذه الحجارة التى لا معنى لها (١) . وكان إذا غنى بالصوت يشتهيه استعاده ولم يسمع غيره ، وإذا اشتهى من الطعام صنفاً أكله ولم يأكل غيره (٢) .

ولا شك أن هذه النزعة العملية فى شخصية المأمون مردها إقباله على الفلسفة والعلوم العقلية التى جعلته يقيس الأشياء بقيمتها الحقيقية . ولهذا نراه أيضاً لا ينفعل بالأقوال قط ، كما فى حديثه للواعظ الذى أصغى إليه منصتاً، فلما فرغ قال له : قد سمعت موعظتك فأسأل الله أن ينفعنا بها وبما علمنا، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال ، فقد كثر القائلون وقل الفاعلون (٣) .

وليس معنى ذلك أن المأمون لم يأخذ قط نصيبه من الدنيا أو يسمح لنفسه بقدر من التمتع لا يرى فيه خروجاً على جادة الدين أو المبادىء والمثل التى يأخذ بها نفسه ، كان يحب أن يتفكه مع خاصته يعابثهم ويتقبل عبثهم، كما رأينا فى سخريته من ضخامة جثة عمه إبراهيم بن

---

(١) كتاب بغداد : ١٣٠ .
(٢) المصدر نفسه : ١٧٤ .
(٣) العقد الفريد ٣ : ١٦٦ .

المهدى وسواد لونه،وكما يروى ابن طيفور عن شخص اسمه أبو عيسى كان مشهوراً بالعبث ، وكان المأمون يتقبل منـــه معابثاته بصدر رحب [١] .

وكان — كما ذكرنا من قبل — يحب أن يروح عن نفسه من عناء مسئولياته ومن جهد مجالسه العلمية بلعب الشطرنج ويقول عنه إنه يشحذ الذهن [٢]

أما ملهيات عصره من شراب وغناء فقد كان المأمون يشرب النبيذ على مذهب العراقيين طبقاً لما ارتآه أبو حنيفة الذى لم يكن يعد النبيذ خمراً وكان يجوز شربه [٣] .

ويقول صاحب كتاب « التاج فى أخلاق الملوك » إن المأمون كان فى أول أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة، ثم أدمن الشراب عند خروجه إلى الشام فى سنة خمس عشرة ومائتين إلى أن توفى [٤] . إلا أننا نشك فى هذه الرواية ، ولا نرى من واقع حياة المأمون ودراستنا لشخصيته ما يجعله يصل إلى مرحلة الإدمان ولو كان شرابه النبيذ الذى حلله بعض الفقهـــاء .

وأما الغناء فكان المأمون الشاعر الرقيق الإحساس من عشاقه بطبيعة

---

(١) كتاب بغداد : ٦٩
(٢) تاريخ الخلفاء : ٢١٥ .
(٣) انظر : اتجاهات الشــــعر العربى فى القرن الثانى : ٤٧٦
(٤) التاج فى أخلاق الملوك : ١٥٣ .

الحال ، ويذكر الجاحظ أن المأمون ظل بعد عودته إلى بغداد نحو عامين لم يسمع حرفاً من الغناء إذ كان مشغولا فيما يبدو بتدبير أمور الدولة ومواجهة الفتن والاضطرابات التي كادت تعصف بسلطانه . ثم سمع الغناء من وراء حجاب متشبهاً بالرشيد ، وظل كذلك سبع سنوات ، ثم ظهر للندماء والمغنين » (١) .

وقد شهد عصر المأمون أعظم المغنين والموسيقيين : كان فيه علويه ومخارق وإسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدى وعمرو بن بانة وبذل الجارية وعريب ومن إليهم . وكان المأمون يستجيد الأصوات والألحان وينفذ إليها بعمق ويطرب لها وهو يشرب النبيذ غالباً ، دون أن يخرج عن طوره أو يخلع عذاره .

وأما عن علاقة المأمون بالنساء ، فلم نر في أخباره ما يدل على أى نوع من الغرابة أو الشذوذ في هذه العلاقة ، ويبدو أنه لم يتزوج من الحرائر غير أم عيسى ابنة عمه موسى الهادى ، وقد أنجب منها ولدين كما سبق أن ذكرنا ، أما بقية أولاده الذين يبلغون أربعة عشر ذكراً — غير ولديه من أم عيسى — وبناته اللاتى لا نعرف عددهن فقد أنجبهم من أمهات أولاد (٢) .

وكان المأمون في اختياره الجوارى حريصاً على معرفة عقل الجارية

(١) المصدر نفسه : ٤٣ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٩٧

قبل رؤية جمالها ، حكى أحد النخاسين قال : عرضت على المأمون جارية شاعرة فصيحة متأدبة شطرنجية (أى تحسن لعبة الشطرنج) فساومته فى ثمنها بألفى دينار ، فقال المأمون إن هى أجازت بيتاً أقوله ببيت من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك [1] . فكأنه يقدم على الجمال معرفة الجارية بالأدب وحسن فهمها له وتجاوبها معه .

ولعل قصة الحب الوحيدة أو ما يشبه أن تكون قصة حب فى حياة المأمون ما يروونه عن علاقته بعريب الجارية ، فابن المعتز يروى أن المأمون كان يعشقها وهى عند مولاها ، وكانت من أجمل النساء وجهاً كما يقول ابن طيفور ، وصوتها من أعذب الأصوات فى عصرها على كثرة من فيه من المغنين — ويبدو أن المأمون استطاع أن يشتريها ، ولكنه لم يستطع أن يشترى قلبها إذ كان معلقاً بحب آخر هو محمد (أو جعفر) ابن حامد الذى كانت تواصله خفية حتى إنها كانت تتدلى فى زبيل إلى جانب القصر ثم تصعد مرة أخرى ، بينما وضعت على فراشها تمثال رخام تحت الغطاء بحيث يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة [2] .

ويقول السيوطى إن المأمون اكتشف هـذه العلاقة بين جارية وعشيقها — ويبدو أنه كان واحداً من بطانته — فلم تأخذه الغيرة بحيث يتقد غضبه ، بل زوجهما فى الحال ومهرها عن حبيبها أربعمائة درهم [3] .

---

(١) تاريخ لخلفاء : ٢١٥ .
(٢) كتاب بغداد : ١٦٥ .
(٣) تاريخ الخلفاء : ٢١٦ .

ويبدو أن المأمون كان مستقراً فى حياته العائلية ، مهتماً بتربية أولاده وتثقيفهم ، وتلقينهم مكارم الأخلاق التى تعجبه . وقد رأينا من قبل كيف كان يلوم أحدهم على خطئه فى النحو ، كما عنف العباس ابنه على ظلمه للمرأة التى شكته ه وكان يجزع برقة إحساسه وجميل عطفه وأبوته على من يمرض من أولاده حتى ليتوسل بآثار النبى طلباً للبركة والشفاء — كما سبق أن ذكرنا . وحين ماتت ابنة له حزن عليها حزناً شديداً ، وقعد للناس يلتمس عزاءهم ليخفف عما بنفسه . يقول ابن طيفور فى ذلك : وأصيب المأمون بابنة له وهو يجد بها وجداً شديداً ، فجلس للناس وأمر أن لا يمنع منه أحد ، وأن يثبت عن كل رجل مقالته ، فدخل إليه فيمن دخل إبراهيم بن المهدى فقال : يا أمير المؤمنين ، كل مصيبة تعدتك شوى إذ كنت المنتقم من الأعداء ، ولك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فإنه عزى عن ابنته رقية فقال : موت البنات من المكرمات ، فأمر له المأمون بمائة ألف درهم وأمر أن لا يكتب شيء بعد تعزيته(١) ، وكأن نفسه قد استراحت وهدأت بما سمعه من حديث رسول الله ، فكان جلاء لحزنه .

أما زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل فكان زواجاً سياسياً لا شك فيه ، إذ أراد المأمون أن يوثق علاقته بآل سهل ليضمن دوام ولاء الفرس له ، ويعطف قلوبهم نحوه . ويتضح لنا هذا

(١) كتاب بغداد : ١٠٦ ومعنى شوى هينة بسيطة .

الدافع من عقد المأمون على بوران فى سنة ٢٠٢ هـ — بعد مقتل الفضل ابن سهل مباشرة— وكانت سنها إذ ذاك لا تزيد على عشر سنين ، وكأن المأمون خاف انتقاض الفرس عليه فأراد استمالتهم بهذه الرابطة الجديدة التى يؤكد بها خئولتهم السابقة له .وانتظر المأمون حتى عام ٢١٠ هـ. ليدخل على بوران وكأنه كان متردداً فى إتمام هذا الزواج ، ثم لم يجد بأساً من إتمامه استمراراً لوجود الدافع الذى كان وراءه .

وكان عرس بوران حدثاً اجتماعياً تاريخياً لكثرة ما أنفق عليه وما أحاط به من مظاهر الفخامة والروعة والثراء . وكأنى بالفرس قد أرادوا أن يظهروا قوتهم وضخامة ثرائهم ، فلم يجدوا فرصة أنسب من هذا الزواج التاريخى لإظهار ما يريدون . وقد روى لنا الطبرى صورة لمراسم هذا الزواج فقال : أخذ المأمون معه إبراهيم بن المهدى من بغداد شاخصاً إلى فم الصلح — حيث معسكر الحسن بن سهل — راكباً زورقاً حتى أرسى على باب الحسن . وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه على الظهر ، فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع قد اتخذ له على شاطىء دجلة ، بنى له فيه جوسق . . . ووافى المأمون وقت العشاء فى شهر رمضان فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشراب فأتى بجام ذهب فصب فيه ، وشرب ، ومد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال له الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك وأمرك ، فقال

له المأمون : لولا أمرى لم أمدد يدى إليك ، فأخذ الجام فشربه . فلما كان فى الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرئاستين ، فلما كان فى الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها ، فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد ذلك الدر كم هو ، فقالت ألف حبة ، فأمر بعدها فنقصت عشراً ، فقال : من أخذها منكم فليردها ، فقالوا : حسين زحلة ، فأمره بردها ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما نثر لنأخذه ، قال : ردها فإنى أخلفها عليك ، فردها . وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية كما كان ، فوضع فى حجرها وقال هذه نحلتك وسمى حوائجك . فأمسكت ، فقالت لها جدتها : كلمى سيدك وسليه حوائجك فقد أمرك . فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدى فقال : قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج فأذن لها . وابتنى بها فى ليلته،وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا فى نور ذهب ، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف . . .

وذكر أن المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعد له فى كل يوم لجميع من معه كل ما يحتاج إليه ، وأن الحسن خلع على القواد على مراتبهم ، وحملهم ووصلهم . وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم. وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس وأقطعه الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال الذى أعطاه له المأمون فى قواده وأصحابه وحشمه

وخدمه. ويقال إن الحسن كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها(١)

وهكذا دخل زواج المأمون ببوران التاريخ إذ يعتبر من الأعراس المعدودة على مدى الزمن لكثرة ما أنفق فيه من مال يبلغ ملايين الدراهم ولم يكن المأمون يتوقع من الحسن بن سهل هذا الإسراف الشديد — كما يتبين لنا من حديث له — ولكن الحسن — كما ذكرت — كان يعتبر هذا الزواج تتويجاً لعلاقة الفرس بالعرب وإيذاناً بعودة مجد الفرس ، ولعله كان يتمنى أن يعقب هذا الزواج ولداً تكون له الخلافة فى يوم من الأيام ، أو يحاول الفرس أن يجعلوا له الخلافة ، ولكننا لا نظن أن المأمون قد أنجب من بوران ، أو على الأقل لم ينجب منها ذكراً ، وإلا أشارت إلى ذلك المصادر التاريخية .

ومما تقدم يتبين لنا أن المأمون لم يكن يستسلم كثيراً لعواطفه أو لمغريات عصره ، وأن شخص الخليفة فيه والإنسان اجتمعا وامتزجا بحيث لم يعد فى المستطاع فصل الشخصيتين بحيث يقال المأمون الحاكم والمأمون الإنسان ، هناك مأمون واحد ركزت فيه كل الصفات النبيلة التى ذكرناها ، فيه التواضع والحلم والسماحة والعفو ، فيه الرحمة حتى لأعدائه . فحينما فتح المأمون حصن قرة بأرض الروم وغنم ما فيه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً(٢) .

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧١ حوادث سنة ٢١٠ هـ والمن ميزان قدر رطلين والنور اناء .

(٢) كتاب بغداد : ١٤٣ .

وكان طوال حربه فى بلاد الروم يعتق الشيوخ ويحمى العجائز . وإلى جانب هذه الصفات الإنسانية كان شجاعاً فى مواجهة الواقع ، صادقاً فى وعده لا يتاون ولا يتبدل ، ويكفى أنه حافظ على الوعود التى قطعها للناس فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة ، فلم يحد عنها قط . يضاف إلى ذلك كله أنه كان شاعراً رقيق الحس ، وكان عالماً متفقهاً فى الدين ، وفيلسوفاً متكلماً يستند إلى الحجة ويقنع بالدليل والمنطق .

ولعل نوع الحياة التى عاشها المأمون بكل ما فيها من ثورات وحروب وفتن ، وبكل ما فيها من جد خالص وإقبال على العلم ، وإفناء النفس فى سبيل رعاية مصالح الناس أجمعين قد جعلت الشيب يسرع إلى رأسه ، فبدا سمته مهيباً بعد أن نضجت رجولته ، واستطالت له لحية ، رقيقة[1] . وربما كان شيبه المبكر نتيجة عامل الوراثة ، إذ اتصف الرشيد بمثل ما اتصف به المأمون فى ذلك ، ثم كانت حياته بكل ما فيها من أحداث حياة عريضة ولكنها قصيرة ، كان قد خرج لحرب الروم فنزل على عين البدندون فأعجبه برد مائها وصفاؤه ، وطيب الموضع وكثرة ما فيه من خضرة مونقة ، ورأى فى العين سمكة كأنها سبيكة فضة ، فأعجبته فلم يقدر أحد أن ينزل فى العين لشدة بردها ، فجعل لمن يأتيه بالسمكة جائزة فاصطادها أحد أتباعه وخرج بها ، ولكن ما لبثت السمكة أن اضطربت فى يده وفرت إلى الماء فتنضح

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ١٨٣ .

صدر المأمون ونحره وابتل ثوبه ، وما لبث أن أصابته رعدة ، فأوقدت حوله نار ، وسأل عن معنى البدندون فقيل له : إن ترجمتها « مد رجليك » فتطير بالمكان ، وكأنما شعر بدنو أجله فقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه . وانطفأت حياة المأمون في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشر ومائتين . وكأني به كان يردد لنفسه الأبيات التي طالما كان يعجب بها ينشدها في حياته :

ومن لا يــزل غــرضاً للمنون
يتركنــه ذات يــوم عميـــداً
فــإن هــن أخــطأنه مـــرة
فيوشــك مخــطئها أن يعـــودا
فبينـــا يحيـــد وتخطينـــه
قصـــدن فأعجلنـــه أن يحيـــدا(١)

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٤٤ .

فهرس المصادر والمراجع

اولا : المصادر :

١ ــ اخبار العلماء بأخبار الحكماء ــ للقفطى ــ ط · الخانجى ١٣٢٦ هـ

٢ ــ الأخبار الطوال ــ لأبى حنيفة الدينورى ــ مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠ هـ ·

٣ ــ أشعار أولاد الخلفاء ــ لأبى بكر الصولى ــ مطبعة الصاوى ١٩٣١م

٤ ــ أشعار الخليع الحسين بن الضحاك ــ جمع وتحقيق عبد الستار فراج ــ دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠ م ·

٥ ــ الأغانى ــ لأبى الفرج الأصفهانى ــ ط · دار الكتب وساسى ·

٦ ــ الأمالى ــ لأبى على القالى ــ ط · دار الكتب المصرية ·

١ ــ الامامة والسياسة ــ لابن قتيبة ــ مطبعة الفتوح الأدبية القاهرة ١٣٣١ هـ ·

٨ ــ التاج فى أخلاق الملوك ــ للجاحظ ــ المطبعة الأميرية القاهرة ١٩١٤ م ·

٩ ــ تاريخ ابن خلدون ــ الطبعة المصرية ·

١٠ ــ تاريخ بغداد ــ للخطيب البغدادى ــ مطبعة السعادة القاهرة ١٩٣١م

١١ ــ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ــ لجلال الدين السيوطى ــ ط · ادارة الطباعة المنيرية القاهرة ١٣٥١ هـ ·

١٢ ـ تاريخ الطبرى ـ المطبعة الحسينية المصرية .
١٣ ـ تاريخ اليعقوبى ـ نشر المكتبة المرتضوية فى النجف ـ مطبعة العزى ـ النجف ١٣٥٨ هـ .
١٤ ـ التنبيه والاشراف ـ للمسعودى ـ مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٩٣م .
١٥ ـ دول الاسلام ـ للحافظ الذهبى ـ حيدر آباد الدكن ١٣٦٤هـ .
١٦ ـ ديوان ابراهيم الصولى ـ (مجموعة الطرائف الأدبية) ـ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر .
١٧ ـ ديوان أبى نواس ـ ط فاجنر ١٩٥٨ .
١٨ ـ ديوان الحسين بن الضحاك ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٠ .
١٩ ـ ديوان دعبل الخزاعى ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٢ .
٢٠ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ـ لأبى اسحق الحصرى القيروانى ـ نشر المكتبة التجارية القاهرة ١٩٢٩ م .
٢١ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ لابن العماد الحنبلى .
٢٢ ـ طبقات الشعراء ـ لابن المعتز ـ نشر دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م .
٢٣ ـ العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٣ م .
٢٤ ـ عيون الأخبار ـ لابن قتيبة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .
٢٥ ـ الفخرى فى الآداب السلطانية ـ لمحمد بن على بن طباطبا ـ نشرة درنبورغ ١٨٩٤ م .
٢٦ ـ الفرق بين الفرق ـ لعبد القاهر البغدادى ـ مطبعة المعارف بالفجالة ١٩١٠ م .
٢٧ ـ الكامل فى التاريخ ـ لأبى الحسن بن الأثير الجزرى ـ ادارة الطباعة المنيرية ١٣٥٧ هـ .

٢٨ ــ كتاب بغداد ــ لأحمد بن أبى طاهر طيفور ــ القاهرة ١٩٤٩ م ٠
٢٩ ــ مروج الذهب ــ للمسعودى ــ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ ٠
٣٠ ــ المعارف لابن قتيبة الدينورى ــ المطبعة الاسلامية القاهرة ١٩٣٤ م
٣١ ــ مقاتل الطالبيين ــ لأبى الفرج الأصفهانى ــ ط ٠ المطبعة الحيدرية فى النجف ١٣٥٣ هـ ٠
٣١ ــ الملل والنحل ــ للشهرستانى ــ ليبزج ١٩٢٣ م ٠
٣٣ ــ النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ــ لابن دحية الكلبى ــ مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٦ م ٠
٣٤ ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ ط ٠ دار الكتب المصرية ٠
٣٥ ــ نهاية الأرب ــ للنويرى ــ ط ٠ دار الكتب المصرية ٠
٣٦ ــ الوزراء والكتاب ــ للجهشيارى ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ــ القاهرة ١٩٣٨ م ٠
٣٧ ــ وفيات الأعيان ــ لابن خلكان ــ ط٠ مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٨م

ثانيا : كتب أخرى :

٣٨ ــ أبو تمام حياته وحياة شعره ــ نجيب محمد البهبيتى ــ دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م ٠
٣٩ ــ أبو تمام ــ عمر فروخ ــ مطبعة الكشاف ببيروت ١٩٣٥ م ٠
٤٠ ــ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثـــانى الهجرى ــ د ٠ محمد مصطفى هدارة ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م ٠
٤١ ــ أحمد بن حنبل والمحنة ــ ولتر باتون ــ نشر دار الهلال ١٩٥٨ م ٠
٤٢ ــ أدب المعتزلة ــ عبد الحكيم بلبع ــ نشر مكتبة نهضة مصر ١٩٥٩م .
٤٣ ــ أسباب اختلاف الفقهاء ــ على الخفيف ــ نشر معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٦ ٠

٤٤ ـ الاسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد علي ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩ م .

٤٥ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ لي سترانج ـ المطبعة العربية ـ بغداد ١٩٣٦ م .

٤٦ ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ لي سترانج ـ مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٤ م .

٤٧ ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ جورجي زيدان ـ دار الهلال القاهرة ١٩٥٨ م .

٤٨ ـ تاريخ الجهمية والمعتزلة ـ جمال الدين القاسمي الدمشقي ـ مطبعة المنار بمصر ١٣٣١ هـ .

٤٩ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ـ كارل بروكلمن ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩ م .

٥٠ ـ تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث ـ نجيب البهبيتي ـ دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

٥١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمن ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩ م .

٥٢ ـ تاريخ العرب ـ فيليب حتى ـ دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٠ م .

٥٣ ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام ـ دي بور ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م .

٥٤ ـ تاريخ الولاة والقضاة في مصر ـ لمحمد بن يوسف الكندي . مطبعة بريل ليدن ١٩٢٩ م .

٥٥ ـ تراث الاسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٦ م

٥٦ ـ الجاحظ حياته وآثاره ـ طه الحاجرى ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م

٥٧ ـ حضارة الاسلام ـ فون جرونباوم ـ مكتبة مصر بالفجالة ١٩٥٦ م ٠

٥٨ ـ الحضارة الاسلامية ـ فون كريمر ـ دار الفكر العربى ١٩٤٧ م ٠

٥٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٠

٦٠ ـ دراسات اسلامية ـ مجموعة باحثين ـدار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٠م

٦١ ـ الصراع بين الموالى والعرب ـ محمد بديع شريف ـ دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥٤ م ٠

٦٢ ـ ضحى الاسلام ـ أحمد أمين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ م ٠

٦٣ ـ العصر العباسى الأول ـ عبد العزيز الدورى ـ دار المعلمين العالية بغداد ١٩٤٥ م ٠

٦٤ ـ عصر المأمون ـ أحمد فريد رفاعى ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٧م٠

٦٥ ـ العقيدة والشريعة فى الاسلام ـ جولدزيهر ـ دار الكاتب العربى ١٩٤٦ م ٠

٦٦ ـ العلم عند العرب ـ الدومييلى ـ دار القلم ١٩٦٢ م ٠

٦٧ ـ الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ـ ديلامس أوليرى ـ عالم الكتب القاهرة ١٩٦١ م ٠

٦٨ ـ قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ ـ ١٩٦٠ م ٠

٦٩ ـ محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ـ محمد الخضرى ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٣ م ٠

٧٠ ـ مســــالك الثقافة الاغريقية الى العرب ـ ديلامس أوليرى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ م ٠

٧١ ـ مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ـ روزنتال ـ دار الثقافة بيروت ١٩٦١ م ٠

٧٢ ـ من تاريخ الحركات الفكرية فى الاســـلام ـ بندلى جوزى ـ مطبعة بيت المقدس ـ القدس ١٩٢٨ م ٠

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٣٢٩٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٥٢٨ ـ ٧

هذا الكتاب

يعد المأمون من أعظم الشخصيات التى يُعتز بها فى تاريخنا العربى ، فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى كانت بداية لتفتح ينابيع الثقافة الغربية ، وظهر فى فترة حرجة كانت تهتز فيها الخلافة العربية أمام الذين لا يريدون الخير للعرب وللإسلام .

وهذا الكتاب يقدم صورة واضحة المعالم لشخصية المأمون ولعصره والتطور الأدبى والعلمى .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرشـا